الرؤية الآن
في هموم فلسطين والعالم الإسلامي

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

تقديم .....
الأمة التي تعمل ضد مصالحها .....
حكاية اللوبي والسياسة الأمريكية .. الوجه الآخر .....
هكذا حررنا القدس .. وهكذا ضيعناها .....
سقوط أدونيس .....
الهروب من النار والاكتواء بها .....
سيدة المافيا .....
الحكم الذاتي : ذلك الجانب المظلم .....
ذوو الثياب البيضاء .....
إنهم يرصدوننا جيداً .....
نسبية العلم والإدعاء المرفوض .....
ليست المحبة للحق وحدها .....
حول كامي وبقية العمالقة .....
منطق الحواة .....
طوباوية الماركسية .....
رجعية الماركسية .....
ضرورة ملحة .....
عندما يغدو التراث مسرحاً للعب الصغار .....
وآيات للمجابهة والصمود .....
ماذا يكون وزنهم ؟ .....
فلسطين بين الإنسان المسلم والعربي المعاصر .....
حين تصير الدنيا مسجداً .....
إلا شبح الإسلام .....
الدين واحد .....
من هنا يبدأ السقوط .....
الخروج النهائي وقتل الإنسان .....
السرطان .....

السيف والمحبة .....
اغتيال كاتب .....
وسيلة إيضاح .....
المطلوب تصفيتان لا واحدة .....
أوكازيون الدم الإسلامي .....
لعبة سحب البساط .....
السكين والمطرقة .....
الإسلام كان دائماً الهدف .....
الشيخ أحمد ياسين في محاكم التفتيش .....
الصوت اليهودي .....
الهوية أم الرغيف ؟ .....
الأخطبوط .....
الدخول على الآخر .....
المجابهة بردود الأفعال .....
فلسفة قتل الإنسان .....
لمصلحة من ؟ .....
واحدة من عشرات .....
الصدق مع الذات .....
المسلم بين الاتصال والانفصال .....
ضلال العلم ! .....
الحرية والقوة .....
العالم والسلطان .....
معادلات في مواجهة المحنة .....
كتب للمؤلف .....

تقديم

هذه جملة من المقالات التي تمس القضايا الساخنة في الجغرافيا الإسلامية ، توخيت فيها الإيجاز والتركيز الذي قد يغني عن التفصيل ، ونشرت أكثرها في العديد من المجلات العربية والإسلامية ، ثم ارتأيت أن أجمعها في كتاب وأن يكون الكتاب ضمن إصدارات " فلسطين المسلمة " لأن جلّ مقالاته تبدأ من القضية الأم في حياتنا المعاصرة وتؤول إليها.

لا يكفي القول إنها تصدر عن رؤية إسلامية ، إذ قد يكون هذا بمثابة استفزاز للطرف الآخر ، أياً كان انتماؤه أو هواه ، وقد يمنحه المبرر لاتهام التحليل بالانحياز المسبق ، لكننا رغم إيماننا اليقيني العميق بأن المنظور الإسلامي ينطوي بالضرورة على " الحقيقة " في أكثر صيغها واقعية وحياداً ، فإننا سنتجاوز التنظير الصرف إلى الواقعة نفسها من أجل جعلها تتحدث بعيداً عن أي إقحام فكري مسبق ، ومنح النتائج – بالتالي – المصداقية المطلوبة.

ها هنا أيضاً فإننا لا نتوقع من الطرف الآخر أن يسلّم بمعطيات كهذه ، بل إنه لأسباب معقدة متشابكة ، سيرفضها ، وسيزداد – ربما – جنوحاً باتجاه الرفض والاتهام. إنما المهم أن يجد القراء المسلمون أنفسهم في الإعلام الإسلامي بمعطياته كافة ، الفرصة الجادة لإضاءة الحدث الذي يتشكل قبالتهم صباح مساء ، والذي يمارس دوراً خطيراً في تشكيل حاضرهم وصياغة مصيرهم على السواء.

ومع القراء المسلمين ، هنالك ولا ريب قاعدة واسعة ، أكثر حيادية ، من مثقفي العالم ، قد تكون بحاجة لا تقل إلحاحاً ، إلى إضاءات كهذه ، تخرجها على الأقل من دائرة العتمة وتشويه الحقائق ، التي ترسمها وتشكل مساحاتها مفردات الإعلام المضاد في اتجاهاته كافة ، هذا التعتيم والتشويه الإعلاميان اللذان أخذا يتأكدان أكثر فأكثر بمرور الوقت ، مع ، وبموازاة مراكز اتخاذ القرار في دوائر الخصم الذي يسعى في الحالين إلى استنزاف قوى المسلم في العالم ، وبعثرة طاقاته ، وتدمير ثقته بنفسه ، ودفعه في نهاية الأمر إلى مواقع التبعية وفقدان الخصائص الذاتية.

إن هذه الواقعة المضادة للإنسان بكل المعايير تتشكل في زمن الإدعاء بالتقدم الحضاري ، وحرية الإنسان ، والنظام العالمي الجديد الذي يقود إلى تأكيد التقدم والحرية وتصعيد وتائرهما إلى أقصى مدى ممكن !.

ليست هذه هي المرة الأولى ولا الأخيرة لبروز هذه الازدواجية ، أو هذا الشرخ الخطير بين الواقع والمثال ، أو بين التاريخ والحلم ، فإن طبيعة " الأخلاق " الذرائعية في الغرب كانت دائماً، وعلى مر العصور ، تقود إلى ارتطام كهذا .. تحفر خندقاً يزداد عمقاً بمرور الوقت ، بحكم تراكم الخبرة ، بين مطالب الإنسان في العالم وبين صياغة هذا العالم بما يجعل جغرافيته تتمركز عند

حافات المصلحة الغربية ، وليس ثمة وراءها سوى الابتزاز الذي يبلغ في العقد الراهن هذا ، أقصى حالاته عنفاً وتكشفاً في الوقت نفسه.

لن نكون مجافين للحقيقة إذا قلنا بأن الاستعمار الجديد ، والصليبية ، والصهيونية ، بسائر أجنحتها وتنظيماتها المقفلة والمفتوحة ، فضلاً عن الشيوعية التي تعرضت – ولا تزال – للمزيد من التفكك والانهيار .. مارست جميعاً دورها في اللعبة ، وكانت المستفيدة في معظم الأشواط ، بينما في الطرف الآخر ينهزم الإنسان عموماً ، والإنسان المسلم على وجه الخصوص ، وهو يجد نفسه مرغماً – بسبب من قلة الحيلة أو ضعف الوعي – على الدخول في لعبة خاسرة صممت شروطها ومواصفاتها ابتداءً ، لكي تقود إلى انتصار القوى المذكورة وإحكام سيطرتها على العالم منفردة حيناً ، متعاونة متلاحمة في أكثر الأحيان.

إنهم يعرفون تماماً كيف يتبادلون الكرة ، وكيف يقتربون بها من الهدف .. بل إنهم ، حتى وهم يجدون أنفسهم قبالة مرمى مفتوح تماماً ، خالٍ من أية حماية جادة ، لا يستأثرون بالتسديد وتسجيل الأهداف ، وإنما يداري أحدهم الآخر ويحوّل إليه الكرة ، رغم ضمان التسجيل ، من أجل منحه هو الآخر الفرصة لإغناء الرصيد.

ومرة أخرى فإن المسلم يخرج دائماً ، في نهاية كل شوط ، خاسراً منكسراً ، وتحت عناوين أكثر إثارة ، يحسن الخصم صياغتها ، بين فترة وأخرى ، تباع ألوف البطاقات للمشاهدين وتبدأ مباراة جديدة ، وفق الاتفاقات المسبقة ذاتها والتي يصير فيها الحكم نفسه قاضياً وشاهداً ومتهماً. لكي ما تلبث أن تنتهي بمزيد من الأهداف للاعب الغربي أياّ كان موقعه في الساحة ، مهاجماً أم وسطاً أم ظهيراً .. ويغادر المسلمون الساحة وليس ثمة هدف واحد في شباك الخصم ، اللهم إلا ما اتفق عليه الأخير من إعطاء فرصة للتغطية والإثارة ، لا تزيد أو تنقص في مصائر اللعبة على الإطلاق.

في عام (١٩٧٣م) ، أي قبل عشرين عاماً ، أنجزت تأليف كتيب بعنوان " أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار " جاء فيه " الذي نريده من هذا العرض الموجز للمتغيّرات الدولية بين الكتل المتصارعة هو أن نبين كيف أن مسألة " اليمين واليسار " قد تفتّت على المستوى الدولي ، في النطاق العسكري والسياسي والاستراتيجي والاقتصادي على الأقل ، وأما الأيديولوجي فسيجيئ حتماً وقد بدأت بوادره تظهر في مواقف روسيا من تيارات الحضارة الغربية ، وفي عودتها إلى مسألة الوازع الذاتي في الإنتاج ، وتخليها عن سياسة التوتر والعزلة والانغلاق التي سادت العقود الماضية ، بل إنه في بعض دويلات الاتحاد السوفيتي ازداد هذا التغير المذهبي حدة ، ليس على مستوى السلطة فحسب ، بل على مستوى الجماهير الساحقة ، وكاد يجعل دولة كتشيكوسلوفاكيا تفلت من إطار الشيوعية الروسية وترتمي ثانية في أحضان الغرب بإرادة كاملة لتسعة من كل عشرة من مثقفيها ، وليس هذا التغير (المتكامل) سوى بديهة من بداهات

العلاقات الحضارية ووحدتها العضوية ، إذ لا يمكن أن يطرأ تغير كمي أو نوعي في جانب من جوانب حضارة ما إلا شهدت الجوانب الأخرى تغيرات موازية بنفس الحجم ، فهذا الارتباط العضوي ، مضافاً إليه بداهات النفس البشرية ومتطلباتها الأساسية التي أغفلتها الماركسية خلال مرحلة التطبيق ثم ما لبثت أن اصطدمت بها اصطداماً مريعاً ، هي التي تجعلنا نخمن ما سيكون عليه الاتحاد السوفيتي ، أو غيره من الدول الشيوعية بعد عشرين أو ثلاثين عاماً.

" إن هندسة عالم ما بين الحربين ، والعقد الذي أعقب أخراهما ، قد تغيرت تغيراً جذرياً ، و(مواقع) السياسات الدولية أخذت تتحول ، كالكثبان الرملية ، من مكان إلى مكان ، فما هو اليوم يميني سيصبح غداً يسارياً وما هو في الغد يساري سيتحول بعد غد إلى موقع في أقصى اليمين ! إنها أشبه بلعبة فقدت قواعدها وتجاوزت الالتزامات الفنية والقانونية من أجل (الربح) وحده ، فلاعبوها يغيرون مواقعهم ، والدفاع يتجاوز خط الهجوم ويتراجع المهاجمون إلى مواقع الدفاع ، ويترك حامي الهدف شباك مرماه ، لكي يذهب إلى خصمه فيبعده عن مكانه ويتيح للكرة أن تدخل مرماه !! ، وذلك هو منطق السياسة في أغلب الأحيان ، إنها تتجاوز كثيراً متطلبات المذهب وصرامته وهويته ، وترتضي المواقف الوسطية في عالم متغير لا يتنفس فيه إلا من يداهن ويتقرّب وينفتح ويتملق ويسايس .. لقد غدا عالمنا مسرحاً للاحتراف السياسي وليس ميداناً للصراع الفكري كما كان في يوم من الأيام .. ! ولنتذكر – دائماً – ونحن نطالع في كتاب مايلز كوبلاند (لعبة الأمم) عبارته المعروفة : " إذا لم تربح اللعبة فغير اللاعبين !! ".

ولقد تحقق الكثير مما قيل في كتيب " أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار " الذي نشرته مؤسسة الرسالة عام (١٩٨١م).

ويظل السؤال قائماً : ترى هل حدث تغير حقيقي في قواعد اللعبة ، في عصر ما يسمى بالنظام العالمي الموحد ، أو الجديد ؟ أم أن المسألة لا تعدو أن تكون مجرد متغيرات في الأشكال والصيغ الإجرائية ، بينما جوهر الفعل هو نفسه هنا وهناك ؟

معظم مقالات هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارئ الكريم كتبت في التسعينيات .. فهي قريبة عهد مما تشهده الساحة أو يتشكل فيها .. وقليل منها يرجع إلى الثمانينيات وربما السبعينيات مما لم يتح له النشر بين دفتي كتاب ..

والرسول الكريم " عليه أفضل الصلاة والسلام " يعلمنا ويحذرنا أن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .. وأن المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وبـدءاً مـن فلسـطين الضـائعة بـلا أباليـة المسـلمين ولا اكتـراثهم .. وانتهـاءً بحافـات عـالم الإسـلام المطلـة علـى الهـادي والأطلسـي .. تشكو أعضـاء الجسد الواحـد مـن ألـف همّ وهـمّ .. وتسهر وتحمّ.

فلا أقل من أن نتداعى إليها ، معشر المفكرين والكتاب والأدباء ، بأقلامنا ، علها تشفع لنا قبالة الله ورسوله " صلى الله عليه وسلم " يوم الحساب ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإن هذا الكتاب المتواضع الذي يسعدني أن نخرجه " فلسطين المسلمة " للناس ، يكون قد سدد بعض الدين الذي في رقبتي .. وما أثقله وأبهظه !.

وإلى الله وحده نتوجه بالكلمات والأعمال ..

د. عماد الدين خليل

(الموصل في تشرين الأول-١٩٩٩م)

الأمة التي تعمل ضد مصالحها

ليس ثمة أمة تقدر على قتل نفسها ، وتدمير مصالحها ، ومخاصمة أصدقائها ، والدعاية لأعدائها ، من أمتنا العربية عبر القرن الأخير.

وليس ثمة أمة أكثر براعة في هدر طاقاتها ، وإهمال الميزات الاقتصادية والجغرافية والاستراتيجية التي منحها الله إياها ، وتجميد قدراتها ، من أمتنا العربية عبر القرن الأخير.

وليس ثمة أمة أشد هدراً للفرص الذهبية التي وضعت بين أيديها متمثلة على وجه الخصوص في هذا الدين الذي يملك قدراته المدهشة على التحضّر والتمكين في الأرض ، من أمتنا العربية عبر القرن الأخير.

وليس ثمة أمة أسمع للخصوم والأعداء ، وأسرع منهم في تنفيذ مطالبهم وإعانتهم على أهدافهم ، وتيسير السبل أمامهم لتدمير كل الثوابت والمتاريس التي تحول بينهم وبيننا ، كالأمة العربية عبر القرن الأخير.

ومن أجل ألا نقع في خطيئة التعميم لابد من لحظة استدراك فليست الأمة – على إطلاقها – هي التي تمارس هذه الخطيئات الكبرى بحق نفسها ومصالحها ، وحاضرها ومصيرها ، وإنما هي بؤر الفاعلية فيها متمثلة في القيادات والنخب والشرائح التي تصوغها السياسات العامة وتنزل بها إلى ميدان الواقع يوماً بعد يوم.

أما الجماهير فإنها لو أتيح لها أن تتحرك بحرية لما كان هذا الذي كان ، ولعرفة – بإحساسها العميق – ما ينفعها مما يضرها ، ولتجاوزت – بالتالي – المأزق التاريخي الذي وجدت نفسها تتخبط في طرقه الملتوية منذ اللحظات المبكرة للصدمة الاستعمارية ، لكنها منعت من ذلك – لأسباب قد لا تخفى على أحد – وموروث معها أشد صيغ الكبت والعزل والتجهيل ، وشلّ القدرة على الحركة .. فكان هذا الذي كان.

الوقائع والأمثلة على الهدر ، وقتل النفس ، وتدمير المصالح ، وإهمال الميزات ، وتضييع الفرص ، ومخاصمة الأصدقاء ، وخدمة الأعداء .. كثيرة تعجّ بها صفحات تاريخنا المعاصر ..

ولكننا سنقف – لحظات – عند عدد محدود منها في دائرة الخطاب الإعلامي فحسب ، قد يكفي لإعطاء صورة عن حجم المأساة التي عانيناها ولا نزال ، وضرورة التحرك السريع لتعديل الوقفة ، ووضع الخطوات الأولى على الطريق الصحيح وإلا فإن ألف سنة أخرى من الزعيق والصراخ والادعاء والأعمال الاستعراضية. لن تقربنا خطوة واحدة من الأهداف ، ولن تضيق الهوة الفاغرة بيننا وبين الخصم المتفوق الذي يكاد يطوينا بين ذراعيه !

في برنامج إذاعي عن الموسيقار الروسي المعروف جايكوفسكي شن أحد المذيعين العرب هجوماً قاسياً على العثمانيين الذين استعمروا أجزاء واسعة من شرقي أوروبا ، وأشاد بسيمفونيات جايكوفسكي التي كانت بمثابة أناشيد تحرر من ربقة الأتراك !

ولم يخطر على بال المذيع أن يقدم ولو إشارة واحدة عما فعله الروس عبر مئتي سنة بالشعوب الإسلامية داخل الدولة العثمانية وخارجها ، وعن اعتمادهم أبشع صيغ القسر والاستعمار لتحقيق أهدافهم الإمبراطورية والتمكين لها في الأرض .. وعن المؤامرات الشرسة والحروب الصليبية المتواصلة التي لم تترك للعثمانيين لحظة واحدة يلتقطون فيها أنفاسهم وينصرفون لتطوير أنفسهم وقدراتهم العسكرية والحضارية ..

إذاعة عربية أخرى خصصت سلسلة من الحلقات للهجوم على السلطان الطاغية عبد الحميد الثاني باعتباره نموذجاً للدكتاتورية والاستبداد ..

ولم يخطر على بال معد البرنامج – ولو من قبيل النزاهة العلمية – أن يشير إلى الموقف الفريد للسلطان قبالة الحركة الصهيونية وكيف أنه أختار أن يضحي بعرشه ، ويعرض حياته الخاصة وحياة أسرته للدمار الكامل ، على أن يمنح شذاذ الآفاق شبراً واحداً من فلسطين !

إذاعة عربية ثالثة وهي تتابع مجريات سباق كأس العالم في الأرجنتين عام (١٩٧٨م) ، كانت تنتهز الفرصة بين الحين والحين لشن حملتها على الطغمة العسكرية الحاكمة في بوينس آيرس ، رغم أن هذه الطغمة كانت من بين السلطات الحاكمة القليلة جداً في الغرب التي مدت يدها للعرب لكي تمنحهم السلاح وتعطيهم أسراره وتأخذ بيدهم قبالة التفوق الإسرائيلي !.

إذاعة رابعة آلت على نفسها أن تكيل الشتائم لدكتاتور إسبانيا السابق الجنرال فرانكو رغم أنه الوحيد من حكام أوروبا الذي أصر على عدم الاعتراف بإسرائيل !

إذاعات أخرى كانت تلمّع وتمجد حكام أفريقيا النصارى من أمثال جوليوس نايريري في تنزانيا ، والقس كنيث كاوندا في زامبيا ، وسامورا ميتشل في موزامبيق ، والإمبراطور العتيق هيلا سيلاسي في الحبشة ، رغم أن هؤلاء جميعاً بشهادة إعلامهم وخطاباتهم ومواقفهم السياسية وتصريحاتهم الواضحة جداً ، كانوا يرفعون سلاح الصليب والعرقية ضد كل ما هو عربي وإسلامي في إفريقيا بصيغ تجاوزت كل أنماط الحقد والتعصب المعروفين في تاريخ الأمم والشعوب.

وحيثما نشبت حرب أو احتدم صراع أو قامت معركة إعلامية بين دولة إسلامية وأخرى نصرانية أو وثنية أو شيوعية ، هرع الإعلاميون العرب بحماس منقطع النظير للانحياز إلى جانب النصراني والوثني والشيوعي ضد المسلم ، ومن منا لا يذكر هذا الميل المثير للدهشة والتساؤل إلى جانب القس اليوناني مكاريوس في قبرص ضد الأتراك المسلمين ، وتيتو الشيوعي في يوغسلافيا ضد رعاياه المسلمين ، ونهرو الهندوسي في الهند ضد المضطهدين من المسلمين

الذين كانوا يتعرضون كل يوم لمذبحة مروعة يذهب ضحيتها الآلاف تحت غطاء ديمقراطية حزب المؤتمر الهندي ذي البطانة الهندوسية المتعصبة ؟

وفي القرن الإفريقي الذي شهد انفجاراً في الصراعات الإقليمية منذ أواخر الستينيات ، كان الخطاب الإعلامي العربي – كعادته – مع العدو وضد الصديق .. مع تنزانيا وكينيا والحبشة ضد محاولة الشعب الصومالي استرداد حقه المغتصب من الجيران ، والذي كان الاستعماريون القدماء : الإيطاليون ، والإنجليز ، قد مزقوا أرضه لصالح الخصوم ، ولم يكن بمقدور المرء يومها أن يسمع كلمة مواساة واحدة للصوماليين المنهزمين في صراع غير متكافئ ، رغم أن الصوماليين عرب ، ودعنا من كونهم مسلمين فهذه مسألة لا يحاول الإعلام العربي أن يتورط فيها .. ورغم أن كل خصوم الصومال – يومها – كانوا قد اعترفوا بإسرائيل ومدوّا إليها أيديهم ، وأقاموا معها العلاقات وعقدوا الاتفاقات !

والإعلام العربي بحّ صوته عبر العقود الأخيرة دفاعاً عن الإفريقي الجنوبي المضطهد على أيدي الأقلية العنصرية ، لكنه لم يحاول – ولو من قبيل ذرّ الرماد في العيون – أن يتحدث عن الجماعات الإسلامية المضطهدة والمسحوقة في الاتحاد السوفياتي السابق ، أو في الهند ، أو بورما ، أو الصين ، أو الفيليبين ، أو الحبشة ، أو غيرها من بلاد الله الواسعة التي يلاحق فيها المسلمون والذين هم – على أية حال – يحملون في دمهم ، بقوة انتمائهم لهذا الدين ، هموم الأمة العربية ويشاركونها في المسير والمصير ، ويتمنون لحظة الخلاص لكي ينطلقوا فيقفوا معها في خندق واحد ضد الخصوم والأعداء ..

وعندما بدأ الشعب الأفغاني ثورته ضد الاستعمار الشيوعي ، ووقفت باكستان زمن رئيسها ضياء الحق ، – رحمه الله – تتلقى دفق اللاجئين الأفغان الذين يعدّون بالملايين ، وتحمي ظهورهم ، وتقدم العون لطلائعهم المجاهدة ، اعتبرت سياسته هذه من قبل الإعلام العربي ، انحرافاً عن الجادة وزجاً لبلاده في أتون صراع دولي لا ناقة له فيها ولا جمل ، وقال أحد الصحفيين العرب بتاريخ (٢٧ نيسان ١٩٨٦م) : " إن هذه السياسة وضعت باكستان في قلب الصراع الدولي في وسط آسيا .. دون أن يحقق لها ذلك أي كسب (!!) وإنما جلب لها أكثر من مليوني لاجئ أفغاني ، وازدياد نفقاتها العسكرية ، وأصبح ما تخسره الباكستان من جراء تورطها هذا (!!) أكبر بكثير مما حصلت عليه من قروض ومعونة أمريكية ، وهي بذلك خسرت المال والاستقرار الضروري للتنمية.

" ومن هنا فإن المعارضة الباكستانية تجد نفسها أمام تحديد خيارها الخارجي كمسألة ملحة، يمكن لباكستان خلق ظروف خارجية مناسبة لحل مشاكلها الاقتصادية ويبعدها عن أن تكون طرفاً في الصراعات الدولية وحتى الإقليمية ".

الوقائع كثيرة .. كثيرة جداً .. ومجرد تذكرنا إياها يخلف في القلب حزناً عميقاً .. وما هو إلا سياق واحد من عشرات السياقات التي برعت فيها أمتنا في الإبحار ضد أهدافها ووجودها وعقيدتها ومصالحها ..

فما كانت منطقية مع نفسها وعقيدتها ومصالحها العليا بنسبة واحد بالمئة مما فعله اليهود ولا يزالون ..

ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

حكاية اللوبي والسياسة الأمريكية ..
الوجه الآخر

المعطيات التي تتحدث عن هيمنة اليهود على مقدرات السياسة الأمريكية في الداخل والخارج .. كثيرة .. كثيرة جداً .. ومحاولة إثبات هذه الهيمنة هي كمحاولة البرهنة على أن ١ + ١ = ٢.

أصبحت المسألة منذ ستينيات هذا القرن معروفة للقاصي والداني وغدت مكشوفة بأكثر مما يجب بحيث أن ظهورها الزائد أصبح يشكل خطراً من نوع جديد : ألا يشير إليها أحد أو يتذكرها أحد بقوة مبدأ " إن زيادة الظهور تؤدي إلى الخفاء " .. وحينذاك .. لحظة عدم رؤية المسلم المعاصر للدور اليهودي في الساحة الأمريكية ، وتغاضيه عنه ، واعتباره تحصيل حاصل .. سنمارس خطأ آخر بحق أنفسنا وسنسمح لخصومنا أن يواصلوا امتطاءهم للثور الأمريكي وإحكام قبضتهم على قرنيه من أجل توظيف طاقاته الهائلة لسحق القدرة العربية والإسلامية عبر مستوياتها كافة : نفسية وأخلاقية واجتماعية وسياسية وعسكرية وعقدية وحضارية في نهاية الأمر.

من جهة أخرى فإن تخوّف البعض من أن المبالغة في تصوير القدرة الإسرائيلية واليهودية عامة ، في تطويع السياسات الغربية ، والأمريكية بوجه الخصوص ، وتوظيفها لحماية وتعزيز الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، وتضييق الخناق على الحق العربي الإسلامي في مختلف بقاع العالم ، قد يصيب المسلم المعاصر بنوع من الشلل في صراعه ضد العدو اليهودي .. هذا التخوف لا مبرر له ما دام أن هناك وسائل مضادة يمكن أن تفعل فعلها إذا أحسن استثمارها .. كما أن هذا التخوّف ليس مبرراً بحد ذاته لحجب الحقائق أو التغاضي عنها ، لأننا سنكون حينها كالنعامة التي تخفي رأسها في الرمال ، ولسوف نخسر مرتين !.

ويكفي ها هنا – بصدد الموضوع الذي نحن بصدده – أن نشير إلى تصريح " لي هاملتون " رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الأمريكي في صيف عام (١٩٩١م) والذي يقول فيه : " لا توجد جماعة أخرى متنفذة في السياسة الأمريكية مثل اللوبي الإسرائيلي ، إذ أنها تحتل مركزاً لا ينازعها فيه أحد " ، وما ذكرته – في الفترة نفسها – صحيفة " كرستيان ساينز مونيتور " من أن نفوذ اللوبي الإسرائيلي في الأوساط الأمريكية أصبح " لا يجارى " ولقد أشارت الصحيفة الأمريكية في معرض تقرير نشرته عن " العلاقة المتميزة بين الولايات المتحدة و(إسرائيل) ، وتأثير اللوبي الإسرائيلي على مصادر القرار في السياسة الأمريكية " إلى أن هناك " حوادث أثبت فيها اللوبي أنه يستطيع الحصول على موافقة الكونغرس على ما تريده (إسرائيل) من مساعدات بسهولة تدهش حتى المسؤولين في الحكومة الأمريكية " وقالت

الصحيفة " إن أعضاء اللوبي الإسرائيلي المنضوين تحت لواء اللجنة الأمريكية لشؤون إسرائيل العامة والتي تحتفظ بشبكة قوامها ٩٠ لجنة من لجان العمل السياسي في مختلف أرجاء الولايات المتحدة ، قد أتقنوا تماماً النظام الأمريكي وأصبحوا على دراية بآليته التي سخروها لرفاهية إسرائيل " ، واستعرضت الصحيفة وسائل اللوبي الإسرائيلي في الحصول على أكبر كمية من المساعدات الأمريكية وقالت إنها " تشمل المال والإقناع والمكافأة والعقاب ، أو ما يسمى الترغيب والترهيب ، والإصرار على أن المصالح الأمريكية والمصالح الإسرائيلية متطابقة " ، كما استعرضت أيضاً " مساهمات اللوبي الإسرائيلي في الحملات الانتخابية لمريديه من المرشحين لعضوية مجلس الشيوخ والنواب " وأشارت إلى " نجاح اللوبي في إسقاط بعض أعضاء الكونغرس المعارضين لبعض سياسات إسرائيل " ، وأرجعت الصحيفة الأمريكية – حسب رأي خبراء ومراقبين – نجاح اللوبي الإسرائيلي إلى " صغر الدائرة المؤيدة للعرب بين الأمريكيين ، وعدم قدرتها على مجاراة اللوبي الصهيوني لا بالمال ولا بالأصدقاء ".

ومرة أخرى فإننا في هذه الورقة لسنا بصدد تأكيد الهيمنة اليهودية على المقدرات الأمريكية، كما أننا لسنا بصدد الجدل القائم بين القائلين بضرورة كشف الظاهرة بأبعادها ومعطياتها كافة ، وبين المتخوّفين من أن ذلك سيكون سلاحاً معنوياً نشهره ضد أنفسنا ، وإنما – باختصار شديد – بخصوص ما يتحتم على العرب والمسلمين ، قيادات وجماعات وقواعد ، عمله لمجابهة المحنة ، أو الحدّ من فاعليتها في أقل تقدير.

وليس هذا بالأمر المستحيل إذا صح العزم وخلصت النيات واستنفرت القدرات العقلية ، وتحققت الجماعات الإسلامية داخل أمريكا وخارجها ، ولو بالحدّ الأدنى من العمل وفق روح الفريق.

إن هناك في جدار السياسة الأمريكية منافذ وثغرات ، إذا أحسن التعامل معها في الداخل والخارج فإنها ستمنح فرصاً أفضل للاجتياز والوصول إلى مفاصل اتخاذ القرار في السياسة الأمريكية ، والتأثير عليه ، وربما كسبه ، أو في الأقل تحييده أو التقليل من اندفاعه باتجاه توظيف القدرة الأمريكية لصالح (إسرائيل) والصهيونية واليهودية العالمية في نهاية الأمر ، وتضييق الخناق في المقابل على المصالح العربية الإسلامية ، بل تدميرها وشلّها عن العمل.

إن ديمغرافيا المسلمين داخل أمريكا أكثر اتساعاً بكثير من اليهودية ولكن هذه الميزة تعاني من الشلل والاستلاب لأنها لا تعدو أن تكون حالة كمية ، فلو تهيأ للجماعات الإسلامية العقل الذي يعرف كيف ينظمها باتجاه التوحد قبالة السياسة الأمريكية ، ويمنحها القدرة الفاعلة على التأثير في مصائر المؤسسات السياسية والأنشطة الاقتصادية والفعاليات الاجتماعية الأمريكية ، بدءاً من مجلس النواب والشيوخ صعوداً باتجاه البنتاغون والبيت الأبيض ، ونزولاً باتجاه دوائر المال والاقتصاد والنشاط الاجتماعي .. فإن الحال سيكون غير الحال. وستتحقق بمحاولة كهذه

نتيجتان في غاية الأهمية ، أولاهما تتمثل في الحد من الفاعلية اليهودية في السياسة الأمريكية ، وثانيتهما في محاولة توظيف هذه السياسة لمقاربة المصالح العليا للأمة الإسلامية ، أو تحييدها في الأقل.

قد يقتضي هذا زمناً طويلاً ، ولكن رحلة الألف ميل – كما يقول المثل – تبدأ بخطوة واحدة .. وثمة إرهاصات على أن الخطوات الأولى قد قطعت وأنها لقيت – إلى حد ما – استجابة طيبة وحققت بعض ما كانت ترجوه من نتائج ، إلا أن هذا وحده لا يكفي ، وان علينا أن نتعلم خصيصة عدم الرضا بالقليل في الأنشطة العامة ، وأن نمضي دائماً باتجاه الآمال الأكثر اتساعاً بأكبر قدر من الإلحاح في الطلب ، وحشد الطاقة ، والتشبث الذي لا يداهن ولا يهادن بالحق.

ويجب أن نتذكر أن تزايد الهيمنة اليهودية على مقدرات أمريكا له ثمنه بكل تأكيد ، وأن هناك في نسيج المجتمع الأمريكي ، في نخبه وقواعده على السواء ، من لا يرتاح لوضع مقدرات " المسيحية " من جهة ، والمصالح القومية العليا للولايات المتحدة من جهة أخرى ، بأيدي حفنة من اليهود الذي يعرفون كيف يدرون ضرع أمريكا ليس لصالح المسيحية ولا الوطن الأم ، وإنما لمصلحة اليهود وإسرائيل ، وأن هؤلاء الأمريكان المتدينين أو القوميين ، قد تشكلت في عقولهم ووجدانهم تأثيرات عميقة من ردود الأفعال وهي تنتظر اللحظة المناسبة للانفجار ، أو التعبير عن الغضب في أقل تقدير .. وبين الحين والحين ، ومن خلال موقف ما يعلنه هذا السياسي الأمريكي أو ذاك ، وهذا المفكر أو الفنان أو ذاك ، وهذا القسّ أو المواطن المسيحي العادي أو ذاك ، تكشف ردود الأفعال عن وجهها ، وتهرع مراكز التأثير اليهودي في أمريكا لتحجيم الظاهرة، والتدخين عليها ، وتزييفها ، وتصفية أصحابها إذا اقتضى الأمر .. واعتماد أكثر الأساليب دناءة ولا أخلاقية لإجهاضها.

إلا أن هذه القدرة على شكم الظاهرة حالة لن تستمر طويلاً .. تلك هي سنة الحياة ، ولابد لردود الأفعال وهي تتعامل مع أفعال خاطئة مؤكدة تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم ، أن تتجذر هي الأخرى وتزداد اتساعاً ولن يكون بمقدور اليهودي الأمريكي يومها أن يوقف الطوفان.

إن على الجماعات الإسلامية داخل أمريكا أن تكون أكثر وعياً بقوانين الحركة التاريخية وبما يجري في الساحة الأمريكية ، وأن تتعلم كيف توظف ثقلها في أقصى قدراته المتاحة لاختراق جدار السياسة الأمريكية وإقناع عناصر اتخاذ القرار ، ولو من قبيل حوار المصالح الصرفة بعيداً عن الخلفيات العقدية أو المذهبية أو حتى السياسية ، بضرورة الإنصات للصوت الإسلامي وتبين عناصر الحق فيه ، ومحاولة تلبية مطالبه أو بعضها .. وعدم التعامل بعين واحدة قد تحجب عن الولايات المتحدة الحدود الشاملة لمصالحها القومية العليا.

ومن وراء الجماعات الإسلامية داخل أمريكا ، عالم الإسلام على امتداده ، من المحيط إلى المحيط. حيث يضطرب أكثر من خمس سكان العالم كله .. وحيث النفط والثروات المعدنية ، والطبيعية ، والموقع ، والمستهلك ، والسوق .. فضلاً عن القدرة البشرية والعسكرية والسياسية التي إذا أحسن توظيفها ، ولو في نطاق الحد الأدنى من توحيد العمل ، والالتقاء على الهدف المشترك ، فإن بمقدورها إرغام الولايات المتحدة على الإنصات للصوت الإسلامي ، والمصلحة الإسلامية التي سيكون من أولوياتها تحجيم دور العلق اليهودي في الساحة الأمريكية ، والذي عرف كيف يستنزف الدم الأمريكي ولا يزال ، لكي يتغذى ويزداد قدرة على الامتصاص والابتزاز.

إن الحديث عن اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة لن يكون – بالضرورة – تضخيماً أسطورياً لقدرات العدو ، وإنما فرصة لاستعادة الملف الضائع وتقليب أوراقه بحثاً عن سبل العلاج.

هكذا حرّرنا القدس .. وهكذا ضيّعناها

قد تكون " الشهوة " واحدة من أكبر عوامل الهزيمة في التاريخ وأشدها فاعلية ، وهي تفسر العديد من الوقائع التي قد تعجز عن تفسيرها العوامل المادية المنظورة.

وبالمقابل ، فإن إعلان الحرب على " الشهوة " وتحجيمها ، تمنح ضمانة شبه مؤكدة في الحرب ضد الخصوم والأعداء. وما أكثر الصفحات التي ينطوي عليها سفر التاريخ البشري في السياقين .. فليس النصر أو الهزيمة ظواهر سحرية تتشكل في الفراغ ، وتتحقق يوم تتحقق لأن هذا القائد أو ذاك وهذه الأمة أو تلك دخلت الحرب مع الأعداء. إنما هي النتائج التي تترتب على الأسباب ، ومن بين هذه الأسباب شهوة الفم والفرج والمال ، من خلال القدرة على شكمها أو الانجراف في تيارها السفلي الذي لا يقف عند حد.

ولن يتسع المجال لاستدعاء عشرات الشواهد ومئاتها وألوفها من سجلّ التاريخ ، إنما سنكتفي بشاهد واحد يتعلق بمدينة عزيزة على كل قلب ينبض بمحبة العروبة وعشق الإسلام.

القدس .. زهرة المدائن ومهد السيد المسيح ومسرى النبي المعلم (عليهما أفضل الصلاة والسلام) : كيف حررناها من قبضة الصليبيين في أعقاب معركة حطين الفاصلة عام (٥٨٣هـ) وكيف ضيعناها في حرب الأيام الستة عام (١٩٦٧م).

العوامل كثيرة ، والأسباب موغلة متشعبة .. لكن واحداً منها هو الذي يعنينا هنا .. واحداً قد يعد من أكثر العوامل فاعلية وحسماً في حالتي النصر والهزيمة على السواء .. إنه المفتاح الذي قد يفسر .. ويضيء .. ويمنح الجواب. ولندع الوقائع ومفردات السلوك هي التي تتحدث ، فليس ثمة ما يمكن أن يضاف عليها لأنها أبلغ من كل حديث.

لنبدأ بالهزيمة ، وكيف تقود الشهوة إليها فتنزلق بالقادة والمصائر والمقدرات صوب الحفر المعتمة ، وتملأ حلوق الأمم والشعوب بالمرارات.

يقول الصحفي الفلسطيني المعروف ناصر الدين النشاشيبي في كتابه : " الحبر أسود .. أسود " (صفحة ٣٦٧-٣٦٩) : " لقد شاء لي القدر أن أشهد سهرة راقصة أقامها سفير أندونيسيا في مصر تكريماً للرئيس الراحل سوكارنو ، وشهدها القائد الراحل عبد الحكيم عامر ، وكان ذلك في شتاء عام (١٩٦٣م) ، وقد جاء سوكارنو إلى مصر بدعوة رسمية وأقيمت الحفلة في منزل أحد ممثلي السينما المصرية في شارع الهرم ، ودعي إليها رجال السفارة الأندونيسية وأفراد حاشية عبد الحكيم عامر وأكثر من مئة فتاة وآنسة وسيدة ، وراقصة ومانيكان ".

" لماذا دعوني ؟ كانوا قد طلبوا مني كتابة قصة سينمائية يكون إخراجها مشتركاً بين مصر وأندونيسيا ، وكتبت القصة وبعتها لإدارة الإنتاج السينمائي التي كان يشرف عليها السيد فتحي إبراهيم ، ومضت الأيام وجاء سوكارنو إلى مصر ولحق به أكبر منتج للأفلام السينمائية في

أندونيسيا ، ولعل هذا المنتج الذكي قد أراد أن يكرم سوكارنو بالأسلوب الذي يرضي زعيم أندونيسيا ، فأقام له هذه الحفلة الساهرة التي اقتصر حضورها على رجال السفارة ، وأصدقاء المشير ومئة راقصة ومانيكان ومضيفة "!.

" وعند منتصف الليل حضر المشير عامر متأبطاً ذراع سوكارنو ، وبدأ الشرب والرقص الشرقي ، ولسوكارنو ولع خاص بمشاهدة راقصة كنجوى فؤاد ، لقد رآها تقترب منه وتهز بأردافها وتحرك صدرها ، وتلاعب نظراتها وتلمس بشعرها وأناملها أجزاء من وجهه ورأسه ، فصاح بلغته الخاصة : الله أكبر ! ومال بجسمه نحوها يحتضنها ويغرس يديه في أنحاء جسدها ! كل هذا والمشير غارق في الضحك وفي الشراب ".

" وغابت نجوى فجاء دور سهير ، ثم دور فلانة ، وبعدها فلانة ، وهات يا رقص وهات يا ويسكي وهات يا .. أمور أخرى .. إذ لم تكد تظهر خيوط الفجر حتى انطلقت " خيوط الدخان " الأبيض بكل ما تحمل الكلمة من معنى ".

" ودار الساقي على الحضور يمدهم بما يشربون ، وبما " يدخنون " فشربوا كلهم ودخنوا كلهم .. ورآني المشير أقف بعيداً في طرف الصالون فأرسل لي علي شفيق ، وعندما اقترب مني سألني : " لماذا لا تشرب "؟.

" وقبل أن أجيب ، عاد يسألني : أو لعلك تفضل .. هذا ؟

" ولست بحاجة لكي أفسر أو أشرح ، فقد اعتذرت عن الشراب ومرفقاته وعدت إلى منزلي مع الصباح لكي أقول لنفسي بأسى وحزن : بلدي لن يحرره هؤلاء ، إنه أكبر منهم ، مصيبته فيهم كمصيبته في الذين سرقوه ، وهم أعجز عن القيام بتحريره ، ولا يريدهم لكي يتحرر ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، ومن لا يملك العزم والشرف والخلق لا يقدر أن يرتفع إلى مستوى القدس والأقصى والقيامة ، وكفرت مع كل الألم به. فقد كنت أحسب أنني أعيش في كنف قائد قادر على أن يحقق لي أملاً .. كان هو النائب ، والقائد ، ورمز القوة كلها ، وها أنا أراه على حقيقته بلا رتوش "!!.

هذا هو إذن القائد العام للقوات المسلحة المصرية الذي وضعت تحت يديه واحدة من أكثر القوى العسكرية في ديار العروبة والإسلام ، حيوية وفدائية ، وقدرة، وبطشاً. ففرط بالأمانة وأقام بينها وبينه سداً مترعاً بالشهوات ، واللا أبالية والآثام ، وقاد أمة بكاملها إلى الهزيمة ، وفتح الطريق أمام أحذية شذاذ الآفاق لكي تدنس القدس الشريف .. ولا تزال ..

قبالة هذه المفارقة المؤلمة .. هذه الصفحة المترعة بالمرارات والأحزان وضياع الأمانة والرجولة .. كانت هنالك عبر تاريخنا الطويل – لحسن الحظ – صفحات أخرى .. صفحات بيضاء تشع بالطهر .. والشرف .. والوضاءة والالتزام .. بالقدرة المدهشة على ملاحقة نداءات الشهوة وإغراءاتها خارج النفس البشرية وفي أعمق نقطة منها ، فتكفها عن العمل وتفتح الطريق

أمام التحرّر الذاتي من سلطان الإغراء .. التحرر الذي هو البداية الحقيقية وحجر الزاوية لكل تحرير.

يكفي ها هنا أن نستدعي قائدين فحسب ، ممن كان لهما الدور الرئيسي في تحرير القدس وإعادتها إلى أصحابها بعد أن ضاعت بأيدي الخصم الصليبي بما يقارب القرن من الزمان .. نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ) والناصر صلاح الدين (٥٦٩-٥٨٩هـ) ونؤشر على بعض مفردات سلوكهما كشواهد فحسب ، من بين المئات والألوف ، على التضحية والإيثار والحرص على مصير الأرض والإنسان ، والعزوف عن إغراءات الأخذ والتكاثر واستغلال السلطة لإشباع الشهوات !.

يروي سبط بن الجوزي في " مرآة الزمان " كيف كان نور الدين محمود يتقدم أصحابه في الحرب ويتعرض للشهادة ويسال الله أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير !! ويروي أن أخاه " نصرة الدين " أصيب خلال حصار بانياس عام (٥٦٠هـ) بسهم أذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى !.

وتردد أحد أمراء الأطراف يوماً في الاستجابة لطلب نور الدين بإرسال نجدة للمساعدة على فتح حارم ، ولما سأله أصحابه عن سبب تردده ذاك أجاب : إن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك !.

وسمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابوري ، الفقيه الشافعي وهو يقول – فيما رواه ابن الأثير – : طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها ! فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك ، وبالإسلام والمسلمين ، فإنك عمادهم ، وإن أصبت – والعياذ بالله – في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا وأخذه السيف ، وأخذت البلاد ، فأجابه : يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك هو الله الذي لا إله إلا هو !!. ويتساءل ابن الأثير ، وهو في معرض الحديث عن نزاهة نور الدين وزهده وتعففه الصارم إزاء المال العام وإغراءات السلطة وشهواتها :

" كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة " ؟ ويجيب : " إنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها !! ". ويقول كاتبه العماد الأصفهاني : كان رسم نفقته الخاص في كل سنة مبلغ ألفي قرطاس يصرفه في كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه ، وحوائجه المهمة حتى أجرة خياطه وطباخه من ذلك المقرر النزر ، ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر على المساكين وأهل الفقر ، وأما ما يهدى إليه من الملوك فكان لا يتصرف بشيء منه بل يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصل أثمانه الموفورة ويصرفه على عمارة المساجد.

وقال رضيع زوجته " الخاتون " : إنها قلّت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قرره لها ، فأرسلتني أطلب منه زيادة في نفقتها ، فتنكر وأحمر وجهه ثم قال : من أين أعطيها ؟ أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ! ، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن ! إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها !.

ويروي ابن كثير كيف كان نور الدين عفيف البطن والفرج ، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل : إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه ، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا !.

أما مقر سكنى حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن فكانت داراً متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال ، الحق بها صفة يخلو فيها للعبادة ، فلما ضربت الزلازل دمشق بنى بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب.

وهو يجابه بتجرده وتقواه هوى النفس في طبقاته كافة وما أثقلها وأبهظها.

تلقى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها (قائمة) بألقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد : " المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد المرابط المثاغر ، نور الدين وعدله ، ركن الإسلام وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعزها ، رضي الأمة وأثيرها ، فخر الملة ومجدها ، شمس المعالي وملكها ، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، ناصر دولة أمير المؤمنين ".

لكن نور الدين أسقط جميع الألقاب وطرح دعاءً واحداً يقول : " اللهم أصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي " وقال : هذا لا يدخله كذب ولا تزيد ، مقصودي أن لا يكذب على المنبر ، أنا بخلاف كل ما يقال ، أفرح بما لا أعمل ؟!.

وفي معركة حارم الضارية ضد الصليبيين الذين كانوا يفوقون المسلمين عدة وعدداً ، راح نور الدين – وهو القائد والسلطان – يمرغ وجهه ويتضرع إلى الله قائلاً : " اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً .. من هو محمود الكلب ! حتى ينصر ؟ "!.

حتى المدن والأماكن التي كان يعشقها ويرتاح إليها ، ما كان يطيل المكوث فيها خشية أن تفتنه عن مواصلة الجهاد.

يحدثنا العماد الأصفهاني فيقول حضرت عند نور الدين بدمشق – في شهر صفر – والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها ويطريها .. فقال نور الدين : إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها !

ومـرة أخـرى نلتقـي بـه وهـو يغـادر الموصـل بعـد عشـرين يومـاً مـن دخولـه إليهـا عام (٥٦٦هـ) فيسأل أصحابه : إنك تحب الموصل والمقام بها ، ونراك أسرعت العود ؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد !.

والوقائع عن تجرد خلفه الناصر صلاح الدين ، وفدائيته ، واستعلائه على إغراءات السلطة ونداءات المجد الشخصي وبريقه ، كثيرة مزدحمة هي الأخرى .. ويكفي أن نشير إلى بعضها ..

في العام الذي أعقب معركة حطين وتحرير القدس (٥٨٣هـ) سمح صلاح الدين لقواته بالعودة إلى ديارها للراحة والاستجمام وآثر هو أن يبقى في الميدان ، قريباً من العدو ، وفي شرذمة قليلة من الجند ، وسط البرد والمطر والمخاطر التي تحدق به من كل مكان ، وتوسل إليه مرافقوه – ومنهم القاضي ابن شداد – ألا يفعل ذلك واعتبروا عمله " مخاطرة عظيمة " ولكنه أصر على رأيه ومضى في طريقه إلى عكا بحذاء الساحل ، وكان الفصل شتاءً والبرد قاسياً والبحر هائجاً ، فنظر إلى أمواج البحر الهادرة ثم التفت إلى القاضي ابن شداد وقال : " أما أحكي لك شيئاً في نفسي ! إنه متى يسّر الله فتح بقية الساحل أوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعت (الصليبيين) فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت ".

ويعلّق ابن شداد قائلاً : " لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة "!.

وأما تعامله مع إغراءات المال فيكفي أن نتذكر تأهبه للحج في العام الذي سبق وفاته ، إذ تمت الترتيبات الخاصة برحلته إلى الحجاز بحيث لم يبق إلا المسير ، لكن ما أعاقه عن تنفيذ رغبته نقص المال ! ، إذ لم يجد في حوزته ما يمكنه من أداء الفريضة ، وبذلك تقرر تأجيل الحج إلى العام التالي بسبب " خلو اليد عما يليق بأمثاله ، فقضى الله ما قضى " كما قال ابن شداد. وتوفي – رحمه الله – قبل تحقيق بغيته !. ويكفي أن نتذكر – كذلك – أنه عند وفاته لم يخلف " ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك " ، مما تجب عليه الزكاة .. لم يترك في خزانته " الخاصة " سوى سبعة وأربعين درهماً وغراماً واحداً من الذهب !.

وكان كسلفه يصبر على هوى النفس ورغباتها المشروعة ويعرف كيف يفطمها لكي يمحض وجوده كلية لقضية الأمة ..

لقد ظل في الميدان السنوات الطوال ، بعيداً عن أهله وأولاده الصغار " وهو صابر على مفارقتهم ، وراضٍ ببعدهم عنه ، وكان صابراً على مرّ العيش وخشونته ، ومع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى " ، وقد حدث مراراً أن قاد جيوشه وهو مريض وأخذ ينظم قواته ويقاتل وهو يعاني الآلام ، وابن شداد يتعجب من ذلك ، فيرد عليه صلاح الدين :

" إذا ركبت يزول عني المها "!.

حتى غصّة فقد ولد عزيز ، والدموع التي تتدافع لكي تفر من العين ، كان صلاح الدين يعرف كيف يشكمها إذا أحس أنه في وضع لا يسمح بتغليب العواطف الخاصة على قضية الأمة وهمها الكبير !.

روى ابن شداد أنه كان للسلطان ابن اسمه إسماعيل فجاءه خبر وفاته وهو مجتمع بأصحابه وقادته في أمر هام ، فلم يعرف أحداً منهم ، ولم يظهر عليه شيء من الألم سوى دمعة فرت من عينه !.

ويعقب القاضي والمرافق والمؤرخ ابن شداد على ذلك قائلاً : " فأنظر إلى هذا الصبر والاحتساب ، وإلى أي غاية بلغ هذا الرجل ، اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ، ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين ".

وبعد ..

هل ثمة ما يمكن أن يقال بعد هذا وذاك ؟ هل ثمة من تعقيب أو إضافة إلى موقف (المشير) من سلطان الشهوة وموقف المجاهدين المحررين نور الدين محمود والناصر صلاح الدين ؟

ومع ذلك ، فهناك إضافة تفرض نفسها ها هنا بخصوص " الصحوة " التي تعد بالكثير ، لا لكونها – فقط – تملك حضوراً كبيراً ومؤكداً .. حضوراً مدهشاً إلى حد الإعجاز .. ولكن – أيضاً – لمنحها الأمل بالمصير .. بالقدرة على تعديل الوقفة الجانحة ، واستعادة المسير على الصراط وانتظار الوعد الحق من خلال الأخذ بالأسباب ..

هذه الأسباب التي يعد طهر الجيل الإسلامي الناشئ ، ونظافته السلوكية ، وتأبيه على الإغراء ، وكسره سلطان الشهوة .. واحداً من أكثرها فاعلية ومضاءً ..

سقوط أدونيس

في الواقع ، كان أدونيس قد أعلن عن سقوطه منذ اللحظات الأولى .. إن قفزته الخاطئة على معطيات التاريخ والجغرافيا ، وارتداده إلى مرحلة ما قبل الإسلام .. عصور التجزؤ والوثنية والعرقيات الضيقة ، كان قد وضعه في حافة السقوط.

بدءاً من اختيار اسمه المعلن : " أدونيس " مروراً بالمنهج التخريبي في " الثابت والمتحول " وبمعطياته الشعرية التي استهدفت جماليات الشعر العربي ومدماكه الأصيل .. استهدفت أيضاً جلال اللغة العربية وقواعدها الأساسية ، وانتهاءً بقبوله التطبيع مع العدو الصهيوني ، وتحضيره – ربما – لطقوسيات الحصول على جائزة نوبل " الصهيونية " ، بغض النظر عن الوقوف ولو للحظات ، لاكتشاف من هو المعتدي ومن هم المعتدى عليهم .. وإلى أي الصفين يتحتم أن يكون الانتماء ، إذا أراد صاحبه أن يكون " أخلاقياً " مع نفسه ، وجغرافيته وتاريخه ..

ابتداءً بالانحياز إلى " الوثنية " وانتهاءً بالسباحة في مستنقع التطبيع ، كان أدونيس قد اختار " السقوط ".

عبر هذه المرحلة الطويلة المترعة بالكدر ، والمحملة بالنرسيسية التي تضخمت فيها الأنا سرطانياً قبالة كل ما اتفقت عليه الأمة ، وعشقته ، ومنحته القداسة. كان أدونيس قد حكم على نفسه بالنفي ، وكان الإسلاميون يعرفون هذا جيداً منذ اللحظات الأولى في خمسينيات هذا القرن .. إنهم بالصدق الذي عرف عنهم ، والأصالة التي ميزتهم دائماً .. بحاستهم السادسة التي تكتشف منابع الأذى والوباء عند بدء هبوبه .. قبل أن يصفع وجه الأمة وضميرها بسمومه وأكداره .. أومأوا إلى هذا .. قالوا بأن أدونيس ليس مجرد شاعر يريد أن يشذ عن الإجماع ويكسر القاموس .. ولكنه ظاهرة .. هو حلقة من حلقاتها لكنه ليس كل شيء .. فلقد حملت الظاهرة وهي تتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، مئات آخرين من أدونيس .. كلهم كانوا يكتبون بالكلمة المكسرة ، كلهم كانوا يدعون إلى استيراد الحروف من الآخر .. استعاروا أصابع الغربي ورؤيته للأشياء .. رفعوا المعول لكي ينزلوا به على قيم الأمة والجماعة تهشيماً وتدميراً.

السقوط كان المصير المحتوم لأدونيس .. وأرقام المعادلة الخاطئة ، منذ لحظات تشكلها الأولى ، كانت تقود بالضرورة إلى التغرب عن هموم الأمة ونبضها الأصيل .. والاندونيسية صارت ابنة غير شرعية في أرضنا الحلال .. وكان لابد أن تأوي إلى الرحم الذي طالما تاقت إليه .. وسيكون غريباً مناقضاً لطبائع الأشياء ألا يرحب أدونيس بالتطبيع لكي يعينه على رحلة الانزلاق خارج حدود الوطن ، صوب الرحم الذي تخلق فيه !.

منذ سنوات ، حضر أدونيس مؤتمراً في غرناطة مع كتاب إسرائيليين كانت قد دعت إليه منظمة دولية .. ولقد جاء هذا في سياق لعبة التطبيع الماكرة. وأدونيس يعرف قواعد اللعبة جيداً،

ويعرف أيضاً أن اشتراكه فيها سيمنح نرسيسيته فرصة أخرى للتحقق حتى ولو كان مغزاها خيانة الأمة والوطن .. فمن يدري ، لعل جائزة نوبل تطاله في يوم ما .. ما دام قد قدم فروض الطاعة والولاء للعشيرة التي تهيمن على مقدرات الجائزة ، ونفذ بالحرف بروتوكولاتها وشروطها ومطالبها ..

ها هوذا أدونيس يحذو حذو " إميل حبيبي " الذي سبق أن تسلم " جائزة " الكيان الصهيوني .. وليس من المستبعد أن يتبعهما آخرون .. كل أولئك الذين رفعوا سيف الكلمة وخنجرها المسموم ضد كل ما هو عربي وإسلامي أصيل في عقيدة هذه الأمة وتراثها ورؤيتها المتميزة للكون والعالم والوجود .. فأصبحوا بهذا قاب قوسين أو أدنى من ساحة العدو ، ومارسوا معه الغزل المكشوف .. فلم يتبق ثمة إلا إشارة من هنا ، وغمزة من هناك لكي يرتموا في أحضانه ويقطفوا ثمرته المحرمة !

اتحاد الكتاب العرب في اجتماعه بدمشق في (١٩٩٥/١/٢٧م) وجد نفسه مضطراً لرفع المبضع وإجراء العملية الجراحية لاستئصال الورم السرطاني من جسده قبل أن تسري عدواه إلى كل أولئك الذين تحمل دماؤهم الاستعداد لتقبل الورم الخبيث ..

وبعد مناقشة استمرت ما يقرب من الساعتين ، صدر القرار بإزالة صفة العضوية عن الشاعر علي أحمد سعيد " أدونيس " بأغلبية الأصوات (٩٠ صوتاً مقابل ١٥ صوتاً و٢٠ امتناع عن التصويت) ، وقال الدكتور علي عقلة عرسان " رئيس اتحاد الكتاب العرب " لمجلة " " فلسطين المسلمة " عدد (٤) (نيسان ١٩٩٥م) إن الشاعر المذكور خالف الأهداف المعلنة للاتحاد في المرسوم التشريعي القاضي بإحداثه ، وميثاق المثقفين العرب الذي أقر في نهاية عام (١٩٩٢م) والذي ينص على أن الصراع العربي – الصهيوني صراع وجود مع وجود ، ولم يكن يوماً ولن يكون أبداً نزاعاً على حدود بين العرب والكيان الصهيوني الدخيل المفروض عليهم ، ويتحدد موقف المثقفين من السياسات والتيارات الفكرية والثقافية والاجتماعية في ضوء موقفها من ذلك الصراع ونظرتها إليه ، وينسحب هذا الرأي والموقف على كل أشكال التطبيع مع العدو الصهيوني ، وكيانه في فلسطين المحتلة ، وعلى دعاة التطبيع ورموزه وممارسيه والمروجين له ".

جاءت مخالفة أدونيس بدعوته للتطبيع مع العدو على أرضية الاعتراف به ، وتجلى ذلك في كلمته التي ألقاها في غرناطة ومشاركته في ذلك الملتقى الذي كرس للاحتلال بتنفيذ اتفاقية " أوسلو " وأفتتحه كل من شيمون بيريز وياسر عرفات ، وحضره مثقفون عرب وصهاينة وأوربيون، وهدف إلى تطبيع العلاقات مع العدو الصهيوني ، ولا سيما الثقافية منها ، وتوظيف الثقافي في خدمة السياسي ، بل وفي خدمة سياسة معينة تملي على العرب استسلاماً في صيغة مشروع سلام تضع شروطه ومواصفاته القوة المحتلة في فلسطين ، وتساعد في فرضه وترويجه الولايات المتحدة الأمريكية وليس للعرب فيه إلا القبول.

أدونيس في أحد تصريحاته قال : " إنه يقبل سلاماً ناقصاً أو يفضله على تحرير يأتي به الأصوليون ".

ولقد كان الشاعر منطقياً مع نفسه وتاريخه وقناعاته .. إنه منذ لحظات تشكله الأولى .. منذ كتاباته المبكرة .. كشف عن وجه مسموم مترع بالحقد والكراهية لكل ما هو إسلامي أصيل في هذا العالم.

لقد ولد الرجل منفياً من جغرافية الإسلام ، وإنه لأمر طبيعي تماماً أن يفضل سلاماً ناقصاً مع الأعداء التاريخيين لهذا الدين على تحرير يجيء به الإسلاميون أنفسهم ..

الدكتور علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب علق على هذا التصريح بما يضع النقاط على الحروف ، فقال : " لا أرى هذا الكلام يختلف في مضمونه ومرماه عما يقول به حلف شمال الأطلسي وأمينه العام اليوم ، وما يركض به في مشارق الأرض ومغاربها شيمون بيريز وإسحاق رابين ، إذ يقولون بالخطر الأصولي الإسلامي على الغرب ، وبأن تهديد الإسلام السياسي حلّ اليوم محل التهديد الشيوعي الذي أنهار.

" أليس هذا من أبرز أشكال التلفيق والتشويه والقمع والإرهاب في الوقت ذاته ؟ ولماذا يكون العرب إرهابيين والمسلمون إرهابيين عندما يطالبون بتحرير أرضهم وعندما يقاتلون تحت المشروعية الدولية بالمقاومة ضد الاحتلال وعندما يرفضون الاعتراف بشرعية الاحتلال الصهيوني ويستمرون في المقاومة لرفض اغتصاب الأرض والإبادة المنظمة للجنس والتي تتم ضدهم ببطء وصمت واحترام إعلامي من الكبار ؟".

هاجم المدير العام لليونسكو قرار الاتحاد بفصل أدونيس ، فضلاً عن عدد من المراكز الثقافية الأمريكية ، إضافة لعدد من الصحفيين والكتاب ، وكل ذلك بحجة حرية الرأي والدفاع عن الاختلاف .. هل من يقول لهؤلاء إن الموافقة على ضياع فلسطين إلى الأبد ، واغتيال الشعب الفلسطيني ، حتى لو انزاحت عن مواقعها السياسية المكشوفة خلف أقنعة التطبيع الثقافي، ليست سوى خيانة فاضحة وجريمة معلنة يستحق صاحبها القصاص .. وأن المسألة في أساسها تخرج كلية عن دائرة حرية الرأي والدفاع عن الاختلاف ، إلى محاولة للقتل مع سبق الإصرار ؟!.

الهروب من النار والاكتواء بها

عندما ازدادت ضغوط الوثنية العربية في مكة ضد الحركة الإسلامية الناشئة ، وتفاقمت عمليات التعذيب والفتنة والمطاردة .. عندما أصبح واضحاً أن القيادة الوثنية قد حزمت أمرها لوقف الدين الجديد وسحقه وتصفية أتباعه إذا اقتضى الأمر .. وقرر الرسول " صلى الله عليه وسلم " يومها أن يهاجر أصحابه المضطهدون إلى مكان بعيد ريثما تخف وطأة الملاحقة القاسية، فيما يعرف بالهجرة إلى الحبشة ، بقي هو وسط النار والعذاب في قلة من أصحابه ، يتحدى النار والعذاب ، ويضرب فأسه المؤيد بوعد الله ، في جدار الوثنية الكالح الأصم ..

لم يخف " عليه السلام " فتنة أو عذاباً .. لم يخش حضوره في قلب العاصمة الوثنية التي آلت على نفسها أن توقف الدعوة بأي ثمن حتى ولو اقتضاها ذلك قتل الرسول الهاشمي نفسه ..

وفيما بعد ، عندما فتح الله عليه " صلى الله عليه وسلم " وأتباعه " رضوان الله عليهم " ومنحهم موطئ قدم في يثرب ، بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية .. وأخذ الرسول " صلى الله عليه وسلم " يخطط للهجرة وإقامة دولة الإسلام عليها لمواصلة الطريق الطويل .. وراح المسلمون يهاجرون من مكة أفواجاً إلى المكان الجديد .. آثر الرسول " صلى الله عليه وسلم " أن يظل في مكة حتى النهاية ، وألا يغادرها إلا بعد أن يطمئن على رحيل آخر رجل من أتباعه إلى هناك .. قرر أن يظل في مكة ، رغم أن الوثنيين ، بعد أن انكشفت أمامهم حركة الهجرة هذه ، أجمعوا أمرهم على ضرورة الإسراع باتخاذ خطة نهائية لتدمير احتمالات الهجرة ، وانتهت المناقشات التي شهدتها دار الندوة إلى الاتفاق الجماعي على قتل الرسول " صلى الله عليه وسلم ".

والرسول " صلى الله عليه وسلم " باقٍ في مكة لا يريد أن يهاجر إلى يثرب خلاصاً بنفسه ودعوته إلا بعد أن يطمئن على هجرة آخر رجل من أتباعه ، لقد أصر على أن يحميهم بعقله وظهره ، وأن يضمن نجاح وصولهم إلى الهدف ، لكي يهاجر – من ثم – هو الآخر فيما بعد إذ لم يستبق معه هناك وسط الخطر المحدق سوى اثنين فقط من أصحابه.

في التجربتين كان بمقدور الرسول " صلى الله عليه وسلم " أن يهاجر إلى الحبشة أولاً وإلى يثرب ثانياً. وكان يمتلك كل المبررات التي تقنع أصحابه وأعداءه على السواء بضرورة هذه الهجرة .. إنها حماية الدعوة الفتية من التصفية النهائية ، بحماية قائدها ومعلمها ونبيها .. ولكنه آثر أن يظل في موقعه وألا يهاجر إلا كآخر رجل في الطريق المحفوف بالمكاره.

صحيح أنه كان ينتظر وعد الله سبحانه ، ويطمئن إلى حمايته ونصره .. ولكنه كان إلى جانب ذلك نبياً من الأنبياء الذين ظلوا حتى النهاية ، يحملون شرف الرجولة ، وفدائية الرواد

الذين قدر لهم أن يشقوا في صخور التاريخ وجباله طريقاً معبداً .. سوياً .. ولذلك وقع عليهم اختيار الله (سبحانه وتعالى) لحمل " أمانته " التي أبت السماوات والأرض أن يحملنها وأشفقن منها ..

وفي كتاب " الحياة الخاصة لجوزيف ستالين " لمؤلفه الجيكي برنارد هاتون ، نلتقي بنموذج آخر للرواد .. واحد من زعماء الحركات الوضعية كان يهرب من النار حيثما شبت ولا يجازف بالاكتواء بها مع أتباعه الذين يحترقون .. إنه لينين ، مؤسس الدولة الشيوعية وصاحب النظريات المعروفة باسمه ..

إن الرجل كان يريد أن يقيم دولته الموعودة من مكمنه الأمين .. يقلب أوضاعاً برمتها ، ويغير عالماً بكامله ، بعقول وأذرع أتباعه الذين يطاردون ويعتقلون وينفون ويعذبون ويقتلون .. وهو يصدر أوامره وتوجيهاته ونظرياته إليهم ، من مكمنه الأمين .. حتى إذا تم كل شيء ونضجت الثمرة ، قدم الرجل لكي يقطفها شهية دانية ، لولا أن جعلها نده ستالين تتعثر في حلقه قليلاً !

ونقرأ في الكتاب المذكور : " كان لينين في ذلك الوقت مختبئاً في مكان ما بلندن ، متنكراً تحت اسم " دكتور ريشتر " ، فقد كان مؤمناً بأن الثورة في روسيا وشيكة الوقوع ، كما كان يعمل على إثارة جماهير الفلاحين ضد أسيادهم ملاك الأراضي ومن عليها ، وإثارة الفتن وبث الفوضوية ، وفي العمل على إفساد جهاز إدارة الدولة وشل حركة الاقتصاد الوطني ، وإشعال نار الصدام المسلح ، (صفحة ١٩).

ونقرأ : " كان من المقرر أن يحضر ستالين المؤتمر الثالث للحزب في لندن ، ولكن مرض زوجته من ناحية ، ومولد ابنه من ناحية أخرى حالا دون ذلك ، ولكنه لم يشأ أن يترك المناسبة تمر من غير أن يحتفي بها ، فقاد جمهرة غفيرة من مشايعيه في باكو ، وسرعان ما أسقطهم رجال البوليس برصاص بنادقهم ، وكان العشرات منهم يخرون صرعى وتتكدس جثثهم في شوارع باكو وتفليس ، أما لينين الذي كان يعيش حينئذ آمناً في جنيف فلم يكن يدري دراية تامة بكل ما فعله ستالين ، ولذلك كتب إليه يطلب منه أن يضرم نار الثورة المسلحة طفرة واسعة .. ولقد استطاعت جماهير العمال الغفيرة أن تجرد البوليس من سلاحه ، وأن تسيطر على خطوط السكك الحديدية ، غير أن البوليس القوقازي تمكن أخيراً من إحباط الخطة وإجبار الثوريين على الفرار ، حدث ذلك ولينين – كعادته دائماً – بعيد عن مسرح الحوادث مصمم على البقاء بالخارج خوفاً من رجال البوليس وبطشهم به " (صفحة ٢٣-٢٤).

ونقرأ : " .. أمكن للحزب أن يحصل على الأموال التي لولاها لما عاد إلى الظهور ، وسرعان ما تأسست دور الصحف التابعة له ، كما أن دوريات الحزب ومنشوراته أغرقت كل شبر

من أرض القطر ، الأمر الذي جعل لينين الذي يعيش في لندن ، آمناً مطمئناً ، لا يخفي سروره ورضاءه عن النتيجة " (صفحة ٢٨).

ونقرأ : " .. ولما ذهب ستالين إلى منفاه – للمرة الثالثة – فوجئ بأن الحال لم يتغير ، إذ أن المنفيين ما زالوا على حالهم الذي تركهم عليه ، يعقدون اجتماعاتهم السرية ويناقشون النظريات ، ومع ذلك فإن ستالين هو الذي تغير في هذه المرة لأنه قرر أن يركز على خطاباته مع لينين ، كما بدا يشعر بالعداوة نحو البلشفيك الذين يعيشون في الخارج وهم ينعمون بالأمن والطمأنينة ، مكتفين بإصدار الأوامر والتوجيهات من مخابئهم ، إلى جنود الثورة الذي يدفعون وحدهم ثمن التمرد في كل مرة من دمائهم وأرواحهم .. وقبل انقضاء مدة العقوبة بثلاثة أيام ذهب ستالين إلى موسكو ، وأحتل هناك مكانة بين المتربعين على قمة الحزب ، وكان مصمماً على ألا يتزحزح عن مركزه القيادي قيد أنملة ، مبيتاً النية على ألا ينتظر توجيهات لينين .. " (صفحة ٢٨ – ٢٩).

ونقرأ : " .. ومضت الأيام بعد ذلك ، وسقطت القيصرية وقامت الحكومة المؤقتة (١٩١٧م) وطالت غيبة لينين في الخارج ، لذلك فإن بعض الأعضاء رأى أن يتم اختيار من ينوب عنه ، ومع أن معظم الأعضاء قد اتفقوا على ترشيح كامينيف في بادئ الأمر ، إلا أن ستالين كان هو الرجل الذي تم انتخابه أخيراً ليكون نائباً عن لينين ، لكنه لم يتمتع بمركزه الجديد كزعيم مؤقت مدة طويلة ، إذ أن لينين تمكن ، بعد مغامرة طويلة ، من العودة إلى روسيا ، وما إن وطئت قدماه أرض الوطن حتى قاد حملة شاملة ضد بعض الزعماء الذين يتشدقون بمبادئ البلشفية وأهدافها والبلشفية منهم براء ، كذلك قد أشار الرجل إلى ستالين على أنه أحد هؤلاء .. أما ستالين الذي كانت الأطماع تجيش في صدره وتملك عليه جل تفكيره فإنه على الرغم من معارضة أستاذه ومعلمه فإنه آثر أن يخفي مطامحه لوقت معلوم ومع ذلك فقد كان مصمماً على ألا يتنازل عن مركزه ولو أضطره ذلك إلى الوقوف ضد لينين .. " (صفحة ٣٥-٣٦).

يتحدث الكتاب بعد ذلك عن العرض الذي تقدم به لينين إلى ستالين أن يتولى الأخير مهمة الإطاحة بالحكومة المؤقتة ، وكيف أن كامينيف حذر ستالين من المجازفة " كما حذره من أنه قد يدفع وحده ثمن المغامرة التي يريد العجوز لينين القيام بها " (صفحة ٣٧) .. وإذ تمكنت الجيوش الألمانية – في الحرب العالمية الأولى – من إحباط الخطة العسكرية الروسية والتقدم داخل البلاد، اهتزت شعبية البلاشفة باعتبارهم أحد العوامل المسببة لهذا الانهيار في الجبهة " .. وكان من الطبيعي إذن أن نجد لينين وستالين يفكران في الهرب خارج البلاد بعد أن أوشكا على الاختناق في هذا الجو المشحون بالانفعالات والمشاعر المعادية للبلاشفة ، مما جعل لينين يختار لنفسه أن يهرب إلى فنلندة حيث تمكن بعض أتباعه من توفير مخبأ يؤويه .. " (صفحة ٣٧).

لقد ظل محمد " صلى الله عليه وسلم " بين صفوف أتباعه حتى النهاية .. واحداً من كادحيهم .. يكتوي – إذا اكتووا – بالنار ، ويفيء – إذا فاؤوا في لحظات نادرة – إلى الأمن ..

أما مؤسس دولة الكادحين .. ونبي الشيوعية الثاني .. فقد آثر مراراً الهروب من النار .. وأن يجعل من منفاه الأمين مكاناً لقيادة أتباعه الذين كانوا يتساقطون بالمئات والألوف ..

هذا هو معلمهم .. وذلك هو معلمنا .. وشتان !.

سيدة المافيا

أسمح لنفسي باستعارة عنوان فيلم أمريكي للحديث عن سيدة المافيا الحقيقية وليست " المفبركة سينمائياً " والتي تتحكم ، وفق طقوسها الخاصة بمصائر الأصدقاء والخصوم على السواء.

والطقوس تتمركز دائماً ، كما هو الحال في ممارسات كل خلية أو تنظيم مافيوي : القتل ، الجنس ، المال ، الإغراء ، والطرق المفتوحة إلى فوق ، والذهب المنصّب في الخزائن والجيوب ، والملذات الحسية التي لا أول لها ولا آخر ، وبريق السلطة والقوة .. والجزر السياحية، واليخوت العائمة ، والدور الفارهة والقصور .. الصعود السريع إلى القمة حيث يصير المافيوي سلطاناً يرهبه الجميع ويخضع له الجميع ..

ثم .. لخطأ ما .. لعصيان أمر أو الخروج على إرادة .. لتنافس مشروع أو غير مشروع على امرأة أو صفقة .. لصراع خفي أو معلن على منصب ما ، تصدر الأوامر بالقتل ، وتبدأ سلسلة التصفيات الدموية ، والذي يقتل أولاً هو الذي يستمر أخيراً.

لكأنه منطق المبارزة الأوروبية العريق .. من يضع ذؤابة السيف ، أو الرصاصة في خصمه هو الذي يواصل الحياة ..

والآن فإن سيدة المافيا بلا منازع هي (إسرائيل) ، والحركة الصهيونية التي أنشأتها ولا تزال تحرسها وتحميها .. وكل التنظيمات والخلايا اليهودية المنبثة في العالم تنتظر الإشارة لكي تنفذ المطلوب.

والطقوس المثلثة هي الطقوس .. هنا وهناك .. فإنه ليس كاليهودي من يبرع باستخدام المال والجنس لكسب الخصوم وتدجينهم .. أو قتلهم وتصفيتهم إذا اقتضى الأمر.

تاريخ بني إسرائيل ، منذ دعوات الأنبياء الأولى ، وحتى قيام (إسرائيل) ، وصولاً إلى عصر التطبيع أو التركيع ، مترع بتسخير مفردات هذا المثلث لتحقيق الأهداف بغض النظر عن مشروعية الأساليب أو عدم مشروعيتها.

الجنس والمال والقتل .. فالذي يستعصي على الأولى والثانية ، فإن ثمة ما يكتم صوته إلى الأبد : القتل .. بل إن البداية تكون من هنا إذا أدرك بنو إسرائيل أن هذا الرجل أو ذاك محصن بقوة العقيدة ضد الجنس والمال ..

والقائمة طويلة .. يكفي أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : الدكتور علي مصطفى مشرفة ، عالم الذرة المصري الذي ينسب له فضل اكتشاف نظرية النسبية ، وليس اليهودي آينشتاين ، وقد مات مسموماً ، والدكتورة سميرة موسى تلميذة د. مشرفة وعالمة الذرة التي قتلت في حادث سيارة غامض بالولايات المتحدة ، هدى برادة عالمة الذرة المصرية التي

قتلت هي الأخرى في ظروف غامضة ، الدكتور يحيى المشد عالم الذرة المصري الذي ذبح بأيدي عملاء الموساد في باريس ، الدكتور سعيد بدير عالم الصواريخ والأقمار الصناعية الذي كان واحداً من علماء قليلين في العالم في هذا المجال والذي قتل في عز النهار في شقته بالإسكندرية في مصر ، والدكتور جمال حمدان ، العالم المصري صاحب كتاب " شخصية مصر " ، و" أطلس الإسلام " ، حيث مات مختنقاً في حادث مجهول ! ، الدكتور حامد ربيع ، الحاصل على ثماني درجات دكتوراه في العلوم السياسية والاستراتيجية والذي كان واحداً من أبرع علماء العالم فيها ، وله العديد من المؤلفات في هذا المجال تدرس في كثير من الجامعات والمراكز الأكاديمية في العالم ، وفي أكاديمية الحرب العليا الأمريكية والأكاديمية التابعة لحلف الأطلنطي ، وكان مجاله الأثير في السنوات الأخيرة من حياته هو إبراز الأهمية الجيوبولتيكية للعالم الإسلامي والتخطيط السياسي الاستراتيجي لهذا العالم ، كما كتب عدداً من المقالات حول الحرب القادمة بين العرب وإسرائيل وتوقع قيام الأخيرة باستخدام صواريخ نووية تكتيكية ، وقد توقع مجيء قوة جديدة غير العرب ترفع راية الإسلام من جديد ، وأشار إلى أن الشواهد والمعطيات تؤكد أن هذه القوة الجديدة ستأتي من آسيا .. توفي في ظروف غامضة ، ونسب لمسؤول في المخابرات المصرية قوله : " إن إسرائيل هي التي اغتالت الدكتور حامد ربيع بواسطة مسدس أشعة فتاكة أطلقه عليه عميل إسرائيلي في شقته بالقاهرة " ، ولن ننسى الدكتور إسماعيل الفاروقي ، المفكر الإسلامي الفلسطيني الذي كتب العديد من المؤلفات في إسلامية المعرفة وأنشأ المعهد العالمي للفكر الإسلامي في أمريكا لهذا الغرض ، وذبح وزوجته الدكتورة لمياء على أيدي الصهاينة في شقتهما هناك.

ولن يضيع الدم ، كما يقول المثل المعروف ، ولسوف يكون الحساب عسيراً عندما يأذن الله لهذه الأمة أن تجد مكانها في الأرض ، وأن تتجاوز مرحلة التيه وتلتقي ذاتها وعقيدتها وتاريخها مرة أخرى ..

يومها لن يكون بمقدور " سيدة المافيا " أن تصل إلى رجل واحد في عالم الإسلام ، بل إلى قلامة ظفره .. ويومها سيتلقى اليهود العقاب العادل على كل قطرة دم إسلامي تهراق .. واحدة بواحدة !.

أما الآن .. وتحت مظلتي النظام العالمي الموحد الذي تتعهده أمريكا : عرّاب (إسرائيل)، وسياسات التطبيع التي فتحت الثغرات لتسرب الخبث اليهودي إلى ديارنا وأخلاقنا وضمائرنا ، بل إلى عقيدتنا وتاريخنا وحضارتنا ، فإن ثمة فرصاً مضافة ، أتيحت لسيدة المافيا كي تنفذ خططها وتتفرد بالسلطان أكثر فأكثر بقوة الجنس والمال ، وبسلاح القتل إذا اقتضى الأمر.

ما الذي يحدث الآن داخل الأراضي المحتلة ، وخارجها ، حيث البلدان العربية التي قبلت معطيات التطبيع.

فضائح جنسية ، ومحاولات للهيمنة المالية والاقتصادية ، وسلسلة طويلة من عمليات التصفية الجسدية ضد الخصوم.

وما ظهر من طقوس المثلث المافيوي أقل بكثير من المخفي الذي يغيب عن الأنظار .. إنها أشبه بظاهرة كتلة الثلج التي لا يبرز منها خارج سطح البحر سوى العشر وتبقى تسعة أجزاء غائصة تحت الماء ..

وإلى اليوم الذي ستكشف فيه اللعبة ، ويتعرى دور السيدة ، وتظهر الأبعاد الحقيقية للممارسات المافيوية بكل تفاصيلها .. فإن ثمة ما يمكن فعله على الأقل لتقليم الأظافر ، والحد من سكين السيدة قبل أن تمضي لقطع مزيد من رؤوس النخبة الواعدة .. زهرة هذه الأمة وعناصرها المتفوقة ..

المزيد من اليقظة والحذر واتخاذ إجراءات الحماية الأمنية عبر التنقل في البلدان ، والردع السريع لأزلام السيدة وهم ينصبون كمائنهم هنا وهناك لاصطياد العلماء والمفكرين.

وقبل هذا وذاك ، التمركز في الأرض ، وعدم مغادرتها إلى هذا البلد الغريب أو ذاك مهما كلف الثمن ، حتى ولو اقتضى الأمر التخلي عن بعض مطالب المتابعة العلمية وضروراتها.

وثمة – بالمقابل – أولئك الذين استطاعت سيدة المافيا أن تغويهم بإغراءات الجنس والمال، من شباب هذه الأمة وسياسييها وعلمائها ومثقفيها ، فليس أقل من تسخير الآليات الإعلامية المتاحة لفضحهم والتشهير بهم ، كي لا يمتد سرطانهم الخبيث إلى مساحات أخرى من جسد هذه الأمة ، وكي يعرف أولئك الذين لا يملكون الحصانة الكافية قبالة إغراءات السيدة أن استجابتهم للإغراء لن تجعلهم بعيدين عن الفضيحة والتشهير ، وربما الرد على العدوان بمثله إذا أريد لهم أن يصيروا مخالب حادة لأصابع السيدة التي تأمر وتنهي ..

لقد نزفنا كثيراً عبر العقود الأخيرة ، وآن لنا أن نوقف النزيف الغالي .. والمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين !

الحكم الذاتي : ذلك الجانب المظلم

ليس عبثاً أن تجيء تلك الشبكة من التأكيدات في كتاب الله وسنة رسوله " صلى الله عليه وسلم " على ضرورة أن يتحصن " المجاهد " المسلم ، وهو يكافح خصومه ، بالقيم الخلقية المتجذرة في العقيدة والموغلة في عمق الممارسة الإيمانية ، فلقد كانت نظافة هذا " المجاهد " وطهره ونقاؤه الأخلاقي ، واستسلامه للأمر الإلهي ، وإذعانه لتعاليم الرسول القائد " صلى الله عليه وسلم " وتأبيه على إغراء الشهوات الجارفة والمتع القريبة والمنافع العاجلة ، واستعصاؤه ضد كل صنوف الرغبات والأهواء .. كان هذا كله واحداً من أكثر أسلحته فاعلية ومضاءً وهو يقاتل خصومه الذين كانوا في كثير من الأحيان يفوقونه عدة وعدداً.

ويتذكر المرء تأكيدات عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " وحفيده عمر بن عبد العزيز على دور التحقق الإيماني والأخلاقي في الانتصار على العدو : ﴿ .. **فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ (سورة الأنفال ، الآية ٦٦) ، ما كانت لتتحقق إلا بشروطها ، وأحد هذه الشروط ، وربما أكثرها أهمية الخصائص الأخلاقية التي تميز بها المجاهد بكل ما تنطوي عليه من مفردات الطهر والتعفف والانضباط والتحصن ضد عوامل تفكيك الشخصية البشرية وتدميرها.

والمعجزة التي صنعتها (حماس) في لحظاتنا الراهنة ما كان لها أن تتحقق ، بعد الرغبة المؤكدة في الاستشهاد وكسب رضا الله جل في علاه ، إلا بهذه !.

ليست الأيدي المتوضئة لأخوة الشيخ " أحمد ياسين " وتلامذته فقط ، ولكن الوجوه المتوضئة ، القلوب المتوضئة ، الجوارح المتوضئة .. وهي تتعامل مع مفردات العالم والحياة في السلم والحرب ، بأقصى درجات الطهر والنبل والنظافة والحصانة والتفوق على كل إغراءات الحياة الدنيا ومتاعها ..

بنظرة واحدة إلى صورهم في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام يلمس المرء أنه قبالة نمط من خريجي مدرسة القرآن ، متحدر من صلب أولئك الذين صاموا عن كل صنوف المغريات ، فقدروا – بعدها – على أن يفتحوا العالم ويغيروا خرائطه .. وأتحدى كل من يحدّق ، بسمع لم يتكدس تراب الخطيئة على طبلته ، وعين لم يغشها بريق الإغراء المخادع ، وقلب لم يؤكسده صدأ الشهوات والآثام ، أن يجد في وجه " أحمد ياسين " أو " خالد مشعل " أو " موسى أبو مرزوق " أو " الزهار " أو " الرنتيسي " ، أو " يحيى عياش " ، بقعة لم يغمرها الضوء.

وعندما يتوحد طهر القلب والعقل والجوارح ، وينسرب دفق الشعاع الإيماني في شراييها كافة ، تهون فتن الدنيا وتتراجع ظلمات الرغبات والأهواء وينطلق المجاهد قبالة ، وفوق ، كل قوى الشد والإعاقة والتخريب الأخلاقي ودمار الذمم والمقومات.

في حالة كهذه يجد اليهود الذين تمرسوا على اقتحام الخصم من هذه الثقوب السوداء ، الباب موصداً ، وفرصة الاختراق مستحيلة ، حيث تقف ترسانة القيم المدعمة بقوة الإيمان في وجه أية محاولة للنفاذ .. ولكن .. وآه من كلمة لكن هذه ، ليس النسيج الفلسطيني ، والإسلامي عموماً ، سواء كله ، فهنالك – بالتأكيد – بقع هشة .. حلقات ضعيفة يعرف العدو كيف يوظفها للدخول إلى عقل القيادات الفاعلة ووجدانها ، ومن ثم إغوائها والتلبيس عليها وممارسة ما يمكن اعتباره نوعاً من غسيل المخ ، ليس بآليات الإرهاب والتعذيب ، ولكن بما هو نقيضها تماماً : اللذة والإغراء.

ها هنا عندما يتكدس الحطب اليابس فإن عود ثقاب واحد يمكن أن يشعل فيه النار التي قد تأتي على الأخضر واليابس.

إن الانحلال الخلقي الفلسطيني في زمن الانكسارات والتنازلات سيقود إلى مزيد من الهزائم والتراجعات ، وسيعطي الصهاينة ما كانوا ينتظرونه منذ زمن بعيد : رأس القديس يوحنا المعمدان ثمناً لرقصة سالومي الفاجرة ..

ما الذي يحدث في هذا السياق المنذر بالويل ؟

مصادر صحفية غربية قالت إن مسؤولين كباراً في " م. ت. ف " يتوجهون من قطاع غزة إلى فنادق فخمة في مدينة تل أبيب للترفيه عن أنفسهم ، وأن هؤلاء المسؤولين وفقاً لما ذكرته أسبوعية " صنداي تلغراف " البريطانية يمضون أوقاتاً بصحبة نساء إسرائيليات في تل أبيب.

وجاء في تقرير نشرته الصحيفة البريطانية عن الأوضاع المعيشية في قطاع غزة تحت سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني أنه " في غزة المسلمة يصعب العثور بسهولة على المشروبات الكحولية ، ولذلك فإن شخصيات عديدة بارزة في " م. ت. ف " بدأت تذهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في تل أبيب " حسب قولها. ومضت الصحيفة في تقريرها قائلة " قبل بضع سنوات كان الإسرائيليون يطلقون النار على أي عضو أو رجل من رجال (م. ت. ف) يجرؤ على الظهور في تل أبيب ، أما الآن فإنهم يعطون تصاريح مرور خاصة ويستضيفونهم في أرقى الفنادق " (عن فلسطين المسلمة عدد (٨) آب ١٩٩٥م).

العميد غازي الجيالي قائد الشرطة الفلسطينية في قطاع غزة نفى معلومات أشارت إلى أن رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات أصدر أمراً بنقله إلى مدينة رام الله في الضفة الغربية على خلفية تصرفات صدرت عنه مؤخراً بحق إحدى الموظفات العاملات لديه والتي انتحرت في ظروف غامضة. وقال الجيالي وهو من قطاع غزة إن المعلومات التي راجت بشأن نقله لا أساس لها من الصحة ، غير أنه لم يتطرق إلى الأسباب التي تقف وراء مصرع سكرتيرته الخاصة قبل بضعة أسابيع ، وكانت مصادر فلسطينية قد أشارت إلى أن الفتاة أقدمت على الانتحار بعد أن تعرضت للمضايقة الجنسية من قبل العميد الجبالي ، وأن عائلة الفتاة اشترطت أن يقوم عرفات

بنقل الجبالي إلى موقع آخر في الضفة الغربية ، ولم تصدر الشرطة الفلسطينية حتى الآن أي تعقيب على تلك المعلومات (عن فلسطين المسلمة ، عدد (٨) آب ١٩٩٥م).

ويصف صحفي يهودي في " الجيروساليم بوست " أمسية في بيت زعيم آخر من قادة الحكم الذاتي : " بعد ساعات أكملنا الأمسية في شقته " بسام أبو شريف " وهي مؤثثة أثاثاً مترفاً وأرضيتها مغطاة بالسجاد الفاخر ، وبدا أبو شريف وهو متزوج وأب لولدين علمانياً لا يخجل من علمانيته في الوقت الذي تحرص فيه كل شخصية عربية بارزة على إظهار التزامها بتعاليم الإسلام ، كانت أصوات موسيقى الديسكو تعلو من جهاز الستيريو ، وكانت الطاولة مملوءة بزجاجات الويسكي والفودكا ، كانت كلماته صريحة وأحياناً مبتذلة ، قال : " لا أحب الاستمناء السياسي " في إشارة إلى النقاشات السياسية التي لا تنتهي (عن فلسطين المسلمة عدد (٥) أيار ١٩٩٥م).

ومنذ منتصف السبعينيات كانت الحلقات الفلسطينية الهشة قد اخترقت ، واحدة منها كانت زواج المسؤول الأمني في " م. ت. ف " بملكة جمال العالم الممثلة اللبنانية (ج. ر) .. الكثيرون ممن كانت تسكنهم القضية الفلسطينية تساءلوا يومها فيما إذا لم تكن هناك فتاة فلسطينية .. فتاة واحدة من بين مئات الألوف من الفلسطينيات تصلح لأن تكون شريكة حياة المسؤول الأمني الكبير عن " القضية "، والذي ما لبث أن اغتيل بعدها بقليل !.

لا أدري لم أتذكر ذلك المقطع ذا الدلالة في مذكرات الشاعر التشيلي المعروف " بابلو نيرودا "؟ لعلها اللعبة نفسها تتكرر هنا وهناك .. والهدف واحد : اختراق الخصم وكسب الأصدقاء .. وأحياناً تحويل الأعداء إلى أولياء بسلطة " اللذة " إذا جازت التسميات ..

قال نيرودا في مذكراته " لقد تعرفت على الباخرة – المبحرة إلى الشرق الأقصى – على فتاة يهودية تدعى " كروزي " شقراء ، سمينة شيئاً ما .. قالت لي إن لها منصباً جيداً في باتافيا .. اقتربت منها في الحفلة الأخيرة للرحلة البحرية ، بين كأس وكأس كانت تجرني للرقص .. في هذه الليلة الأخيرة قررنا أن نمارس الحب في غرفتي بشكل ودي .. اعترفت لي كروزي من جهتها بالعمل الحقيقي الذي كان ينتظرها في باتافيا ، كان ثمة منظمة فلندعها دولية (!) كانت مهمتها هي أن تشبك فتيات أوروبيات في أسرة آسيويين معتبرين ذوي مناصب أو ألقاب مهمة ، بالنسبة لها فقد كانوا أعطوها الحق في الاختيار بين " مهراجا " أو أمير من سيام أو تاجر صيني غني ، فقررت اختيار هذا الأخير لكونه شاباً وديعاً .. " (مذكرات نيرودا ، ترجمة محمود صبيح، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ، ص ١٥٠). وبالتأكيد ، فإن المسألة ليست حدثاً عابراً ، ولكنها ظاهرة لعبت ولا تزال دورها الخطير في سياسات الدول والمنظمات والحكومات ..

ترى ، أبمقدور قوة في الأرض أن تخترق أخلاق المسلم المحصنة بالإيمان العميق لكي تسوقه إلى هذا المصير المفجع فتجعله بالملذة ، وبالخوف من الفضيحة ، أداة رخيصة بأيدي

المنظمات الدولية ؟ فمن أجل أن تمضي " كروزي " اليهودية إلى هدفها ، وتجد المنظمة الدولية الطريق معبداً أمام عمليات الاصطياد اليومي ، كان لابد من تدمير حاجز القيم الخلقية وإزاحة ترسانة الإيمان.

إن السمسار اليهودي هو الوجه الآخر للسياسي الصهيوني .. كلٌّ يعمل وفق أداته الخاصة لخدمة (إسرائيل) .. والذين سيستدرجهم السمسار هم كأولئك الذين خدعهم السياسي .. انتهى بهم الأمر إلى السقوط. وحرام على القضية التي استشهد دونها عشرات الآلاف من الفاتحين زمن الراشدين " رضي الله عنهم ". ومئات الآلاف زمن الغزو الصليبي ، وخسر السلطان العظيم " عبد الحميد الثاني " إمبراطوريته ومجده وهو يكافح دونها .. حرام على القضية التي ضحى من أجلها الفلسطينيون بالغالي والرخيص على مدى قرن من الزمن ، ولا يزال أحفادهم يقاتلون دونها بقلوبهم وأيديهم وجوارحهم المتوضئة بدفق الإيمان .. حرام عليها أن تسقط هكذا .. عند أقدام ساسة اليهود وسماسرتهم على أيدي أولئك الذين تمردوا على تقاليد الآباء والأجداد ففقدوا طهرهم، وطاشت بعقولهم نساء بني إسرائيل ، وبقلوبهم قناني الويسكي والفودكا ، فاستعجلوا الحصاد المر، وأصبحت ، حتى المطاولة على موائد الحوار للاحتفاظ بشيء مما تبقى ، أصبحت – بتعبير أحدهم – استمناءً سياسياً يدعو للاشمئزاز ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ذوو الثياب البيضاء

هناك صنفان من الناس يحبون أن تظل ثيابهم بيضاء ..

أولهما ليس موضوع الحديث ، حيث يتوحد عندهم نقاء القلب والسلوك مع نظافة الثوب وهو النمط الذي قدر هذا الدين على تخريج أجيال منه تلو الأجيال عمرت الدنيا وقدمت بسلوكها الموحد هذا مثلاً على أحقية الإسلام بحكم الحياة وإعادة صياغتها.

ولكني سأقف لحظات عند الصنف الثاني .. الاستثناء " النشاز " للقاعدة الوضيئة والذي يخشى إذا لم يُفضح ويُعرّى أن ينتشر كالطاعون على سطح الحياة الإسلامية فيصيبها بالتشوه والانحراف.

الثياب بيضاء بكل تأكيد ، لا تعلق بها ذرة من غبار .. وهم يحرصون أشد الحرص على أن تظل كذلك من أجل أن يقول الناس : ها نحن ذا لم يمسنا أذى أو سوء.

الثياب بيضاء ولكن القلوب معتمة كثيرة النكت السوداء التي انتشرت في ثنياتها والتي توشك أن تحفر فيها أخاديد وشقوقاً غائرة ..

وتمضي العلاقة عكساً بمرور الزمن .. فكلما ازدادت ثيابهم نظافة ولمعاناً ازدادت قلوبهم عتمة والتواءً .. إلى الحد الذي يصير فيه " الآخر " – في معيارهم – سيئاً بالضرورة حتى تثبت براءته وليس العكس كما هو متعارف عليه.

أعرفهم جيداً وقد عايشت منهم نماذج تصلح لأن تكون وسائل إيضاح لمنافقي القرن العشرين.

جل مفردات سلوكهم تذكر المرء بالمنافقين الأوائل زمن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " .. مجموعة أبيّ بن أبي سلول .. يتجولون في الأحياء والأسواق ببطء وتؤدة .. يحاذرون أن تمس ثيابهم المغسولة جيداً رشقة من الغبار .. ينظر بعضهم إلى بعض بإيماءات تغني فيها الإشارة عن الكلام .. يغمزون بها هذا وذاك من صحابة رسول الله " صلى الله عليه وسلم " فتكون شفرتها المسمومة أحدّ من حافات الخناجر والسكاكين.

- أنظر إليهم .. مساكين .. إنهم يلقون بأنفسهم في التهلكة.

يقول أحدهم بإيماءة العين وهو يرفع ذيل ثوبه قليلاً كيلا يمس الأرض الموحلة .. فيرد الآخر :

- يندفعون بدون روية صوب الموت المحقق !

ويجيب الأول وهو يحرك رأسه بأسف مترع بالحكمة والرؤية الصائبة :

- لا يعرفون كيف يجمعون ويطرحون .. العاقل من حسب لكل شيء حسابه قبل أن يخطو خطوة واحدة ..

- طالما نصحت بعضاً منهم فلم يكترث لكلامي.
- ولكنهم يقولون بأنها أوامر رسول الله وأن عليهم تنفيذها بالحرف.
- ولكن ليس قبل أن يديروها في عقولهم وإلا حفروا قبورهم بأيديهم ..
- إنهم يحفرونها فعلاً .. وهم يعلمون بذلك مسبقاً ..
- ماذا تقصد ؟
- يقولون إنها الشهادة !
- ولكن ..
- قل لهم .. حاول أن تقنعهم ..

يمضي المنافقان إلى هدفهما وهما يحسان حتى أعمق نقطة في وجدانهما أنهما اختارا طريق التعقل والحكمة وأن الأمن الذي ينعمان به يعدل عندهما الدنيا وما فيها ..

وقبل أن يفترق أحدهما عن الآخر يقول الأول :

- الرجل العاقل في هذا الزمن هو الذي لا يسمح بأية إهانة أن تلحق به .. الذي يعرف كيف يحافظ على ثيابه بيضاء من غير سوء ..
- ولكنهم تلقوا في مكة الكثير من الإهانات .. لذا فهم على استعداد لتلقي المزيد ..

ويرد الأول :

- كل شيخ وله طريقته ، وأنا لا أزال أقول بأن كرامة الرجل هي أثمن ما يملك وأن مساسها بكلمة جارحة قد يجعلها تنزف كثيراً .. فتضيع ولن تقدر قوة في الأرض على إعادتها كما كانت.
- بالتأكيد ! لماذا لا تحاول ان تنصحهم ؟

ويرد الأول وهو يحرك رأسه بهدوء وأسف محاولاً استحضار أقصى درجات الاتزان والحكمة والقدرة على حساب النتائج من مقدماتها المؤكدة :

- لقد حاولت كثيراً فلم يكترثوا لكلامي. وها هم الآن يتهيأون لمحاولة انتحارية جديدة يريد رسولهم (!) أن يجرهم إليها !
- التوجه إلى تبوك النائية. أليس كذلك ؟
- بكل تأكيد.
- لا حول ولا قوة إلا بالله !

ها هم الآن ينهضون ثانية في أخريات القرن العشرين .. السلالة نفسها وهي تحمل خصائص النوع الذي تنتمي إليه.

سمعت أحدهم ممن لا تفوته صلاة يقول : علام نلقي بأنفسنا في التهلكة ؟ ولم نسلم أنفسنا للقتل ؟ وإذا لحقت بنا إهانة من هذه " الجهة " أو تلك فماذا سنقول لأولادنا وقد مرغت كرامتنا بالتراب ..؟

قلت له وأنا أحاول أن أتمالك نفسي من الانفعال : ولكن رسول الله نفسه " صلى الله عليه وسلم " تلقى من مشركي مكة ما تلقى ، وألقيت على رأسه الشريف وهو يصلي بقايا جزور متعفنة ، فما زاد ذلك كرامته إلا تألقاً وطهراً ..

أجابني وهو يلوك كلماته ببطء : ذاك رسول الله !

- ولكن الطريق هو الطريق .. والإهانة في حالات كهذه ليست كما يخيل لك .. إنها وسام شرف يتباهى به المسلم ويعلّقه على صدره !

مطّ شفتيه وآثر الصمت ..

تابعت نموذجاً آخر عن كثب : حرص مذهل على سلامة الذرية وحمايتها من كل سوء .. استعداد مثير للدهشة للتنازل عن كل شيء : الشرف والكرامة ، وحتى العقيدة، لكي يخرج الأبناء سالمين من هذه المحنة أو تلك .. بل إن بعضهم كان يطلب من أبنائه ، ويرغمهم إرغاماً ، على أن يخوضوا المستنقعات الموحلة حتى جباههم – إذا اقتضى الأمر – من أجل ألا يتعرضوا لأذى الآخرين ..

- ولكنك تجهد لكي يظل ثوبك نقياً لا تمسه ذرة من غبار .. وها أنت ذا تدفع بأبنائك إلى الوحل ..
- هذه مسألة أخرى .. والمهم ألا نضيعهم فنحن مسؤولون عنهم !

نموذج ثالث كان يعيب على الدعاة اندفاعهم الزائد وعدم تبصرهم ، وطالما سمعته يقول لصاحبه :

- تعوزهم الحكمة لكي توقف من تهورهم الذي لا مبرر له .. كأنهم لا يملكون عقولاً.

أقاطعهما محتداً :

- ولكنه أمر نبويّ أيها الـ .. إن تغيير المنكر لا يتطلب أعمالاً طويلاً للذهن .. والمؤمن ينظر بنور الله فتنكشف أمام وعيه المرئيات بالوضوح المطلوب .. الأبيض والرمادي والأسود ..

يلتفت أحدهم إلى الآخر وهو يغمز بعينه :

- قل له إن الله لم يأمرنا أن نقتل أنفسنا !

وغير هذه النماذج الثلاثة ، عشرات ومئات .. تعج بهم أحياؤنا وشوارعنا ومدننا .. وهم ينتشرون كالسرطان الخبيث بسبب من التواءات العصر وضغوطه ومفارقاته ، وتزيدهم التحديات عجزاً وجبناً وإصراراً على الاختباء تحت أرديتهم البيضاء.

وسيلة إيضاح للانهزامية منافقو القرن العشرين هؤلاء ، هدفهم الأول والثاني والثالث هو التحقق بالأمن الذاتي لأنفسهم وأسرهم وذريتهم .. وليحدث بعدها الطوفان.

هاجس الخوف من الأذى يلاحقهم ليل نهار فما يزيدهم إلا نكوصاً وارتخاءً. يخيل إليك وأنت تلحظهم يلهثون حتى تقطع الأنفاس وراء ضمانات الأمن والحياة والمعاش والمستقبل والاستقرار ، أنّ الإنسان خلق لكي يظل خالداً لا يموت ، أو أنهم يتمنون هذا على الأقل ، ولتشبثهم الملح بأمنيتهم هذه يتحول التمني إلى إحساس واقع يملك عليهم أقطار أنفسهم ويوهمهم أنهم لن يموتوا أبداً ومن ثم تعظم عليهم المصائب والتضحيات ، بل تعظم عليهم خسارة تافهة هنا أو هناك ، ورجفة خوف قد تحيق بهم وشوكة يشاكها أحد أولادهم.

ما الفارق ، والحالة هذه ، بينهم وبين اليهود الذين وصفتهم كلمات الله المعجزة بأنهم " أحرص الناس على حياة " .. أي حياة حتى لو كانت حياة البهائم والعجماوات ؟! حياة .. تنكرها الآية الكريمة بتجريدها من ألف لام التعريف .. حياة وكفى .. وبأن أحدهم " يود .. لو يعمر ألف سنة "! وبمقدور المرء أن يلمس هذا في كل خطوة من خطواتهم ونأماتهم .. أن يعمر أحدهم ألف سنة ..

في حالة كهذه يغدو الجهاد مجازفة كبرى ، واندفاعاً غير متبصر في العواقب .. يصير معادلة خاسرة من أيّة زاوية نظرت إليها .. ويصير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عملاً طائشاً لأنه قد يعرضك للأذى وينتقص من فرصتك في أن تحيا وذريتك حياتك آمناً مطمئناً ..

ومع ذلك تظل ثيابهم بيضاء .. وتراهم يروحون إلى المساجد ويجيئون ويهمس بعضهم إلى بعض بكلمات كان أبيّ بن سلول قد نحتها منذ زمن بعيد في قواميس السلوك " المحسوب " الذي يحتاط لكل شيء ، ويبالغ في الاحتياط كأن الإنسان خلق لكي لا يموت !

إنهم يرصدوننا جيداً

من خلال تعاملي مع حشد كبير من النصوص الغربية الحديثة والمعاصرة خلال تأليف كتاب (قالوا عن الإسلام) بدت بوضوح دقة رصد القوم هناك لواقعنا الإسلامي وخلفيته العقدية والتاريخية والحضارية ، ومحاولة توظيف نتائج هذا الرصد في سياقات شتى سياسية أو اقتصادية أو استراتيجية أو دينية أو أكاديمية.

دوافع الرصد تختلف بين رجل وآخر ، وبين بيئة وأخرى ، وتوظيف النتائج يختلف هو الآخر ، ويتأرجح الجهد بشكل عام بين الموضوعية التي تحرص على اكتشاف الحقائق والتعامل معها ، وبين الانحياز في الكشف والتعامل .. وهو بدوره درجات شتى قد تنحدر بصاحبها إلى الابتعاد كلية عن الحقيقة وتجاوز كل الثوابت المتفق عليها في دائرة النشاط المعرفي الإنساني.

وكلنا يعرف كيف كانت بعض الدراسات " الاستشراقية " أيام الاستعمار القديم تقدم في الأساس على شكل تقارير لدوائر الخارجية في عواصم الغرب للإفادة منها في السياسات والخطط الاستعمارية ، وكيف كانت الكنيسة – من جهتها – توظف حشداً آخر من الباحثين لتحقيق أهدافها في بلدان العالم الثالث.

ونحت الدولة الشيوعية في بدايات قيامها نحوهما فاستنفرت العديد من الدارسين لنشر وتأكيد المعطيات الماركسية من خلال جهد البحث في التاريخ والحضارة والمعرفة الإنسانية عموماً وحققت نتائج كبيرة كما هو معروف.

وفي عهد الاستعمار الجديد ازداد الرصد دقة وإحاطة بتوظيفه نتائج الثورة التقنية وبخاصة في مجال " المعلومات " وبازدياد التفوق الحضاري الغربي الذي مكن العقل الغربي من اختراق أشد عمقاً لعالم الإسلام لرصد ما يجري في أوردته وشرايينه ، رغم انسحاب الجيوش المستعمرة من عالم الإسلام ، حيث قدرت التكنولوجيا على أن تملأ الفراغ وتقدم نتائج أفضل بكثير مما كان عليه الحال في الزمن القديم.

ويستطيع المرء أن يتابع – أحياناً – نماذج من الرصد المعاصر عبر أجهزة الإعلام الغربي ووسائله : السينما ، والتلفاز ، والراديو ، والفيديو ، والمسجل ، والصحيفة ، هذا فضلاً عن الجهود البحثية المتمثلة بسيل من الإصدارات الخاصة بعالم الإسلام والتي يمكن للمرء أن يلتقيها في معارض الكتب المقامة في عواصم الغرب بين الحين والحين.

ولكن هذا كله لا يعدو أن يكون الجزء المنظور العائم من كتلة الثلج التي تختفي تسعة أعشارها تحت الماء ، فثمة الدراسات والتقارير " السرية " أو " الخاصة " المقدمة إلى مراكز الدفاع والخارجية والأمن القومي والأنشطة الاستراتيجية. والتي تنطوي على شبكة جد دقيقة من

المعلومات التي أفرزها الرصد الدقيق المعتمد على التوظيف المحكم للطاقات البشرية والتقنية معاً.

قد يكشف النقاب – لسبب أو آخر – عن هذا التقرير أو ذاك ، وقد يعلن عن هذه الدراسة أو تلك ، ولكن يبقى الكم الأكبر طي الكتمان لأنه يرتبط أساساً بالمصالح القومية العليا للدول الغربية.

مهما يكن من أمر فإن القوم يرصدوننا جيداً ، وهم يوظفون نتائج هذا الرصد لتحقيق مصالحهم القومية بغض النظر عن تساوقها أو ارتطامها ليس فقط بمصالحنا ، بل بثوابتنا العقدية والتاريخية والثقافية والأخلاقية .. الخ.

ويشكل هذا الجهد – بجوانبه كافة – واحداً من أهم عوامل التفوق الغربي واستمرارية هيمنته على مقدرات العالم الإسلامي البشرية والاقتصادية وحتى الثقافية ..

والسؤال الآن : هل سيظلون هم في مواقع الإيجاب ونظل نحن في مواقع السلب ؟ بمعنى، هل سيظل عالم الإسلام بمثابة حقل للمتابعة والرصد الغربيين وتوظيف نتائجهما لصالح الإنسان، والأمة ، والدولة ، والحضارة ، هناك على حساب " المسلم " الذي يزداد فقراً وتعاسة وانسحاباً من مواقع التأثير والفاعلية في صيرورة العالم الراهن ، في الوقت الذي يملك عقيدة ليست كالعقائد .. عقيدة أخذ يتبين بمرور الوقت وبعد تساقط جل المذاهب الوضعية ، أو الدينية المحرفة ، كم أنها العقيدة الوحيدة الصالحة للبقاء ، وكم أنها " الفرصة " المتفردة لإنقاذ الإنسان والعالم من الورطة التي قاده إليها الوضاعون والمتمردون على كلمة الله ، وكم أنها المشروع الحضاري الوحيد الذي يمكن أن يملأ الفراغ الذي خلفه تساقط العديد من الحضارات ، أو عجزها في الأقل عن أن تكون بحجم المطالب الإنسانية والوجود البشري في العالم.

إن هذه الاعتبارات وغيرها كثير ، يجب أن تدفعنا إلى إعادة النظر في وقفتنا الخاطئة ، وإلى فتح ملف " الرصد " كواحد من الأنشطة الضرورية في صراع الحضارات أو حوارها .. وفي تمكين المسلم من التعرف على العالم المحيط به ، بغض النظر عن عدوانية هذا العالم أو تصالحه مع المحيط الإسلامي .. ما يجعله قديراً على الحركة وهو يملك الخرائط الدقيقة التي لا يضيع معها الجهد ولا تغيم الأهداف.

إن " شيئاً " من هذا تحقق أو هو في طريقه إلى التحقق ولا ريب ، فثمة العديد من مراكز البحوث والدراسات ، وثمة الأنشطة العلمية والإنسانية والجهود الإعلامية والسياسية في مختلف بلدان العالم الإسلامي.

ولكن المطلوب يتحتم أن يكون أكبر بكثير من هذا كله ، لأننا بمجرد مقارنة سريعة بين حجم الرصد الإسلامي وأساليبه ، ونتائجه ، وبين ما يجري في ساحات الغرب سيتبين كم أن الفارق كبير بيننا وبينهم ، وكم أن علينا أن نزيد من حجم جهدنا كماً ونوعاً ، وبأضعاف

مضاعفة ، لكي نقارب – في الأقل – هذا الذي يجري هناك ، ولكي لا تتحول ديارنا إلى مناطق للضغط المنخفض الذي يسحب إليه الرياح القادمة من نقاط الضغط العالي لكي تقتلعنا من الجذور ..

إن الرصد المحكم بهذا المعنى سيعيننا على التجذر .. على حماية وجودنا وثوابتنا ، كما أنه سينتقل بنا صوب الخطوة التالية : التحرك إلى الآخر لإقناعه بمصداقية موقفنا ، ورؤيتنا العقدية للحياة والمصير ، ومن ثم لكي نكسبه ، أو – على الأقل – نتحول به من مواقع الخصومة والاستغلال والبغضاء إلى التصالح والمحبة والتعايش المشترك من أجل تسوية الأرض، وتطهيرها من الشوك والدغل ، وفتح الطريق للمشروع الإسلامي البديل لكي يمضي إلى أهدافه التي أرادها الله ورسوله (عليه الصلاة والسلام).

ومنذ زمن بعيد .. منذ بدء المسيرة الإسلامية في التاريخ ، كان رسول الله " صلى الله عليه وسلم " قد أمر أحد أصحابه بأن يتعلم " العبرية " لكي يعرف ما الذي يقوله اليهود أو يفعلونه ، فيما وراء المنظور ، وكيف يفكرون ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يدخل معركة حاسمة قبل أن يرصد الخصم جيداً ويجمع كل البيانات الدقيقة عنه ..

أفلا نتعلم من رسول الله ؟

نسبية العلم والادعاء المرفوض

مسكينة بعض أصناف العلوم التي يحملها أنصاف العلماء أكثر مما تطيق ويمتطونها المسافات الطويلة ، حاثين إياها على الإسراع ، وهي لم توجد ألا لقطع مسافات محدودة من الطريق.

وعلم الآثار هو واحد من هذه العلوم " الإنسانية " الاحتمالية كعلم النفس وعلم الاجتماع .. الخ ، والتي لا نستطيع مهما بذل أصحابها إلا أن نقف عند حدود اكتشاف بعض الجزئيات والظواهر والعروض ، أما الحقيقة الكلية .. الحقيقة النهائية .. فهي بعيدة المنال، إن لم تكن مستحيلة.

ولن تخدعنا ادعاءات علماء " الإنسانيات " أولئك الذين ما إن يكشفوا عن جانب من الحقيقة ، أو عما يوهم بأنه جانب من الحقيقة ، حتى تسكرهم نشوة الكشف وتدفعهم الروح النرجسية إلى أن يعلنوا بأنهم قد وضعوا أيديهم على الحقيقة المطلقة ! لو كان ما قاله فرويد حقاً بصدد تحليل دوافع السلوك البشري ، لأسقطنا من الحساب جلّ علماء النفس الآخرين الذين جاءوا قبله ، ومعه ، وبعده ، بما فيهم تلامذته الذين انشقوا عليه وبدلوا من نظرياته ، وبما فيهم أولئك الذين يسرت لهم طرائق البحث المتقدمة في العقود التالية قدرة أكبر على النفاذ إلى أعماق النفس البشرية .. ولو كان ما قاله بافلوف أو إدلر أو غيرهما حقاً مطلقاً لأسقطنا فرويد نفسه من الحساب.

ولكن ، بما أن أي واحد من هؤلاء لن يقدر إلا على كشف جانب محدود من الحقيقة ، قد يخطئ وقد يصيب ، فإن نظرياتهم وأطروحاتهم تبقى محافظة على قيمتها ، وبدون ذلك ، أي بالأخذ بتعميمهم الخاطئ فإن أول من سيذهب ضحيته هم العلماء النرجسيون أنفسهم.

إن علماء الرياضيات والطبيعة ، الأقدر على ضبط التجربة ، يتواضعون ويعلنون مراراً أن ما يكشفون عنه النقاب ليس هو الحقيقة النهائية وأنه " يحتمل " التغيير ، أفلا يتعلم علماء الظواهر الإنسانية التي يصعب ضبطها وإخضاعها للتجربة ، فضيلة التواضع هذه ؟

وبالأمس القريب حاول بعض علماء الآثار أن يطلقوا إحدى صيحاتهم العلمية المقدسة : إنهم قد اكتشفوا ، بالدلائل الآثارية ، حقيقة خطيرة : أن موسى " عليه السلام " ليس من بني إسرائيل ولكنه مصري لحماً ودماً !.

وهم يعتمدون في صيحتهم هذه على عدد محدود من الكشوف الآثارية .. وهذه الكشوف مهما ازدادت وتنوعت فإنها ستظل كشوفاً جزئية ، مبعثرة ، لا تغطي من الحقيقة سوى مساحات منها فحسب ، قد تبلغ خمسة أو عشرة بالمئة ، وتبقى المساحة الأوسع ، التسعون بالمئة فراغاً تاريخياً ، ولن يكون بمقدور الجزئيات أن تحكم على الكليات.

ومن عجب أن يتبنى فرويد في أخريات حياته هذا الرأي ويبني عليه بحثاً كاملاً بعنوان " موسى والتوحيد " ينفي فيه إسرائيلية موسى ويؤكد مصريته استناداً إلى شواهد الآثار ! وتدفعه نرجسيته – كما دفعته في نظرياته النفسية – إلى تأكيد هذه الحقيقة واعتبارها حقاً مطلقاً ، وإذا كانت هذه النظريات – وهي في ميدان اختصاصه – قد تعرضت للاهتزاز والتهافت ، فماذا يكون مصير كشفه فيما هو بعيد عن اختصاصه ؟ وليس من عجب أن يتلقف بعض الباحثين في ديارنا هذه المقولة لكي يضعوها تحت الضوء ويكتبوا عنها وعن خلفياتها التاريخية أبحاثاً ، وهم من أجل تأكيد المقولة ، وتمريرها ، يتعمدون أسلوباً خادعاً يقوم على الإيهام بأن برهانهم يستمد حيثياته من الحقائق الثابتة التي يقدمها ما يصفونه حيناً " بالخبراء " وحيناً " بالثقاة " وحيناً ثالثاً " بعلماء الآثار ".

أيكون الهدف هو محاربة الادعاءات الصهيونية بالتشكيك في نبوات بني إسرائيل أو أنسابهم ، حتى ولو أدى الأمر إلى التشكيك بالحقائق القرآنية ؟ ..

إنه لموقف يرفضه العلم .. أن نجابه دعوة ضالة بالتشكيك بالحقائق التاريخية التي قد تستغلها وتبني عليها .. إن الحقائق التاريخية قيم حيادية فإذا ما حدث وأن استخدمت لتبرير فكر منحرف ، فإن هذا لا يبرر رفضها والتشكيك فيها .. وهو – كذلك – موقف لا أخلاقي ترفضه تعاليم القرآن وسنة رسوله " صلى الله عليه وسلم " أشد الرفض : إننا ونحن ندين الفرق أو الجماعات الدينية المنحرفة نلجأ إلى التشكيك بحقائق دينهم الأصيلة ، وتاريخهم ، ونبواتهم المجاهدة ..

ثم إن اليهود أنفسهم قد سبقوا إلى هذه المهمة الخاطئة فقتلوا أنبياءهم مرتين : مرة في حياتهم وأخرى بتشويه تاريخهم وإغراقه بالدنس والأكدار .. وقدموا لنا هؤلاء الأنبياء الكرام والمحيطين بهم كما لو كانوا مجتمعاً شهوانياً تسوقه الغريزة إلى حيث تشاء .. ولمن يريد التثبت أن يرجع إلى العهد القديم نفسه ..

أم يكون الهدف هو التشكيك بالحقائق القرآنية من خلال إثارة الغبار ضد الادعاءات الصهيونية ؟

وسواء كان الجواب بلا .. أم بنعم .. فإن اليقين المطلق هو ما يقوله القرآن .. كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وتبقى معطيات العلم قابلة للتغير والتقلب ، جزئية ونسبية .. وتبقى الحقيقة النهائية أكبر بكثير من معطيات العلم .. وتبقى كلمات الله (سبحانه وتعالى) محيطة بهذا وذاك .. وما أكثر محاولات التشكيك التي صنعها هذا الرجل أو ذاك ممن يستندون إلى جهود العلماء وهم ليسوا بعلماء .. وذهبت المحاولات بدداً وبقيت كلمات الله !.

ليست المحبة للحق وحدها

يلمح المرء في معطيات الغربيين الفكرية ومواقفهم السياسية والإعلامية نبرة العطف والتقدير والإعجاب ببعض جوانب الإسلام والحياة الإسلامية ، من مثل توجه الإسلام " الديمقراطي " وكراهيته " للعنصرية " ودعوته " لوحدة الإنسانية " !

ومن الخطأ – بطبيعة الحال – وضع البيض كله في سلة واحدة ، كما يقول المثل ، والحكم على هذه المعطيات والمواقف بالمسطرة والفرجال ، واعتبارها جميعاً تصدر عن الكيد لهذا الدين وأهله ، أو محبته وتقديره !

فهي – إذا أردنا الحق – ليست سواء. ودوافعها تتحرك عبر زاوية مقدارها مئة وثمانون درجة .. فيكون هذا الموقف تقييماً وإعجاباً ، ويكون ذاك كيداً وتوظيفاً وانتهازاً للفرص لتحقيق مصلحة أو ضرب خصم !

وقد يكون استدعاء آليات الجرح والتعديل ها هنا فرصة طيبة للتأكد من حسن النوايا وسلامة الحكم لأنها تعين على كشف أوراق القائلين ومدى مصداقيتهم.

ومع الجرح والتعديل لابد من إضاءة اللحظة التاريخية التي صدر فيها الحكم ، فهي الأخرى يمكن أن تمنحنا معياراً صالحاً للعلم والاستنتاج.

لقد قضيت ردحاً طويلاً من الزمن منقباً في بطون الكتابات الغربية بحثاً عن " النص " الإيجابي بحق الإسلام عقيدة وشريعة وعبادة ونبياً وتاريخاً وحضارة ورجالاً ومستقبلاً .. فوقعت على الكثير المدهش الذي تضمنه كتابي " قالوا عن الإسلام ".

كلن هذا كله في الحقيقة – على غزارته وإخلاصه للحق – ليس سوى جانب من الصورة ، ويظل هناك الجانب الآخر.

تلك المعطيات والمواقف التي يلمس المرء فيها ، بوضوح حيناً وبخفاء أحياناً ، انعكاساً لرؤية أو مصلحة غربية اعتبر أصحابها أنفسهم أوصياء على العالم وشعوبه وحضاراته .. وأنهم بتقييمهم لهذا الجانب أو ذاك من الإسلام إنما يعتمدون معاييرهم " الوضعية " التي يعتقدون أنها مطلقة الصواب سواء في خلفياتها الفكرية أم في قدرتها " الذرائعية " على تحقيق المصالح والأهداف ..

وكلما حزب الأمر فيما يسمى بالعالم الديمقراطي وضاقت به السبل قبالة هذا التحدي أو ذاك ، لجأ إلى الإسلام وأهله طالباً المعونة والإسناد ، وأعطت مراكز اتخاذ القرار فيه الإشارة الخضراء للمفكرين والعلماء والباحثين والإعلاميين لكي يقولوا كلمتهم في هذا الجانب أو ذاك من الإسلام والحياة الإسلامية ولكي يستنفروا ما وسعهم الجهد لمجابهة التحدي وتضييق الخناق عليه .. وهم يمضون خطوة أبعد فيدعون إلى عقد الندوات والمؤتمرات التي يدعى إليها مفكرو عالم

الإسلام وباحثوه وأكاديميوه لكي يسهموا في إغناء أنشطة تلك الندوات والمؤتمرات ببحوثهم ومناقشاتهم " وتوصياتهم " في نهاية المطاف !

وكان هؤلاء " المساكين " يهرعون للمشاركة قبل أن يتبينوا الأسباب الحقيقية التي دفعت عواصم الغرب لاستدعائهم وإنفاق الكثير على تذاكرهم وإقامتهم ودعوات الغداء والعشاء التي تحاصرهم من كل مكان !

في يوم ما ، حينما كانت القوات النازية تندفع في أوروبا وتحقق الانتصارات الحاسمة على دول الحلفاء ، استدعي " هؤلاء " أو طلب منهم وهم قاعدون في ديارهم أن يعلنوا غضبهم ضد " العنصرية " وأن يدعموا موقفهم هذا بالبحث في موقف الإسلام من العنصرية ، ورفضه لها جملة وتفصيلاً !

وفي يوم آخر عندما كانت الشيوعية الملحدة تنتشر كالسوس في جغرافية العالم وتهدد مواقع الإيمان المسيحي ومن ورائه المصالح الرأسمالية ، استدعوا ثانية لكي يعلنوا غضبهم ضد المادية والإلحاد ، مدعمين موقفهم هذا بالبحث في مواقف الإسلام من الشيوعية ورفضه لها جملة وتفصيلاً !

وفي الحالتين ، حيث كانت الديمقراطية الغربية مهددة بالاقتلاع من القواعد ، أغري الباحثون والمفكرون والأدباء والأساتذة إياهم بالتباكي على الديمقراطية المضطهدة ، وبتأكيد موقف الإسلام " الديمقراطي " قبالة كل صيغ القسر والدكتاتورية والاستبداد !

وفي الطرف الآخر ، إزاء النخبة المعتمدة من كتاب عالم الإسلام وأساتذته ، كان الغربيون أنفسهم مستشرقين وغير مستشرقين ، مفكرين وإعلاميين وساسة ، وحتى مخابراتيين ، يبذلون جهوداً بحثية استثنائية للكشف عن موقف الإسلام وتقييمه : من الأخوة الإنسانية في مواجهة العنصرية حيناً ، ومن النزوع الإيماني في مواجهة الإلحاد حيناً آخر ، ومن الروح الديمقراطية في مواجهة الدكتاتورية والاستبداد حيناً ثالثاً ..

ولا يستطيع المرء ، مهما أوتي من سلامة نية وحسن طوية أن يسلم بمعطيات كهذه أو يقبل بها على عواهنها.

ثم ما لبثت التجارب والأيام أن كشفت عن زيف اللعبة وعن ذرائعية الدوافع التي صاغتها ودفعت بها إلى الوجود !

لقد انتهى التحدي العرقي (الشوفيني) بهزيمة دول المحور في الحرب الثانية .. واختفى التحدي الشيوعي " الإلحادي " بتفكك الاتحاد السوفياتي وزواله .. ولم يبق ثمة ما يستفز الديمقراطية الغربية ومصالحها المركزية وتفوقها التاريخي ، سوى العدو القديم الجديد : الإسلام والمسلمين اللذين كانا قد استدعيا يوماً للمعاونة والإسناد ، ليس لحماية الحق بذاته ، إنما لتمكين الحق الغربي على وجه التحديد ، من البقاء والاستمرار.

ذلك أن الإيمان الإسلامي نفسه ، عندما أخذ في التجذر والتصعيد والانتشار ، وخيّل لمراكز اتخاذ القرار في عواصم الغرب أنه بهذا ربما يهدد المصلحة الغربية وبطانتها الصليبية ، أو إن شئت رداءها الكهنوتي المدعى ، استنفرت أقلام الغربيين وأصدقائهم في ديار الإسلام ، لشن الحملة التي لا ترحم ضد الصحوة الجديدة التي سميت بالأصولية في أفضل الأحوال ، وبالتشدد والتطرف والإرهاب في معظم الأحوال ، من أجل استعداء كل القوى " الحرة " لمجابهتها وتحجيمها .. وقتلها إذا اقتضى الأمر ، ونسي الغربيون وأصدقاؤهم أنهم كانوا قد شحذوا أقلامهم يوماً لتأكيد عظمة هذا الدين ، ورؤيته الإيمانية النافذة ، وقدرته على مجابهة الطغيان والكفر والإلحاد ..

وعندما وجدت بعض الجماعات الإسلامية في الديمقراطية فرصة مناسبة لتأكيد مطالبها ، وتنزيل برنامجها على واقع الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمعرفية والسلوكية ، وكادت أن تصل ، بل هي قد وصلت فعلاً بقوة الدعم الجماهيري الذي فطر على محبة هذا الدين والالتفاف حول ممثليه الحقيقيين .. لما حدث هذا قامت قيامة الغرب الديمقراطي ومارس لعبته المقلوبة وفق واحدة من أكثر الممارسات قذارة ولا أخلاقية في التاريخ المعاصر .. فمنع الإسلاميين من جني ممارستهم الديمقراطية أو أرغموا على التخلي عن القطاف ..

وفي الحالتين كانت الأقلام التي تباكت – يوماً – على الديمقراطية واستدعت الإسلام لكي يقول كلمته فيها ، قد تحولت على أيدي الغربيين وأصدقائهم في ديار الإسلام ، إلى خناجر وسكاكين لذبح الإسلاميين ، لا لشيء إلا لأن الديمقراطية نفسها أوصلتهم إلى مراكز اتخاذ القرار.

فهل يبقى ثمة أي قدر من الاحترام للأقلام " الحرة " وهي تمارس لعبتها المزدوجة هذه ؟

حول كامو وبقية العمالقة

في نهاية رواية " الغريب " لألبير كامو ، ترجمة لحياته وإنتاجه أوجزها كاتب فرنسي أشار فيها إلى " أن إعلان حرب التحرير الجزائرية عام (١٩٥٤م) كان نكبة شخصية بالنسبة لكامو لأنه كان قد دعا إلى سلم عام "!

ويتساءل المرء : سلم عام بين من ومن ؟

والجواب القاطع كالسكين لا يتجاوز القول بأنه بين القاتل والقتيل أو بين الذئاب والشياه ..

وإذا كان الإنسان العادي يدرك هذا جيداً ، لأنه واضح تماماً ، وهو حصيلة مؤكدة لاستعمار اقتصادي وثقافي شرس استمر أكثر من قرن وربع القرن ، وأعلنت عنه كل الوقائع والمياومات عبر هذا الزمن الطويل ، فكيف بالنسبة لأديب مثقف كالبير كامو .. أديب وجودي أقام معماره الفكري – إذا صح التعبير – على مبدأ الاختيار الحر ؟

ألا يمثل تجاهلاً فاضحاً ، أو على الأقل تناقضاً مكشوفاً مع بداهات فلسفته نفسها ؟

إن الرجل ها هنا ينساق في دعوته إلى " السلم العام " هذا وراء نزوعه الذاتي ، أو بعبارة أكثر دقة : وراء تطمين حاجاته الذاتية في أن يكون هناك سلم عام في الديار التي استعمرها آباؤه ووجد نفسه فيها بحكم الضرورة مستوطناً يسعى لأن يحيا حياته كاملة ، سعيداً ، آمناً ، مطمئناً ، بغض النظر – ابتداءً – عن مشروعية وجوده في الجزائر أو عدمها ! المهم ألا تقلق حياته هناك رصاصة واحدة تطلق ضد فرنسي مغتصب ، أو قطرة دم تسفك فتهدد أمنه الذاتي والاجتماعي بالخطر وتقلق مضجعه. سلم عام في بلد يفترسه الذئاب منذ قرن وربع القرن .. سلم يراد منه أن يقر الجزائريون من خلاله بشرعية الهيمنة الفرنسية على ديارهم تلك التي تجاوزت كل الخطوط المعروفة في قاموس الاستعمار إلى نوع من الدمج القسري للأرض والأمة والعقيدة والثقافة بالوطن الأم.

سلم عام بين من يملك ومن لا يملك .. بين السعداء والتعساء .. وبين المتسلطين والمستعبدين ..

كيف تفوت على عقل كعقل كامو هذه الثنائية القاهرة التي يستحيل معها التحقق بأي قدر من التعايش ، والتي لابد من ضربها بالرصاص إذا أريد للحق أن يرجع إلى أصحابه ، وبالوضع الخاطئ أن يؤول إلى الصواب ، بغض النظر عما قد يسببه ذلك من قلق واستفزاز لأديب وجودي كان يطمح لأن يواصل حياته الآمنة في البلد الذي وطأه أبوه وجده بأحذيتهم التي لا رحمة فيها ؟

أليس هو الترف الفكري ذو الطابع الاستعراضي على حساب شعب كان يكافح للعثور على الخبز في مواجهة الجوع ، ويطمح لاسترداد حياته في مواجهة الإعدام والموت ؟ ألا يذكرنا هذا

بالعبارة التي قيلت على لسان " ماري أنطوانيت " وهي تواجه جوعى باريس : إن لم تجدوا خبزاً فكلوا بسكويتاً !

ليست هذه المرة الأولى التي يقفز فيها الفكر الغربي على التاريخ والجغرافيا ، ويتجاوز الحقائق المؤكدة لكي يقدم رأياً أو يطرح مقولة أو يصمم نظرية ، هي في بدء الأمر ونهايته نوع من التعبد للذات وتطمين المصالح الأدبية والمادية على حساب الآخر ، رغم توظيفه البارع للكلمات والأنساق الفكرية فيما تكاد تضيع معه الحقيقة ولا يبدو في الظاهر المرئي سوى الكفاح المخلص من أجل تحرير الإنسان !

وعبر هذا النفق المعتم بين الواقع المؤكد ، والمثال الخادع الذي تصنعه الكلمات ، تمّ إغراء أجيال بكاملها من العرب أنفسهم الذين استهوتهم الوجودية عبر عقود عديدة في منتصف هذا القرن ، ورأوا في (سارتر) و(كامو) وبقية الرهط الوجودي ، أصناماً لامعة أعلنوا خضوعهم لها ، وتعبدهم إياها.

وكان (سارتر) يحمل في إحدى يديه قلماً يدافع به عن الحرية ، بينما امتدت اليد الأخرى لكي تشد على السكين الصهيونية وهي تغتال الأرض الفلسطينية وتذبح شعبها من الوريد إلى الوريد ..

وها هو ذا (كامو) يدعو في لحظة الخلاص الأخيرة إلى سلم عام عله يوقف المحاولة الجزائرية لاسترداد الأرض والشرف والحرية ، ويجمد عقارب الزمن على الحالة الأمنية المستقرة التي أتاحت له ولزملائه أن يقطفوا الثمار التي زرعها الأب والجد عبر مئة سنة من التضييع والابتزاز والطمس على الهوية.

ليس غريباً أن يُمنح (كامو) في نهاية الأمر ، جائزة (نوبل) بعد أن مارس طويلاً باسم الوجودية وحرية الاختيار ، اللعب على اليمين واليسار ، وسعى إلى تقويض الفكر الديني ، ودعا إلى الإلحاد .. ذلك أنه نفذ بالحرف ما تريده (بروتوكولات) صهيون.

ولكن الغريب أن يظل بريق الرجل يخطف عقول شبابنا لعقود طويلة من الزمن ، رغم أن موقفه إزاء حرب التحرير كان بمثابة اختيار الاستمرار الاستعماري الفرنسي للجزائر ، بغض النظر عن كل الثوابت ، والمبادئ والحقوق ، وبعيداً تماماً عن معطيات الجغرافيا والحضارة والتاريخ.

ترى .. كم من أمثال (كامو) قدروا على ابتزاز أبنائنا ومثقفينا منذ بدايات الصدمة الاستعمارية وحتى اللحظات الراهنة ؟ كثيرون جداً .. والقائمة طويلة ، ولكن المؤسف أن أمة لا تفرق بين أصدقائها وخصومها ، تطمح للتحرر من قبضة الآخر ، وهي قد ضيعت – ابتداءً – نقطة الانطلاق صوب الهدف المحدد ، الصحيح.

منطق الحواة

عرفت كثيراً من الملاحدة والعلمانيين ، وأنصافهم وأرباعهم .. يحملون في دمهم جرثومة الكراهية للإسلام وقيمه وثوابته .. لكل ما يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد .. مفردات البغضاء معلقة في شفاهم كجراب السم المعلقة تحت أنياب العقارب والحيات .. يرمون بها الإسلام ودعاته لسبب أو لغير ما سبب. يخيل إليك أحياناً أنهم يندفعون دونما إرادة مسبقة لممارسة القذف الرخيص الذي اعتادوه ، وبمجانية لا يكاد يعرفها حتى الفتوة والبلطجية والقبضايات في أحياء المدن العتيقة .. وأحياناً أخرى يقتنع المرء بأنهم قد مارسوا مع أنفسهم ، أو مورس معهم ، من هذه الجهة أو تلك ، واحدة من أبشع عمليات غسيل المخ التي تستهدف مسخ الإنسان وتقليم أظافره الفكرية إذا صح التعبير ! وكأنهم بهذا قد لقنوا عبارات وكليشيهات محددة يظلون يلوكونها ويكررونها ويقذفون بها الإسلام وقيمه ودعاته ، وصولاً إلى الحالة التي يصدقون فيها تماماً صواب ما يقولون ، فيصير عندهم عقيدة موغلة حتى النخاع.

ولذلك فهم قد يقولون ويكتبون معاني واستنتاجات ، ويطرحون رؤى وأفكاراً لا يكاد يستسيغها حتى الصبيان والمتخلفون عقلياً ، رغم أنهم بلغوا في دراستهم مرتقى صعباً وحصلوا على أعلى الشهادات .. لكنها ، بقوة التكرار التي تغذيها الكراهية وتشحنها البغضاء تصير قيماً تستحق القول ، بل إنها قد تغدو رموزاً ومقدّسات !

من بين هؤلاء ، وهم كثيرون " على قفا من يشيل " كما يقول المصريون ، أذكر أستاذاً جامعياً (كبيراً) !! له مؤلفات عديدة في مجال تخصصه ، وله مع شهادته وتخصصه ، صولات وجولات ضد الإسلام ودعاته ، وقد يكون لهذا مبرراته ، لخلاف في الرأي أو قناعة مضادة ، لكن أن تجد في بعض بحوثه " العلمية " ، إذا جازت التسمية ، سيلاً من الشتائم ضد الإسلاميين واتهامهم بالأصولية والإرهاب ، واستعداء الشرطة والسلطات الرسمية عليهم لوقفهم عند حدهم ، بنبرة مترعة بالكراهية والخوف والإثارة ، بحيث أنها تكاد تصير صراخاً وليس مجرد بحث يراد له أن يناقش في ندوة فكرية أو مؤتمر علمي !

أن تجد هذا ، بل أكثر من هذا : اتهاماً مجانياً لا يدعمه أي برهان على الإطلاق بعمالة كل الإسلاميين في العالم وارتباطهم بالأجنبي ، ومع هذا الاتهام دعوة حارة جداً لتحجيمهم ، وشلهم عن العمل بل نفيهم من الحياة إذا اقتضى الأمر.

أن تجد هذا وذاك فإنك ستعرف تماماً أن الرجل ، ومثله كثيرون ، كثيرون جداً ، لا يتكلم من ذات نفسه ، ولا يكتب متحرراً من الضغوط ، ممحضاً لمعطيات العقل الصرف ، وإنما مدفوعاً بعوامل وخلفيات ومؤثرات مكرورة أصبحت بسبب التكرار المتواصل تملك سلطة قاهرة

على عقل هذا النمط من الناس وجملتهم العصبية ، تدفعهم شاءوا أم أبوا إلى مواقع بعيدة بالكلية عن كل ما يدعو إلى القبول بل الاحترام.

حكى لي رجل لا يتهم صدقه أنه سمع " أحدهم " يتحدث بعصبية عن التجربة السودانية ، ويكيل لها الاتهامات ، ويصمها هي الأخرى بالعمالة !!

وكانت الشتائم تتدفق على لسانه كلعب الأطفال التي شُدّ " زنبركها " فأصبحت تتحرك ميكانيكياً وهي تهتز ذات اليمين وذات الشمال. وعندما سئل عن خدمات السكك الحديدية البطيئة في السودان .. هل تحسنت بعد قيام ثورة الإنقاذ ؟ أجاب وهو يمط شفتيه : بل إنها أسوأ .. أسوأ بكثير.

فلما سأل عنه رجل يجلس إلى جواره قال : إنه مسؤول كبير في أحد الأحزاب التي كنستها ثورة الإنقاذ !

ها هنا إذن بيت قصيد آخر للكراهية والبغضاء ، فضلاً عن التأثيرات الثقافية والتلقين الذي يبلغ حد المسخ الفكري .. إنها المصلحة التي إذا ما مست بأذى دفعت صاحبها دفعاً إلى مواقع الخصومة والشحناء ..

ترى كم من أمثال هذا الأستاذ والمؤلف المعروف ، ينتشرون كالدمامل المتقيحة في دوائرنا العلمية والثقافية ، يحملون السم نفسه ضد كل ما هو إسلامي ابتداءً ؟!

إنها لعبة الدجالين والحواة الذي يقلبون الأبيض أسوداً والأسود أبيضاً ، قبالة المغفلين والدهماء بصراخهم المحموم : بص .. شوف .. الحاوي يعمل إيه "!.

والآن ، بعد إذ تبين تماماً لكل ذي عينين تريان بوضوح ، دونما أي قدر من القذى أو الغبش ، أن ما يسموّنهم بالأصوليين هو الهدف الأول في العالم لإطلاق النار عليه من قبل دوائر الاستعمار الجديد والصهيونية ، وأن قيادة العالم الجديد الذي تنفرد به الولايات المتحدة في اللحظات الراهنة ومعها ومن ورائها الصهيونية وإسرائيل ، تضع قبالتها مباشرة ، وعلى خط المجابهة الأولى : من تدعوهم الأصوليين ، لكفّهم عن العمل ، وسحقهم إذا اقتضى الأمر.

الآن .. هل يستطيع الحواة والدجالون ممارسة لعبتهم الاستعراضية والضحك على أذقان الدهماء والمغفلين ؟ أم أن اللعبة ، بسبب خلفياتها النفسية والمصلحية ستتجاوز كل مقولات الجغرافية والتاريخ وتمضي لكي تمارس دجلها وكذبها بعيداً عن كل الوقائع والمعطيات ؟

طوباوية الماركسية

لا نأتي بجديد إذا قنا أن النظرية الماركسية بدأت منذ سني تطبيقها الأولى تشهد تحويراً وتغييراً وتبديلاً في هذا الجانب أو ذاك من بنيانها الأيديولوجي من أجل جعلها أكثر ملاءمة للواقع ، وأقدر على النزول من سماء النظريات والأحلام إلى أرض العمل والآلام.

فمنذ قيام لينين – بعد سنوات قليلة من ثورة تشرين (١٩١٧م) – بإعادة تمليك الأرض من أجل إنقاذ روسيا من كارثة زراعية محققة ، وانتهاءً بإعادة نظام الادخار الشخصي والتوريث وغيرهما ، مروراً بإجراءات التحفيز المستمرة للوازع الذاتي عن طريق المزيد من التمايز في الأجور ..

ومنذ قيام ستالين بإعادة إحياء الروح الوطنية والأرثوذكسية الروسية بمواجهة تحديات النازية ، وانتهاءً بالانفتاح الكامل على الغرب وزعيمته أمريكا فيما يسمى بسياسة الانفراج .. مروراً بتضاؤل الاهتمام بمسألة الثورة العالمية ، يقابله تزايد مستمر باتجاه إنشاء العلاقات الدبلوماسية الودية مع شتى نظم العالم ، بغض النظر عن بعدها أو قربها من الاشتراكية.

منذ ذلك الحين وحتى الآن ، أرغمت الماركسية في أكثر من جانب على أن تتقبل المزيد من التغيير والتحوير والتبديل من أجل أن تكون أكثر " واقعية " !! ، حتى أن هذا الأسلوب " المرن " في التعامل مع النظرية اعتمد سلاحاً مضاداً يتراشق به المتصارعون في الساحة الشيوعية نفسها بين صيني وسوفياتي ويوغسلافي وألباني .. باسم " التحريفية ". ولا يدري المرء ما الذي ستشهده الماركسية في مستقبل السنين من تغييرات أخرى لا ريب في أنها ستجيئ أكبر حجماً وأكثر واقعية من كل ما سبقها من محاولات بحيث أننا – على سبيل المثال – صرنا نجد إمبراطوراً مصنوعاً على عين أمريكا كشاه إيران ، يزور موسكو فيستقبل هناك بالحفاوة والإكرام ، ويدعو – بدوره – كوسجين ليزور طهران حيث ترفرف رايات الدولتين الجارتين !

إنها الضرورات الدبلوماسية " كما يقولون " ولكن من قال بأن هذه الضرورات ليست من ضغوط الواقعية المتزايدة ؟ إن الصين الشعبية نفسها تفخر اليوم بدخولها هيئة الأمم المتحدة وصداقتها للولايات المتحدة الأمريكية ، وتحزن لسقوط نيكسون في أعقاب فضيحة " ووترجيت " خشية أن يعقبه على الرئاسة زعيم لا يرعى الصداقة بين البلدين حق رعايتها.

هل نستطيع أن نقول – في ضوء هذا كله – إن كارل ماركس الذي اتهم محاولات الاشتراكيين الفرنسيين والإنجليز " سان سيمون ، لوي بلان ، روبرت أوين وغيرهم " بالطوباوية " المثالية " ، أصبحت نظريته نفسها عرضة للاتهام بالصفة نفسها ما دامت لا تستطيع أن تلامس أرض الواقع إلا بعد عشرات ومئات من محاولات التبديل والتغيير ؟

إن التخطيط لمدينة فاضلة كما فعل الفارابي ، أو جمهورية مثالية كما فعل أفلاطون ، أو مدينة مقدسة كما فعل أوغسطين ، أو عالم ساحر كما فعل توماس مور .. أمر يسير يمكن أن يتم بتوفر عوامل الذكاء والطموح وقوة الخيال .. لكن المشكلة ليست في التخطيط أو الحلم ، بقدر ما هي في " إمكانية التنفيذ ".

وتلك هي المعادلة الصعبة التي سعى الإسلام إلى حلها بشكل يثير الدهشة والإعجاب !.

رجعية الماركسية

كثيراً ما أتساءل : ترى لو أن ماركس صاحب النبوءة " العلمية " المعروفة فتح عينيه في هذا العصر وأطلع على حقيقتين فحسب مما تمخضت عنه حركة العلوم البشرية المتطورة التي لا تقف عند هدف إلا لكي تتجاوزه إلى أهداف أبعد وأصعب ، أكان سيصّر على علمية نظريته و" برجوازية " العلم البشري ؟ أم أنه سيتواضع – باسم العلم الذي لبس مسوحه – ويعلن عن أن نظريته ما كانت إلا انعكاساً لظروف اجتماعية وعلمية لقرن غير هذا القرن ، ولزمان غير هذا الزمان ، وان ادعاء استمراريتها وعلميتها اللا نهائية هو محض جهالة ترتكب باسم العلم ، وغرور يمارس باسم الإنسانية.

لقد تقدمت العلوم الطبيعية خلال القرن الأخير تقدماً مذهلاً واستطاعت أن تكتشف – عبر جهود سلسلة طويلة من العلماء – خرافة القول بالأساس المادي لبنية الكون والطبيعة ، وأن الحركة أو الطاقة ، هي هذا الوجود الأساسي خلف العالم المنظور ، وهي التي تتحكم عن طريق مساراتها وسرعاتها المتفاوتة بالشكل المادي الخارجي للأشياء.

ماذا سيقول ماركس الذي بنى نظريته " المادية " وفق أشد المذاهب الفلسفية تأكيداً على البنية الصلبة للكون ، وعلى الأساس الجزيئي للطبيعة والأشياء ؟ وأيهما أجدر بالثقة : فيلسوف كماركس يصدر حكمه النهائي على الكون بمجرد بحث فلسفي نظري فيه ، أم عالم طبيعي تجريبي كهايزنبرج الذي توصل بعد سلسلة طويلة من الأبحاث العلمية المختبرية إلى القول بأنه " في العلم لا يوجد شيء اسمه حقيقة ، العلم لا يستطيع أن يعرف حقيقة أي شيء ، إنه يعرف كيف يتصرف ذلك الشيء في ظروف معينة ، ويستطيع أن يكشف علاقته مع غيره من الأشياء، ويحسبها ، ولكنه لا يستطيع أن يعرف ما هو .. العلم يدرك كميات ولكنه لا يدرك ماهيات ، العلم لا يمكنه أن يعرف ما هو الضوء ولا ما هو الإلكترون ، وحينما يقول إن الأشعة الضوئية هي موجات كهربائية مغناطيسية أو فوتونات ، فإنه يحيل الألغاز إلى أخرى ، فما هي الموجات الكهربائية المغناطيسية ؟ حركة في الأثير ؟ وما الحركة وما الأثير ؟ وما الفوتونات ؟ حزم من الطاقة ؟ وما الطاقة " ![1].

هذه واحدة ..

وفي مقابل هذا التقدم في ميادين العلوم الصرفة ، جرى تطور لا يقل عنه خطورة وهو مرتبط به بالضرورة ، في ساحة العلوم التطبيقية ، تغيرت بموجبه علاقات العمل والإنتاج تغيراً

---

(١) عن كتاب مصطفى محمود : آينشتين والنسبية.

جذرياً ، وانعكس هذا على بنية العلاقات الاجتماعية فوجهها وجهة جديدة ، ستزداد زاوية انحرافها بمرور الزمن والتطور التقني ، فتجعلها تختلف بالكلية عن تلك التي بنى عليها ماركس نظريته.

إن الآلة الدقيقة ، المعقدة ، المركزة الإنتاج ، أخذت تحل محل اليد البشرية العاملة ، والوحدة الإنتاجية التي كانت في القرن الماضي ومطالع القرن الأخير بحاجة إلى ألف عامل ، أصبحت – اعتماداً على التقنيات الحديثة – قديرة على أن تستغني عن تسعمئة رجل منهم على أقل تقدير ، وستزداد في المستقبل مقدرة على الاستغناء باعتمادها على آليات أكثر فاعلية.

وجاء ابتكار العقل الالكتروني ضربة أخرى في صميم العلاقات الإنتاجية الكلاسيكية ، مكنت المصانع ، سواء في الدول الرأسمالية أم الاشتراكية ، من المزيد من السيطرة التقنية التي سيستغنى من خلالها عن المزيد من العقول والأيدي البشرية.

ليس هذا فحسب ، بل – وهذا هو الأكثر أهمية – أن العمال الذين سيتقرر بقاؤهم في المصانع هم – بالضرورة – غير أولئك العمال الكادحين ، الأميين ، الفقراء ، المرضى ، الذين كان الرأسماليون يستنزفونهم حتى آخر قطرة من دمائهم ، ولا يتركونهم إلا قشوراً ، والذين كانت ساعات العمل الكثيرة المرهقة تسحقهم سحقاً ، وتدفعهم إلى ضرورة التغيير الثوري والانقلاب الشامل على أتعس وضع اجتماعي تصاب به طبقة من الناس على مدى العصور.

إنهم الآن ، في العصر التقني ، أشبه بالموظفين والإداريين والخبراء والصناعيين الفنيين والمهندسين منهم بالعمال الكادحين ، وأن تكوينهم الفكري والنفسي والاجتماعي يختلف اختلافاً نوعياً عن تكوين أسلافهم ، فهم لن يصلوا إلى هذه المرحلة قبل أن يجتازوا مراحل دراسية طويلة، وهم بعد وصولهم يتقاضون أجوراً عالية تتناسب وخبراتهم ..

وهم يعملون في ظروف عمل تختلف أساساً عن الظروف العتيقة : ساعات عمل أقل ، وجهد جسدي ونفسي أقل بكثير .. الأمر الذي يتيح لهم فرصاً أكثر وأوسع للتمتع بالحياة وتجاوز الكدح الدائم مما لم يتيسر في الماضي عشر معشاره .. ثم هم فوق هذا كله ، أو بسبب من هذا كله ، لا يحاصرهم الإحساس الطبقي القديم إزاء أصحاب المعمل لأنهم أشبه بالشركاء منهم بالمستأجرين ، والمواطنين منهم بالعمال المستخدمين.

ونحن لم نسمع يوماً عن إحساس طبقي يسود موظفي مؤسسة ما ضد مدرائها ورؤسائها ، ولا سمعنا عن ثورة تقوم بها طبقة " الموظفين " حتى في أشد الدول بيروقراطية.

ولن نطيل الحديث عن هذا التغير الذي تمخض عن التقدم التقني فقد أشبع بحثاً ، ونرجع إلى السؤال الذي افترضناه أول مرة : ماذا سيكون موقف (النبي) (العالم) لو قدر له أن يفتح عينيه على عصرنا الراهن هذا ورأى هاتين الحقيقتين فحسب ، ضمن حقائق أخرى ومتغيرات أساسية لا تقل عنها خطورة ؟!

ترى ما الذي سيحدث بعد عقود من الزمن ؟ ألا يمكننا الافتراض ونحن مطمئنون بأن المتغيرات العلمية والتقنية ، فضلاً عن السياسية والاستراتيجية ستبلغ درجة هائلة من التغاير النوعي عن ظروف القرن التاسع عشر الأمر الذي ستغدو معه الماركسية حركة رجعية لا تقدر على الاستمرار ؟

ضرورة ملحة

بدأت المكتبة الإسلامية منذ أكثر من عقدين من الزمن تستقبل عدداً من الدراسات والأبحاث التي تتناول بالعرض والتحليل والنقد والتسديد بعض الجوانب (الحركية) للفكر والعمل الإسلاميين ، وهي جهود تستحق التقدير حقاً ، وتغطي حاجة مزدوجة تتمثل بحماية (أكاديمية) لجوانب من تراث الحركة من جهة ، وبالبرمجة المستقبلية على ضوء معاينة الوقائع سلباً وإيجاباً من جهة أخرى ..

وبالرغم من ذلك فإن هنالك مطلباً آخر لم يتحقق بشكل كلي شامل حتى الآن. ذلك هو كتابة تاريخ الحركة (أو الحركات) الإسلامية الحديثة والمعاصرة ، أي تلك التي تغطي القرن الذي نعيشه منذ بدايته وحتى عقديه الأخيرين اللذين يوشكان على الانتهاء ..

نعم ، هناك معطيات غنية ، متمثلة بدراسات تحليلية أو عروض وثائقية صرفة أو تراجم ذاتية ومذكرات ، يستطيع المسلم المعاصر أن يضع يده عليها ، في الدوريات أو الكتب المستقلة، ولكنها معطيات تتميز بالجزئية ، وبعدم التغطية الشمولية للأحداث الحركية على مدى القرن كله .. والذي نحتاجه اليوم بالذات ، لأسباب سنتعرض لها بعد قليل ، هو الدراسة الشمولية التي لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها ، ومع الإحصاء إعمال للقدرات العقلية والإمكانات المنهجية والمعطيات العلمية ، لاستخلاص تصور شامل لما كانت عليه الحركة ، ولنسمها كذلك، بما أنها ، على اختلاف أجنحتها وتنظيماتها من مشرق عالم الإسلام حتى مغربه ، تتدفق لكي تصب في المجرى الواحد وترفده بالماء الواحد ..

ومن خلال هذا التصور الشامل (لما حدث فعلاً) يمكن أن يخطط لبرنامج عمل يعرف كيف يفيد من الخبرة الماضية ويبني عليها ، متجاوزاً أخطاءها وانحرافاتها – قدر الإمكان – مكافحاً من أجل أن يكون أكثر صواباً ..

إن الحاجة ملحة لتنفيذ مشروع حيوي كهذا قد يضطلع به عدد من الباحثين يتفقون على خطة عمل موحدة ، وقد تقوم به لجان شتى موزعة على جغرافية العالم الإسلامي بالعدل ، لكي تكون السيطرة على المادة التاريخية أكثر ، ويكون العطاء أبعد غوراً ..

والمبررات التي تضفي صفة (الضرورة) على تنفيذ المشروع كثيرة ، منها ، وبتركيز بالغ:

أولاً : كثرة كتابات الباحثين غير الإسلاميين ، في الشرق والغرب ، وما تتعرض له الحقائق والوقائع التي يتعاملون معها من تزييف أو اقتسار أو اقتطاع أو تشويه .. وما تتسم به استنتاجاتهم وتحليلاتهم من خطأ وتعصب وقصور قد تصل حد الروح الاستعدائية ، والحملات الصحافية الرخيصة .. ربما بسبب الجهل وعدم استكمال الوثائق والمعطيات ، وربما بسبب إصرار مسبق على تحطيم سمعة الحركة الإسلامية لتغطية دافع مذهبي أو سياسي .. أو لقبض

الثمن ، حتى ، من هذه الجهة أو تلك من اللواتي يهمهن تدمير سمعة الحركة الإسلامية في العالم.

ثانياً : وجود عدد من رواد الحركة الإسلامية المعاصرة على قيد الحياة .. إنهم شهود عيان على ما كان يجري فعلاً مما صنعوه بأيديهم أو رأوه بأعينهم .. والزمن ماضٍ والموت لا يعرف أحداً .. وهؤلاء الرواد سلعة ثمينة في سوق البحث والدراسة وضياعها أمر محتوم .. فلابد من الاستباق مع الزمن لاستنطاق الشهود قبل أن يغيبوا فلا يسمع لهم صوت ..

ثالثاً : حاجة العالم المعاصر ، والوطن الإسلامي على وجه الخصوص ، بعد نكسات المذاهب الوضعية ، إلى حركة جديدة تستشرف ملامحها ، وتبني قواعدها ، وترسم آفاق تصورها من خلال نقد الحركة في مراحلها السابقة ، وتبين ايجابياتها وسلبياتها .. وقد تقود دراسات كهذه إلى تنفيذ ، أو الشروع في تنفيذ ، ما حلم به الرواد أو السابقون ، وما كان في الوقت نفسه مأساتهم : تجاوز التمزق التنظيمي والبعثرة الحركية صوب حركة واحدة قد تفيد من التركيب (الفدرالي) الحر المعمول به في عالم السياسة ، لكي تكون أكثر ديناميكية وقدرة على الاستجابة للتحديات والمتغيرات الجغرافية.

رابعاً : تحقيق هدف علمي (أكاديمي) صرف ، بحفظ وحماية جانب مهم من الحقيقة التاريخية المعاصرة ، قبل تعرض أقسام مهمة منها للضياع ، لهذا السبب أو ذاك ، وما أكثر الأسباب ..

هذا بصدد أهم المبررات .. أما المنهج فثمة ملاحظات أخرى نعرض لها بإيجاز شديد هي الأخرى :

أولاً : يقسم الوطن الإسلامي إلى مناطق ، أو أقاليم جغرافية ، لأغراض البحث ، ويستحسن أن يتم التقسيم على أساس موضوعي ، بغض النظر عن مدى الامتداد الجغرافي ، كأن يأخذ بالتوزيع التالي : (١) جزيرة العرب (٢) العراق (٣) سوريا ولبنان والأردن وفلسطين (٤) مصر والسودان (٥) ليبيا والمغرب (٦) شرقي إفريقيا (٧) غربي إفريقيا (٨) تركيا (٩) إيران (١٠) الأفغان والباكستان والهند (١١) جنوب شرق آسيا (١٢) أندونيسيا (١٣) المستعمرات السوفيتية (١٤) شرقي أوروبا (١٥) أقاليم الأقليات الإسلامية في مختلف القارات.

ثانياً : تشكل لجان عمل في كل منطقة أو إقليم ، ومن المستحسن أن تضم عضواً متخصصاً في التاريخ الحديث والمعاصر ، وآخر حركياً على إلمام دقيق بمجريات الوقائع التاريخية للعمل الإسلامي في الإقليم ، وثالثاً إعلامياً. فضلاً عن الأعضاء الآخرين ..

ثالثاً : ترسم خطوط عريضة لمنهج كتابة موحد تعمل كافة اللجان على هديه ، ومن أهم ملامح هذا المنهج ، كما يتوجب أن تكون ، هي :

أ – عدم الوقوف عند التحديات والضغوط الخارجية فحسب ، والتأكيد على البناء والإنجاز الداخلي.

ب – اعتماد أكبر قدر ممكن من الوثائق ، وتجنب إصدار أحكام تخمينية قدر الإمكان.

ج – اعتماد أسلوب علمي مركز وواضح وسليم في العرض.

د – يستهدى بدراسة نقدية شاملة لمصادر ومراجع ودوريات البحث لمعرفة مدى الاعتماد على كل منها ..

رابعاً : قد لا تعين الظروف الراهنة في هذا الإقليم أو ذاك ، أو في هذه الدولة أو تلك ، ولأسباب عقيدية أو سياسية ، أو مالية أو فنية صرفة ، على تشكيل لجان عمل من عدد من الأعضاء .. وحينذاك يمكن الاكتفاء بباحث واحد أو باحثين. وإذا تعذر الأمر ، فثمة من يقدر على تنفيذ المهمة من الأقاليم الأخرى بشكل أو آخر ، رغم ما يستتبعه ذلك من جهد مضاعف في جمع الوقائع ، ومن نتائج تحليلية قد تجانب الدقة في بعض الأحيان .. ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، ولابد مما ليس منه بد ..

إن المشروع – والحق يقال – ضرورة آنية ملزمة ، وأي تسويف في البدء بتدارسه والإعداد لتنفيذه يعرضنا لخسائر أكثر ، إن على مستوى الرصد العلمي أو على مستوى الوعي الحركي .. فلنتوكل على الله ..

عندما يغدو التراث مسرحاً للعب الصغار .. !!

هكذا يغدو التراث مسرحاً للعب الصغار !!

إنها مودة العقدين الأخيرين .. أن يدسّ كل واحد من المتعلمين الجدد .. أميين ومتعلمين وأنصاف مثقفين .. يدسون أنوفهم في تراثنا العظيم. وبعد خبط عشوائي فيه ، يخرجون وهم ينفضون ريشهم من أوراقه ، وغباره المتراكم .. ويقولون معجبين : هذا نريده وهذا لا نريده .. وإذا سألتهم : لماذا ؟ أجابوك وهم لا يزالون ينتفضون : هذا يصلح لعصرنا الراهن وهذا لا يصلح .. وتحسب ما يصلح مما لا يصلح فإذا به لا يعدو أن يكون واحداً بالألف .. والقسم الأعظم من التراث أيها الـ .. يجيبونك : نحكم بإعدامه !!

وقد يكون مما يصدر الحكم بإعدامه تسعون بالمئة من أدبنا لأنه مكتوب على ورق أصفر .. وقد يكون ثمانون بالمئة من معطياتنا التاريخية لأنها لم تلتزم المنهج الموضوعي " الحديث "!! في البحث .. وقد يكون – أقسم لكم – مئة بالمئة من فقهنا لأنه عتيق لا يصلح للقرن العشرين..

التقيت في حياتي الجامعية بعشرات من الطلبة ، دفعتهم مودة العقدين الأخيرين – فيما يسمى بالانتقاء من التراث – إلى إدخال رؤوسهم في كتبه وأكداسه ، ثم إخراجها بعد ساعة أو ساعتين – لا أكثر – لكي يقولوا : نريد هذا ولا نريد ذاك ..

وأتذكرهم جيداً .. لا يعرفون التسلسل الزمني للخلفاء الراشدين ولا ما هو العصر المكي والعصر المدني .. ولا في أي سنة هاجر رسولنا عليه السلام إلى المدينة ، ولماذا ؟ ولا يعرفون – كذلك – من هو طه حسين أو الرافعي أو العقاد .. أما أسماء هيغل وتوينبي وسارتر وتولستوي وديكنز وهمنغواي فإنها ألغاز ومعميات .. ومع ذلك يجدون أنفسهم مدفوعين بهوس العقدين الأخيرين ، إلى التراث لكي يقولوا كلمتهم هم أيضاً .. فيه ..

وويل لأمة يبلغ بها العبث بتاريخها وأمجادها ومآثرها التي انحنى لها الكبار في الشرق والغرب .. أن تترك (صغارها) يحكمون في تراثها .. أسمعتم عن مأساة تدعى الانتحار الثقافي؟ إذن فها هي ذي المأساة ..

وأمرّ من هذا وأنكى .. أن تحسب عقيدتنا الحركية العظيمة التي أراد لها الله (سبحانه وتعالى) أن تكون دين البشرية الأخير ، ومنهجها الدائم ، واستراتيجيتها الأبدية في العالم .. أن تحسب على خط التراث .. وتعامل كما يعامل التراث .. وتحكم أقسام كبيرة منها بالإعدام .. أو الأشغال الشاقة المؤبدة .. كما حكمت أقسام واسعة من التراث .. وعلى يد من يكون الحكم ؟ لا قضاة .. ولا مدعون ولا حتى على يد شهود دفاع ، إنما يصدر الحكم من قبل الخصوم .. وشهود الاتهام .. ومن يكون هؤلاء ؟

طلبة متعالمون وأساتذة جامعيون لا يعرفون من الثقافة الجادة إلا ألف بائها .. ولكن النظم الأكاديمية العتيقة – التي تحتاج إلى إصلاح جذري – حملتهم إلى سدة الماجستير والدكتوراه. وكم صعد إلى هذه السدة التي أخذت تئنّ من وقع الأقدام ؟ ولكم أن تتأكدوا بفحص عينات ممن تسلق إلى هناك .. وهاكم اثنين منهم :

كتب أحدهم : إن في القرآن جوانب غيبية يجب أن تستأصل لأنها لا تنسجم ومعطيات العلم الحديث ، وإلا فما معنى أن تسهم الملائكة في معركة بدر ؟

يرفض الآخر نشر مقاله في المجلة الجامعية .. ؟ لماذا ؟

لأن في هذا الرأي – على وجاهته – مساساً بالتراث ؟!

وآيات للمجابهة .. والصمود

بكلمات قلائل .. لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، يضع القرآن لمسات مؤثرة حتى الأعماق .. ويرسم مواقف فاصلة تمنح الإنسان المسلم قدرة نفسية وذهنية وروحية كبيرة على مجابهة الطغيان ، والصمود أمام بطشه وإغرائه ، ورفع السلاح بوجهه مهما عظم الطغيان وامتدت أقطار سطوته وجبروته ..

فهنالك ، وراء ذلك كله ، ومن فوقه .. الله .. خالق الطواغيت والأصنام .. وهازمها كذلك .. الله .. وكفى ..

ونقرأ **(قل : الله ، ثم ذرهم !!)**[1] ونقرأ **(ويخوفونك بالذين من دونه !!)**[2] ونقرأ **(يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ..)**[3].

في الآية الأولى يعلمنا القرآن الكريم كيف يكون الرفض .. والاستعلاء .. إن الانتماء إلى صف الله حقيقة مؤثرة كبيرة ، لو استطعنا فقط أن نتمعّن بأذهاننا وأرواحنا ، أبعادها الشاملة ، وثقلها وامتدادها ، وحينذاك ، حين يتذكر المسلم أنه مع الله ، بكل ما في الكلمة من معنى ، فإنه سيجد نفسه متمركزاً في قمة العالم .. ينظر إلى الأصنام والطواغيت نظرة ازدراء واحتقار .. وينظر إلى تابعيهم وعبّادهم نظرة إشفاق ورثاء ، وسيمكنه هذا الاستعلاء .. هذا الانشقاق عن الشر والضلال .. من النزول ثانية إلى قلب العالم ، مجاهداً من طراز أول ، لتغيير العالم.

ينزل وهو متسلح بشعار آخر ، هو تلك الآية الثانية التي تعرف كيف تنتزع الخوف من قلوب المؤمنين بتذكيرهم بأن كل الذين يعملون ضد (الإيمان) في العالم هم دون الله ، من ثم فإن جهادهم هيّن لأن الذي يعمل مع من هو فوق لا يخاف الذين يتحركون في أسفل العالم ، حشرات يأكل بعضها بعضاً وكواسر غاب يفترس بعضها بعضاً .. لكنها لن تخيف المؤمنين أو توقف تحركهم ، لأنها دائماً هناك .. في الأسفل. بينما يتحرك المؤمنون تحت لواء الله ، الذي تغطي قوته وقدرته ومشيئته .. أقطار السموات والأرض !!

ويتسلح الطغيان أحياناً بالمبادئ والمذاهب والنظريات .. يريد أن يوحي للناس بأنه يتحرك على ضوء فلسفة هي الحق بعينه وما وراءه الباطل .. وأن مجابهة الزعامة هي ، في نهاية التحليل ، رفض للحق الذي جاءت لتنفيذه في العالم .. والرافضون للحق المقاومون لتحققه يجب أن يسحقوا من أجل صيرورة التاريخ نحو الأحسن والأفضل ..

---

(١) (سورة الأنعام ، الآية ٩١).

(٢) (سورة الزمر ، الآية ٣٦).

(٣) (سورة الروم ، الآية ٧).

وقد ينخدع هذا الإنسان ، أو ذاك .. وقد تفتن هذه الجماعة أو تلك .. وقد تنساق أمم بكاملها وراء هذا الطغيان المبطن بسلاح الفكر والفلسفة والمذهبية .. فيزداد شراسة وعناداً واستكباراً في الأرض ..

إلا أن القرآن يعلم المسلم ، وهو في قلب المعركة ، حقيقة على درجة كبيرة من الخطورة ، وهي أن كل فلسفات العالم .. كل مبادئه الوضعية ، ونظرياته المصنوعة وقوانينه وتشريعاته التي يضعها الطاغوت لاستعباد الناس .. إنما هي علم ظاهري زائف لا يتجاوز سطح الأشياء والموجودات .. وما وراء ذلك جهل مطبق بحقائق الأمور وجواهر الأشياء .. إن المسلم وحده هو الذي يحمل عقيدة المعرفة الحقة عن العالم لأنها صادرة عن الله (سبحانه وتعالى) ..

هذا الإحساس الحاسم الخطير .. لا يمنح المسلم ثقة كبرى وهو يقاتل جاهلية الفكر والمذاهب .. فحسب ، ولكنه يمنحه – أيضاً – سلاحاً ماضياً يهز به عروش فراعنة هذه الجاهلية .. ومنطقاً مقنعاً يفك به الارتباط بين القيادات المزيفة التي تعلم ظاهراً من الحياة الدنيا .. وبين قواعدها المخدوعة . فتنفض عنها ..

ونعلم حينذاك لمن تكون الجولة الحاسمة ؟!

ماذا يكون وزنهم ؟!

على مدى مسيرة الإسلام الطويلة ، الحافلة بالإنجازات والمصاعب والتضحيات ، كان يسير على جانبي الطريق أناس حملوا انتماءهم الديني في دفاتر نفوسهم ، وعبروا عن إيمانهم بالحج .. والصوم .. والصلاة.

أناس لم يحاولوا العمل للإسلام بأكثر من هذا ، ولم يقدموا شيئاً ذا قيمة لمسيرته الشاقة وهي تقطع الوديان والصحارى والجبال .. وتجتاز القرون الطويلة ..

وهم قادرون على أن يقدموا شيئاً ، بما منحهم الله إياه من قدرات على مستوى الفكر أو الروح أو الجسد أو المال .. أو على مستواها جميعاً ..

ولكنهم آثروا السلامة واكتفوا بتأدية الشعائر في مواسمها وأوقاتها .. لم يزيدوا ولم ينقصوا لأنهم لم يحاولوا العمل للإسلام بأكثر من هذا ، رغم أنهم يطيقون ذلك بما وهبهم الله من قدرات ..

ماذا يكون وزنهم عند الله والعاملين ؟

إنه حتى بعض صنوف الحشرات تحيل حياتها المحدودة إلى نشاط دائب ، وسعي مستمر ، رافضة الكسل والقعود ، متمردة على منطوق إيثار السلامة .. ونظرة إلى خلايا النحل ومجتمعات النمل وشرانق دود القز ترينا نماذج مؤثرة لحكمة يريده الله (سبحانه وتعالى) ..

وما أكثر ما يتعلم الإنسان من الحيوان .. منذ قتل قابيل هابيل جاء الغراب لكي يعلمه كيف يواري سوأة أخيه .. ونادى متألماً " يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ؟ " .. وحتى القرن الأخير حيث تعلم أحد المهندسين خطة عمل (الرادار) من سلوك الخفافيش ..

أفلا يعلمنا النحل والنمل ودود القز شيئاً من مفاهيم الجهاد والعمل والتضحية ؟

لكن هؤلاء الذين اكتفوا بحمل دفاتر نفوسهم كمسلمين .. وأدوا شعائر دينهم في أوقاتها ، لا يريدون – على ما يبدو – أن يتعلموا .. لأنهم يؤثرون السلامة ، وإخوانهم يتساقطون على جانبي الطريق كدحاً ومشقة وإرهاقاً .. أو أذى ومطاردة وخوفاً وتعذيباً .. أو قتلاً واستشهاداً .. وهم لا يريدون أن يتعلموا ما داموا يؤدون الشعائر في أوقاتها ، وما داموا يحملون دفاتر نفوسهم كمسلمين .. معتقدين أنها الجواز الذي سيسمح لهم بدخول الجنة !!

فإذا كان وزن هؤلاء القاعدين عند الله ، وزن الذباب والبعوض ، فماذا يكون وزن أولئك الذين أبحروا بالاتجاه المضاد خوفاً وجبناً .. أو تملقاً وتمسحاً ورغباً ؟! أولئك الذين يبقون – أيضاً – على التزاماتهم الشعائرية ويعتزون – أيضاً – بدفاتر نفوسهم التي تصنفهم مع مواليد المسلمين .. لكنهم يسارعون خفافاً إزاء كل سلطة قاهرة أو طاغوت جديد لكي يقدموا له الولاء ويعملوا جهدهم في تبريره .. ولكي يحصلوا على شيء من الغنيمة ، أو – على الأقل – لكي لا

يتعرضوا للحزن أو الخوف ، لأنهم يؤثرون السلامة ويدعون الذكاء !! ، ويعرفون كيف يتخذون الحيطة إزاء صروف الدهر وتقلّباته ..

هم – أيضاً – ماذا يكون وزنهم ؟!

لا أكثر من هباءات تسبح في الفضاء .. لا وزن لها على الإطلاق .. لا لون ولا طعم ولا رائحة ..

ومن لم يكن له وزن عند الله ، فإنه يدخل التاريخ ويغادره دون أن يترك ولو خطأً واحداً .. خطأً صغيراً .. على صفحاته ..

اللهم إلا إذا اعتبرنا تبرير الطغيان .. والتوسل إليه .. والتمسّح على أعتابه خطأ متميزاً.

فلسطين بين الإنسان المسلم والعربي المعاصر

إن المصير المحزن الذي آلت إليه قضية فلسطين ، والطريق المسدود الذي انتهت إليه المحاولات الرامية لاستعادة ولو أجزاء محدودة فحسب من حقنا السليب ، إنما يعود إلى غياب الإنسان المسلم عن " القضية " في شتى أبعادها ومساحاتها ، حيث حضر بدلاً عنه (العربي المعاصر) !

والفارق الكبير بين الاثنين هو الفارق بين الهزيمة والانتصار ، بين التمزق والوحدة ، وبين التراجع والصمود.

إن الإنسان المسلم ، حفيد ابن الخطاب والناصر صلاح الدين ، يملك من الإيمان والشجاعة والثقة واليقين والفطنة والتفاني والوعي بمجريات الأمور وخلفياتها المنظورة والخفية ما لا يطمح العربي المعاصر إلى الحصول على عشر معشاره ، هذا العربي الذي عانى خواءً روحياً محزناً ، وفراغاً عقدياً مخيفاً ، وتضحلاً ثقافياً ملحوظاً ، وإحساساً عميقاً متأصلاً بالنقص والضآلة ، الأمر الذي دفعه دفعاً إلى الارتماء في أحضان الدعوات الوافدة كيلا يقال عنه إنه غير عقائدي ، رغم أن هذه الدعوات هي التي أسهمت في صنع الصهيونية وأرضعتها لبن الحقد والكراهية.

إن الهزيمة النفسية المريرة التي يعانيها العربي المعاصر قادته إلى انتماءات سياسية وعقدية ما كان بمقدورها يوماً أن تسهم في حل طرف من أطراف القضية الصعبة المعقدة ، لأنها تنبثق عن قاعدة أن لليهود كأمة الحق المطلق في التعايش السلمي مع العرب ، وأن الكفاح يجب أن ينصب على ممثلي الإمبريالية في إسرائيل ، لا على إسرائيل نفسها.

إلا أن العربي المعاصر ينسى هذا التناقض الحاد وتدفعه هزيمته وخواؤه إلى البحث عن امتلاء شكلي ، خارجي ، فيتعبد أسماء البطولات المستوردة ويعتمدها في تشكيلاته وتنظيماته ومعطياته الفنية وحواره اليومي ، ومن ثم يبدو أن (جيفارا) ما دام هو رمز البطولة والفداء لدى العربي المعاصر ، وليس خالد بن الوليد أو صلاح الدين ، فإن قضية فلسطين ستزداد تعقيداً وتأزماً إلى أن يجيء يوم يعرف فيه هذا العربي أن جيفارا نفسه هو السكين التي ستقطع كل رأس يطمح إلى قتل يهودي واحد ، أو يحلم بزوال دولة إسرائيل.

والعربي المعاصر الذي لم تتناوشه مبادئ وتيارات كهذه ، سيكون عرضة لما هو أشد وأنكى : التحلل الخلقي ، والتفكك الروحي ، والتعامل المجاني مع كل القيم والمعتقدات التي يمكن أن تمارس دوراً ما في ميادين كفاحه ، وهذا التحلل والتفكك والمجانية التي يقود إليها اللا انتماء ، لا يمكن أن يوقفه حمل بندقية أو رشاش في ساحات الهجوم على معاقل الأعداء ، لأن ساعات البطولة هذه ستنفصل بجزء من شخصية العربي وتكتفي بها وتدع الأجزاء الأخرى نهباً

لعوامل الدمار الخلقي والذاتي .. وسيجيئ يوم يشعر فيه العربي المعاصر هذا ألا قدرة له على مواصلة القتال والمقاومة وأن البندقية والرشاش تعيقانه عن إشباع نهم لا يعرف ارتواءً .. فيتخلى عن القضية ويخدع رفاقه بانتماءات ظاهرية لا رصيد لها في ميدان القتال.

إن جريمة غياب الإنسان المسلم المتوحد الذكي ، المتفاني ، تقع على عاتق كل الحكام والطواغيت الذين راحوا منذ مطلع هذا القرن وحتى هذه اللحظات ، يعملون قتلاً واضطهاداً للإسلاميين ، ويضعون في دروب حركاتهم الموانع والسدود ، وينفذون ، من حيث شعروا أو لم يشعروا ، مخططات استعمارية صهيونية مسبقة كان أصحابها يعرفون – منذ البدء – معرفة اليقين ، أن إسرائيل لا يمكن أن تقوم والإنسان المسلم حاضر على أرض المعركة .. ماضٍ إلى هدفه وهو يحمل في عقله ووجدانه إيمان وإخلاص عمر بن الخطاب ، وبطولة وتفاني وإقدام الناصر صلاح الدين ..

لكنه أوقف منذ اللحظات الأولى عن المضيّ في الدرب .. ثم ما لبثت المأساة أن حلت .. ولم تجد فلسطين عندها إنسانها البر الشجاع !

وعندما ستجده ، وهي لابد أن تجده ، قصر الوقت أم طال ، فإنها ستجد أملها ومستقبلها ، وستعانق حريتها ومصيرها.

وستظل مأساة فلسطين نداءً محزناً يتردد بين عربي معاصر فقد أصالته ، وارتمى في أحضان الغرباء ، واعتصرته الشهوات .. وبين إنسان مسلم منعه زبانية الحكم وربائب الأعداء من أن يظهر في الساحة يجاهد وينافح وهو مؤمن حتى الأعماق بحديث رسوله الكريم " صلى الله عليه وسلم " عن ذلك اليوم الذي سيطارد فيه المسلمون أعداءهم ، وستقف إلى جوارهم يومها حتى الأشجار والأحجار لكي تنادي ! يا مسلم ، هذا يهودي خلفي ، تعال فأقتله!

حين تصير الدنيا مسجداً

في كتاب " الجانب الحضاري في الإسلام " للكاتب الإنجليزي المسلم " محمد بكثال " نقرأ هذه العبارة : " حين يكون الله مالك الملك يصبح الدنيوي دينياً (صفحة ١٤١).

إن الرجل يختصر بكلماته الموجزة هذه قضية الإسلام في هذا العالم وتميزه عن كل المذاهب والأديان التي جاءت قبله أو وضعت بعده ..

إنهم جميعاً يريدون فك الارتباط بين الدين والدنيا .. إقامة جدار عازل بين الاثنين ، ومد الأسلاك الشائكة بينهما من الطول إلى الطول ..

بعضهم يزداد غلواً فيضع أكوام الحطب اليابس لكي يصنع سياجاً من النار والدخان فلا يكاد المتدين يرى ما في الدنيا ، ولا يكاد الدنيوي يحسّ برد اليقين .. فكيف بالعبور من جهة لأخرى ؟

والقضية في أساسها ليست هكذا .. ولكن الدجالين والوضاعين والكهنة والأرباب أرادوها هكذا ظناً منهم أنهم بإبعاد الله (سبحانه وتعالى) عن حكم الدنيا ستخلو لهم الساحات .. ولقد وجدوا في جماهير المستعبدين فرصتهم لاتخاذ مواقعهم الفوقية وإعلان ربوبيتهم على العباد ..

بعدها تقعّد المذاهب والنظريات ، وتحرّف الأديان لخدمة هذا الهدف " المعوّج " الذي يعكس الحقيقة الكونية بصيغة مضادة وبزاوية مئة وثمانين درجة ، ويمارس ما سماه القرآن الكريم بالظلم العظيم !

وسواء كان هذا الذي يدرّ ضرع الأكذوبة فرعوناً أم قيصراً أم كسرى أم زعيماً أم إمبراطوراً أم ملكاً .. وسواء كان فيلسوفاً أم عالماً أم مشرعاً أم سياسياً أم درويشاً .. فالأمر سواء ..

فصل الديني عن الدنيوي من أجل إبعاد الله عن حكم العالم (سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) .. حتى إذا تم ذلك في واقع الحياة وفي ضمائر الناس ، وتحقق الفراغ المطلوب في الحس والشعور وواقع الحياة .. قفز الأرباب الصغار لكي يأخذوا مواقعهم وأنشبوا فيها أظافرهم ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وسخروا منظري الطاغوت ومبرري الطغيان ، ووعاظ السلاطين لكي يضعوا ما يضعون من كتب وبحوث ونظريات في ضرورة الفصل بين الدين والدنيا .. !.

ولكننا بمجرد أن نتذكر ، كما فعل بكثال من قبل ، أن الله (سبحانه وتعالى) هو مالك الملك ، فإننا سنسترد الرؤية الصحيحة للأشياء ، ونعدل الوقفة الجانحة ، ونجتاز خط النار والدخان والأسلاك الشائكة ، باتجاه الحالة الصحيحة التي يلتقي فيها الدين بالدنيا ، ويصبح الدنيوي دينياً ، فلا يعقل – ابتداءً – ونحن نقرأ الآية ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَـهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَـهٌ ...** ﴾ (سورة الزخرف ٨٤) أن نقفز على حقيقة الألوهية ، وحاكمية الله المطلقة (سبحانه وتعالى) للمكان ، ونقصرها على حيز محدود بأن نجعلها في السماء فقط ، بينما تصير الدنيا

– وقد أخرجت عن هيمنة الله سبحانه وتعالى (وحاشاه) – ساحة يصطرع فيها أصحاب المصالح والشهوات ، ويتحكم الطواغيت والأرباب ..

في الإسلام الذي يختصر الحقيقة الجوهرية لكل الأديان السماوية ، لأنه في جوهره تعبير عن الحقيقة الكونية ، تصير كل ممارسة دنيوية ، عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله .. ويصير كل عمل ديني جهداً حضارياً يرتفع بمعمار العالم ، ويعيد هندسة الدنيا بما يجعلها أكثر بهاءً وانسجاماً وتوافقاً مع الملكوت ..

إنها جدلية الوفاق لا الاصطراع بين العمل في أعماق الأرض والطموح إلى أعالي السماء .. والمسلم الذي أبعد عن الجنة – لحكمة يريده الله سبحانه وتعالى – أريد له أن يرجع إليها ثانية ليس هروباً من الأرض وإنما تنقيباً فيها وإعماراً لها.

ليس ثمة انفصال ، في حس المسلم وشعوره وعقله وممارساته اليومية ، وبأية نسبة على الإطلاق ، بين الديني والدنيوي .. وأية محاولة لاختراق هذه القناعة محكوم عليها بالنفي والازدراء لأنها محاولة غريبة يراد لها أن تستنبت في أرض غير مهيأة لها ابتداءً .. والذين يقبلون بها هم أولئك الذين اهتزت في عقولهم وضمائرهم بداهات هذا الدين وثوابته .. وهؤلاء لا يقاس عليهم ، لأنهم أشبه بالنكت السوداء العابرة على سطح الحياة الإسلامية التي يتعاشق في نسيجها من أقصاه إلى أقصاه ، الديني بالدنيوي ، ويتوحد النبض ، فتغدو شهادة " لا إله إلا الله " جهداً إبداعياً شاملاً ، وسعياً مكافحاً لأعمار العالم وتحريره من الطاغوت .. وتغدو ضربة الفأس في الأرض ، والضغط على زر في المعمل ، وإقامة بنيان هنا ، وزرع حديقة هناك ، تعبيراً عن حقيقة لا إله إلا الله ، وهندسة للحياة الدنيا بما يجعلها تتجه بكل تفاصيلها وجزئياتها إلى الله الواحد ، وتتلقى عنه – وحده – الكلمة والتعليم والإرشاد والتشريع.

وإذا كانت النصرانية قد وافقت – تحت ضغط الإمبراطور – على أن تدع ما لقيصر لقيصر ، وتنقل مملكة السيد المسيح إلى السماء .. فإن قوة في الأرض – كائنة ما كانت – لن تستطيع أن تدفع المسلم إلى أن يناقض حقيقته الجوهرية فيسحب يده من الدنيا ، ويحفر خندقاً بين الدين والحياة ، ويتجرأ على الله سبحانه فيعزله – وحاشاه – في السماء ، رغم أنه سبحانه مالك الملك كله ، ورغم أنه القائل في محكم كتابه : **﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ... ﴾**!.

الدنيا كلها ، بتعبير الرسول المعلم " صلى الله عليه وسلم " مسجد يعبد فيه الله ، وتنفذ أوامره وتشريعاته ، بقوله عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه الشيخان : (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) .. ، ليس بمعنى أداء الصلوات فحسب ، ولكن بجعل مفردات الحياة الدنيا كلها على مدى الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، تعبد الله ، وتصلي له ، وتشهد بأن لا إله إلا هو .. لا حاكم ولا سلطان ولا مشرع ولا ملك إلا هو .. (ﷻ) !

ليس غريباً – إذن – أن تجيء عبارة (بكثال) في سياق كتاب يعنى بالجانب الحضاري في الإسلام.

ففي الإسلام يصبح كل جهد حضاري عملاً ذا بطانة روحية منذورة لله ، ويصير النشاط الروحي محفزاً ودافعاً لأعمار الحياة وصيرورة الحضارات ..

فما دام الله (سبحانه وتعالى) هو مالك الملك ، فليس ثمة فاصل على الإطلاق بين الديني والدنيوي ، لأنها جميعاً ، بكل حلقاتها ومفرداتها ، تتشكل وتدور في مملكة الله التي لا تحدها حدود.

إلا شبح الإسلام

ما بين تصريح " الكسندر هيج " وزير الخارجية الأمريكي السابق (١٩٨٤م) ومقال صحيفة " برافدا " الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي البائد في العام نفسه ، وبين تعليق المستشرق الفرنسي المعروف " مكسيم ردونسون " حول الجامعة الإسلامية ، رجوعاً إلى بدايات هذا القرن وتعقيبات (الأمير شكيب أرسلان) بخصوص ردود فعل السياسات الغربية تجاه " القوة الإسلامية " ..

ما بين هذا وذاك ، على امتداده الزمني الطويل الذي يوشك أن يكون قرناً .. خيط واحد يمسك بسياسات الغرب ومواقفه تجاه الانبعاث الإسلامي ، بغض النظر عما تنطوي عليه تلك السياسات إزاء بعضها البعض من تناقضات حادة ، ومصالح متعارضة ، وفلسفات متضادة ، تتراوح بين الحرب الباردة والضرب بالقنابل والصواريخ ، والتهديد باستخدام الأسلحة النووية المدمرة !

إنهم ينسون هذا كله أو يتناسونه ، ويجدون أنفسهم يتوحدون ، متجاوزين كل الخنادق والمتاريس ، قبالة الشبح الإسلامي حيثما لاح في الأفق ، والذي يخيل إليهم – ولو من قبيل الوهم السرابي الخادع – أن المسلمين سيستعيدون فاعليتهم الضائعة التي كانت قد قادتهم يوماً إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وهي لا تزال تحمل ، بقوة هذا الدين وديناميكيته المدهشة ، القدرة نفسها على المجابهة والتحدي والامتداد.

هذا التوحد الغربي الملفق الهجين الذي تسوق إليه دوافع دينية حيناً ، واقتصادية مادية حيناً آخر ، واستراتيجية سياسية حيناً ثالثاً .. وهو في كل الأحوال يمثل واحداً من الثوابت المعروفة في السياسات الغربية على تغاير الأماكن والخرائط والأزمان.

وزير الخارجية الأمريكي السابق " الكسندر هيج " قال في مقابلة له مع مجلة (المجلة) العربية الصادرة في (١٩٨٤/٥/٥م) إنه يعتبر " التطرف الديني والإيذاء السوفياتي (!!) أخطر على الحكومات المعتدلة في البلاد الإسلامية من إسرائيل ".

وصحيفة " البرافدا " الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي قالت في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٤/٥/٢٥م " إن القيادة الشيوعية تولي اهتمامها الرئيسي لظاهرة التطرف الإسلامي وازدياد تأثير الدين بين بعض قطاعات الشعب ".

الهاجس نفسه ، وفي فترة زمنية متقاربة ، رغم الخندق العميق الطويل الذي يفصل بين المعسكرين.

لنرجع في الزمن إلى الوراء ، إلى عشرينيات هذا القرن ، فماذا سنجد ؟ الهاجس نفسه ، وكأنما الحال هو الحال ، فإن الدول الغربية ، كما يقول الأمير شكيب أرسلان في أحد تعقيباته

الخصبة على كتاب (حاصر العالم الإسلامي) للباحث الأمريكي لوثروب ستودارد : " أثارت على البولشفيك " الشيوعيين " الأميرال كولتشاق والجنرال دينيكين والجنرال يودينيش والجنرال فرانكل والمملكة البولونية ، وحاولت إثارة الأرمن ، والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية التي ترى فيها الخطر الأعظم على كل كيان الهيئة الاجتماعية الأوروبية ، وقد بذلت إنجلترا وفرنسا في تسليح هذه الأقوام وسوقهم على الروسية مئات الملايين ، ولا تزالان إلى هذه الساعة تترصدان الفرص وتترصدان بالبولشفيك الدوائر. لكن (!!) قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر من أن تحرك على البولشفيك قوة إسلامية ، فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركيا وتسليحها وسوقها على الروسية من جهة القوقاس حيث ينضم إلى الترك هنا الكرج والداغستانيون والتتر ، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأي أصلاً ولا راق لهم تسليح العجم ولا الأفغان ، ولا بخارى ولا خيوة ولا فرغانة ، ولا غيرها من تركستان ، ولا رمي البولشفيك بهذه القوات كلها ، وما ذاك إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامي أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيماً ، ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نفر المرحوم أنور من البولشفيكيين وبرح موسكو سنة (١٩٢١م) إلى باطوم ، ومنها إنسلّ إلى بخارى وأثار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكيون فيالق جرارة لقمعها ، لم يفكر أحد بأوروبا في إمداد أنور على البلشفيك ، بل عندما سقط أنور شهيداً في أوائل أغسطس سنة (١٩٢٢م) فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الإنجليزية سرورها ، وفي هذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوروبا بإزاء الشرق "[١].

والآن .. وبعد زوال الخطر السوفياتي ، جهدت أمريكا بتنسيق مع روسيا لإعادة الأحزاب الشيوعية ثانية إلى سدة الحكم في الجمهوريات الإسلامية المتحررة من قبضة الاتحاد السوفياتي، وما ذلك إلا لقطع الطريق على الإسلاميين من أن يتحركوا لتولي السلطة هناك وملء الفراغ الذي تركه انهيار القيادات الشيوعية ، بل إنهم ، أي أمريكا وروسيا ، مضتا إلى ما هو أبعد من ذلك وأشد إمعاناً في تجاوز القيم الإنسانية والأخلاقية ، وذلك بالسماح لشراذم الأحزاب الشيوعية العائدة إلى السلطة باعتماد أسلوب المذابح الجماعية والرعب الدموي قبالة أية محاولة قد تقوم بها الأحزاب والجماعات الإسلامية هناك لتسلم السلطة !

وما بين تصريحي وزير الخارجية الأمريكي وصحيفة الحزب الشيوعي السوفياتي في الثمانينيات ، وتعقيبات الأمير شكيب أرسلان في العشرينيات ، وممارسات أمريكا وروسيا في التسعينيات ، ما قاله المستشرق الفرنسي المعروف " مكسيم ردونسون " بخصوص حركة الجامعة الإسلامية : " الغول المرعب في ذلك العصر ، على نفس الطريقة وفي نفس الزمن اللذين انتشر

---

(١) ترجمة : عجاج نويهض ، ط٣ ، دار الفكر ، (بيروت–١٩٧١م) ، المجلد الأول ، ص ٣٣٣.

الرعب فيهما من (الخطر الأصفر) ، فكانت كل ظاهرة مناهضة للإمبريالية ، حتى ولو كان مبعثها مشاعر محلية خالصة ، تعزى إلى تلك الحركة الإسلامية.

" وكانت الكلمة نفسها توحي بالتطلع الإسلامي للسيطرة وبأيديولوجية عدوانية ، وبمؤامرة على نطاق عالمي ، وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال ، أخذت هذه النظرة تتسرب إلى عقول الجماهير الغفيرة من الأوروبيين ، ولم تخل من تأثير على العلماء أنفسهم ، وخصوصاً حين كانوا ينبرون لتقديم النصح إلى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسات الحكومات الاستعمارية .. "[1].

وإذا كان التحدي الشيوعي قد زال باعتباره عملاً بشرياً وضعياً غير قابل للاستمرار بحكم المتغيرات والتآكل الزمني ، فإن التحدي الإسلامي المتجذر في العقيدة التي لا تتبدل ولا تزول ، سيظل قائماً إلى أن يشاء الله ، يلوّح بالانبعاث والنهوض قبالة الخصوم والأصدقاء ويتحفز للحركة واستعادة الدور الضائع في يوم قريب أو بعيد.

وقد لا يكون هذا الدور – بالضرورة – تحدياً سياسياً أو عسكرياً ، ولا حتى " دينياً " كما يتوهم الغربيون فيبنون مواقفهم وسياساتهم على أساس هذا الوهم ، بل قد يكون جهداً حضارياً مبدعاً يستهدف المشاركة العالمية في إعادة صياغة المصير البشري ، أو تقديم " البديل " بعد إذ تهاوت كل النظم والأنساق الفكرية ، الوضعية والدينية المحرفة.

وهو في الحالتين لا يستهدف خصومة أحد ولا العدوان على أحد ، وإنما مصلحة الإنسان العليا والتحول به من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده **﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾**[2].

---

(١) تراث الإسلام : تصنيف شاخت وبوزورت ، ترجمة : د. محمد السمهوري سلسلة عالم المعرفة ، (الكويت–١٩٧٨م) ، القسم الأول ص ٨٥–٨٦.

(٢) (سورة الروم ، الآية ٣٠).

الدين واحد

طالما أكد كتاب الله (سبحانه وتعالى) على حقيقة كونه امتداداً للكتب السماوية قبله وأنه جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه : ﴿ **وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾(البقرة ، ٨٩) ، ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ...** ﴾ (الأنعام ، ٩٢) ، ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ ...** ﴾(البقرة ، ٩١) ، ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ...** ﴾ (المائدة ، ٤٨) ، ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ...** ﴾ (الشورى ، ١٣).

وطالما بذل رسول الله " صلى الله عليه وسلم " عبر كفاحه النبوي الطويل جهوداً متواصلة لإقناع أهل الكتاب بتوحد الأديان السماوية بدءاً ومصيراً ، وباستقطابها حول هدف واحد ، قبل أن تعبث بها رياح التبديل والتحريف ، وأهواء اليهودية واليونانية ، ومصالح الأباطرة والأحبار .. وطالما دعا " صلى الله عليه وسلم " زعماء اليهودية والنصرانية إلى كلمة سواء ما دامت الحركة الدينية في العالم هي – في أساسها – حركة واحدة ، تنطلق من معين واحد لكي تمضي إلى هدفها الواحد وهو تحرير الإنسان من عبودية الإنسان ، وتعبيده لله الواحد ، وإعادة صياغة الحياة على عين الله (سبحانه وتعالى) ، والثورة على كل محاولات الابتزاز التي يسعى الوضاعون والطغاة من خلالها إلى وضع يدهم على عقل الإنسان وإرادته.

ورغم ما أصاب الكتب الدينية اليهودية والنصرانية من تحريف ، فقد ظل في نسيجها المترع بالإضافات البشرية ، بقع أصيلة تنبئ عن مصدرها الإلهي ، وتتوحد في نبضها مع معطيات القرآن الكريم.

ولن يتسع المجال لاستقصاء هذه البقع الأصيلة ، ولا حتى الإشارة إليها ، وقد قيل فيها الكثير وكتب الكثير ، ولكننا سنقف – لحظات – عند ثلاث منها قد تفصح ، من بين عشرات ومئات غيرها ، عن المصدر الواحد ، وتؤشر على الهدف الواحد الذي كافح الأنبياء " عليهم الصلاة والسلام " من أجله ، وأفنوا أعمارهم في سبيله.

يقول المسيح " عليه السلام " في الإصحاح العاشر (٣٤) من إنجيل متي : " لا تظنوا أني جئت أنشر السلام في الأرض ، إنني لم آت أحمل السلام وإنما السيف ! ".

ويقول في الإصحاح الثاني عشر (٤٩) من إنجيل لوقا : " إني جئت لألقي النار على الأرض ، وما أريد من ذلك إلا اشتعالها ".

وصدق المسيح بن مريم ، فإن كسرى وقيصر .. فراعنة العالم وأباطرته ، لن يسلموا بسهولة بتحويل عبودية الناس إلى الله وحده ، وتحريرهم من قبضة الطواغيت والأرباب التي تجد في استعباد الإنسان فرصتها للتحقق ، وإلا تكون كالسمك الذي يخرج من الماء فيتخبط على اليابسة قليلاً ، ثم ما يلبث أن يلفظ أنفاسه.

إنها بيئة الوضاعين في كل زمن ومكان .. أن تتوفر بين أيديهم وتحت عروشهم وأقدامهم جموع الجماهير التي تعبدهم ، وتتسمح بأذيالهم ، وتسجد لهم ، وتنفذ أوامرهم ، وتترجم قوانينهم وتشريعاتهم ، وتقدم لهم ، بجدها ومعاناتها ، ما يريدون ويشتهون .. فإذا حاول أحد أن يسحب البساط من تحت أقدامهم .. أن يجردهم من الجماهير ، أو يحرر الجماهير منهم ، كائناً من كان ، فإنه يكون قد حكم على تفردهم بالإعدام ، وهم لن يسكتوا على المحاولة ، وستكون السكين .. سيكون السيف أو الرصاصة ، أول ما ينطلق لوقف المحاولة عند حدها وإرغام المستعبدين على البقاء في مرتبة العبودية ، وإلا فإنهم – أي الطواغيت – يكونون قد ناقضوا أنفسهم وزوّروا هويتهم الشخصية التي تشهد لهم بالربوبية على العباد.

كيف يستطيع المسيح بن مريم " عليه السلام "وحواريوه وأتباعه المخلصون اختراق مملكة قيصر وتحويلها إلى مملكة الله دون أن يطالهم السيف والسكين ، وينالهم من العذاب ما تعجز القواميس عن تغطية مفرداته ، من أجل كفهم عن المضي إلى هدفهم هذا ؟

لقد قالها رسول الله " صلى الله عليه وسلم " وهو يحدّث أصحابه عن اليوم الذي سيفترق فيه القرآن عن السلطان ، وأن عليهم يومها أن يكونوا مع القرآن ، وعن اليوم الذي سيولّى عليهم فيه حكام ظالمون : (فإن اتبعتموهم أضلوكم وإن عصيتموهم قتلوكم) ، فلما سأله أصحابه : وماذا نفعل يا رسول الله ؟ كان جوابه القاطع كالسكين : " كما فعل أصحاب موسى وعيسى نشروا بالمناشير وعلقوا على الأخشاب (رواه أبو داود).

إن المسيح الذي يتحدث عن الله يعرف هذا جيداً ، ومن ثم يرفع نداءه ذاك : " لا تظنوا أني جئت أنشر السلام في الأرض ، إنني لم آت أحمل السلام وإنما السيف ".

وقد يبدو هذا الكلام متناقضاً في ظاهره مع دعوة النصرانية المؤكدة للمحبة والسلام .. ولكنه في حقيقته ليس تناقضاً ، وإنما هما – بقوة منطق الأشياء – وجهان لعملة واحدة .. فبدون مجابهة طغيان أعداء السلام من الأكاسرة والقياصرة والفراعنة والوضاعين .. بدون التحقق بقدر من القوة التي تجعل المجابهة ممكنة ، أو تجعل المقاومة مجدية على الأقل ، لن يكون هناك سلام على الإطلاق .. وفي ظلال الطاغوت لن تجد المحبة – كذلك – فرصتها وبيئتها المناسبتين.

" إني جئت لألقي النار على الأرض ، وما أريد من ذلك إلا اشتعالها " إن دنس القرون الطوال .. تلال الحطب اليابس والأشواك التي يترس بها الطواغيت والأرباب ، يجب أن تحرق ..

أن يصب عليها الزيت وتشتعل .. أن يشتعل نصف العالم لكي يتطهر العالم كله من الدنس والرذيلة والعبودية لغير الله.

منطقي تماماً مع نفسه ودعوته نبي السلم والمحبة هذا .. وإذا كان الطاغوت قد استطاع بقوة القهر والإغراء أن يبعد الولد عن أبيه والبنت عن أمها ، وزوجة الابن عن أمه .. فإنه لابد من التحرك سريعاً ، على الجهة الأخرى ، جهة الخلاص والتحرير ، من فك الارتباط بين هؤلاء وهؤلاء ، وإبعادهم عن بعض لكي يظل النظيف نظيفاً والأبيض أبيضا ، ولكي لا ينتشر الجذام فيطال الجميع.

ومن أجل ذلك يرفع المسيح " عليه السلام " صوته : " إني جئت لأفرق بين الولد وأبيه ، والبنت وأمها ، وبين زوجة الابن وأمه " (إنجيل متي ، الإصحاح العاشر : ٣٥).

ويظل الأنبياء جميعاً (عليهم السلام) الأبناء البررة للمدرسة الواحدة ، والمنهج الواحد الذي يستهدف تحرير العباد من الطواغيت والأصنام ، وتخريج أجيال من المؤمنين (الأحرار) ، لا ينحنون إلا لله ، ولا يقبلون إلا كلمته ومنهجه .. ولن يكون ذلك إلا باعتماد السيف في اللحظة التي يقف فيها الطاغوت قبالة " الكلمة " لإرغامها على الصمت ، ووقفها عن المضي إلى الإنسان المستعبد ، المقهور ، لتحريره ، ومنحه جواز السفر إلى " إنسانيته " التي أهدرها الأرباب.

من هنا يبدأ السقوط

نيويورك (رويتر) (١٠/آب/١٩٩١م) : قال رجل شاذ جنسياً يسعى إلى تولي منصب في مجلس مدينة نيويورك لتمثيل منطقة يقطنها عدد كبير من الشواذ جنسياً ، أنه مصاب بفيروس نقص المناعة المكتسب " الإيدز " الذي يقول مساعد له إنه يجعل أول مرشح لمنصب رئيسي في الولايات المتحدة يكشف النقاب عن إصابته بالإيدز.

" وقال الديمقراطي توماس دوان (٣٧ عاماً) في مؤتمر صحفي : إن الاختبارات التي أجراها في عام (١٩٨٨م) أثبتت أنه مصاب بفيروس الإيدز ، وقال : لقد أرسلت رسالة إلى الناس في منطقتي أبلغهم أنني مصاب بفيروس الإيدز ، ولكنه قال إنه في صحة جيدة تماماً ومستعد لتولي المنصب في مجلس المدينة ، وقال : أخطط للفوز واعتزم ترشيح نفسي مرة أخرى في عام ١٩٩٣م ".

هذا رجل كشف النقاب عن إصابته ويريد المشاركة في الحياة السياسية مرة ومرتين .. وهو يصدق أصحابه القول ، وإصابته هذه مسألة شخصية تهمه وحده ، أما نشاطه العام فهو يعتمد على قدراته التي تؤهله لشغل هذا المنصب أو ذاك ، فماذا في ذلك ؟

هكذا يقول أولئك الذين يفصلون بين الممارسة اللا أخلاقية ذات الطابع الشخصي كما يخيل لهم وبين النشاط العام ، ولا يرون بأساً في أن يجد أشد المنحلّين خلقياً فرصتهم للمشاركة في الحياة السياسية أو غيرها في مجال عام ، وهم كثيرون في ديارنا ، ويزيدهم ضلالاً أن يجدوا الغربيين يتفوقون علينا رغم ما تعانيه أخلاقهم " الشخصية " من ثغرات.

ومن خلال هذه الرؤية السطحية المضللة لا يعتبر الزنا أمراً محرماً إذا مورس وفق رغبة الطرفين ، ويصير الشذوذ الجنسي أمراً طبيعياً لا غبار عليه ، ويبلغ الأمر أن تبيحه إحدى الكنائس الإنكليزية قبل عقدين في منشور لها بهذا الخصوص اعتبرته فيه ممارسة مشروعة وحقاً طبيعياً.

وخطيئة هذا الموقف المضلل أنه يعتمد رؤية مجزوءة تنظر إلى الظاهرة من زاوية محدودة، فلو أنها أدارت المنظور وقلبت الأمر على وجوهه جميعاً لتبدى لها استحالة الفصل بين الخاص والعام في الممارسة الأخلاقية ، فالذي يملك الاستعداد للانحراف والشذوذ في حياته الخاصة يحمل الاستعداد نفسه لممارسته في نشاطه العام ، وبذلك ينقل العفن والفساد من بؤره الضيقة إلى مجرى الحياة العام فيصيبها بالتفكك والانحلال.

وعندما تزداد روافد الأذى التي تحمل الكدر والأقذار في مجرى الحياة العامة ، سنة بعد أخرى وعقداً بعد عقد ، تفقد هذه الحياة براءتها ونقاءها وتغوص قيم الجدية والنزاهة والإخلاص

في المستنقع الآسن لكي ما يلبث أن يطفو على السطح الغش والتسيب والخيانة والرشوة والسرقة .. إلى آخره من الممارسات اللا أخلاقية ، أو ما يصطلح عليه الغربيون أنفسهم بالفضائح !.

ولقد انكشفت بعض هذه الفضائح في ديار الغرب وأضطر أصحابها إلى اعتزال الحياة العامة أو أرغموا على ذلك ، ليس لكون الممارسة لا أخلاقية بالمفهوم الديني أو الأدبي ، وإنما لكونها قادت إلى إلحاق الأذى بالمجتمع ومؤسساته السياسية أو الاقتصادية بالمفهوم الذرائعي (البراغماتي) ، والمهم أن السقوط الأخلاقي يتجاوز في معظم الأحيان دائرته الشخصية لكي يطل برأسه المشؤوم على الحياة العامة فيفسدها ويصيبها بالانحلال.

في ستينيات هذا القرن نبه اثنان من زعماء الدولتين العظميين اللتين كانتا تتقاسمان حكم العالم يومذاك : كندي في أمريكا وخروتشوف في الاتحاد السوفياتي ، إلى خطورة المسألة الأخلاقية وأنها ستقود الأجيال الناشئة إلى ضعف القدرة على تحمل تبعات الإنجاز والتواصل الحضاري ، وسيؤثر هذا تأثيراً عميقاً على مصائر الدولتين !.

ولم يكن الرجلان حالمين أو متشائمين وإنما هما ينطلقان من ثقل الواقع ومن معطيات الميدان لكي يصدرا تحذيرهما المعروف .. فها هو رجل أمريكي من نيويورك ، شاذ جنسياً ، يقطن منطقة تعجّ باللوطيين يترشح لشغل منصب سياسي في ولايته ..

والذي يبيح لنفسه أن يخترق بقوة الشهوة ، وأن يساق إلى الموقع الشاذ الذي ترفضه السوية البشرية ، سيبيح لنفسه اختراقات أخرى وهو يمارس نشاطه العام ، فالالتزام الأخلاقي كل غير قابل للتجزئة ، والانحلال لم يكن – على مدار التاريخ – مسألة شخصية وإنما هو ظاهرة مرضية عامة تفترس الدول والحضارات.

وفي المقابل ، فإنه ليس ثمة كالحصانة الأخلاقية التي يصنعها الالتزام الديني ويجذرها في الممارسة الإنسانية ، صمام أمان لحماية الحياة الخاصة والعامة على السواء ، من التفلت والتفكك والانحلال.

وعبر كل المعطيات القرآنية عن الأمم والشعوب والقيادات الطاغية الضالة التي ألغتها كلمة الله من خارطة العالم ، كان القرآن الكريم يتحدث بجزم ووضوح عن الخطيئة الأخلاقية التي لم تكن عملاً فردياً ، أو لعلها بدأت هكذا ، ولكنها لم تقف عند هذا الحد بل تجاوزته ، بقدرتها على التقليد والانتشار لكي تغطي كالوباء نشاط قبيلة أو أمة أو كيان سياسي أو حضاري ، وتأتي عليه من القواعد.

ومنذ عقود عدة أخذت تطرق الأسماع ، عبر أجهزة الإعلام ، فضائح مالية أو سياسية في هذه العاصمة أو تلك : رشوة كبيرة ، سرقة ، ابتزاز ، محاولة لشراء أصوات الناخبين ، أو إنجاز عمراني لم يستكمل مواصفاته ، أو تسخير للجنس لتحقيق كسب مالي أو سياسي غير مشروع .. إلى آخره .. وقد أخذت هذه الممارسات تتزايد مع الزمن بمعدلات الكم والنوع ، وتطال العواصم

المتحضرة الكبرى في العالم المتقدم من طوكيو شرقاً إلى واشنطن غرباً ، عبر موسكو ولندن وباريس وغيرها .. وهي على أية حال " فضائح " مهما كانت مواصفاتها ، أي ، بالمدلول اللغوي والاصطلاحي عمل غير أخلاقي وهو بصفته هذه يصعب معه الفصل بين أبعاده الفردية والجماعية ، والعبرة بالنتائج ، كما يقول المثل.

والبداية دائماً من ها هنا : خرق يصيب نسيج الشخصية البشرية بقوة الشهوة ، أو سلطة المصلحة أو الإغواء ، فيقودها إلى التهتك ، فإذا ما أتيح لهذه الشخصية تسلم منصب ما ، أو مشاركة سياسية أو اقتصادية في الحياة العامة .. نقلت عدواها إلى هناك ، وأصبح المجتمع كله، بمرور الوقت ، قابلاً لمرض الإيدز ، وفقد مناعته الأخلاقية المكتسبة عبر القرون.

الخروج النهائي وقتل الإنسان

رغم أنهم في قمة الحياة وفي سقفها العالي .. ورغم أنهم يتمتعون بأعلى وتائر الرفاهية ، والتطمينات الاجتماعية ، والتيسيرات الخدمية ، فيما لم تشهد المجتمعات البشرية مثيلاً له حتى اللحظات الراهنة .. رغم هذا وذاك فإنهم يندفعون صوب الانتحار. وهو – باختصار شديد – يأس من الحياة ، وعجز عن تحمل أي قدر من ضغوطها وتحدياتها ، واعتقاد موغل حتى النخاع بلا جدواها، وبأنها لا تستحق أن تعاش.

ورغم أننا في القرنين الأخيرين على الأقل ، في قعر الحياة ، ورغم أن مساحات واسعة من مجتمعاتنا الإسلامية تنقلب في حفر الجوع والفاقة والخوف والقهر السياسي والظلم الاجتماعي وضياع الضمانات وتخلّف الخدمات ، فإننا سجلنا رقماً قياسياً مضاداً في رفض الانتحار وسيلة للهروب من الحياة ، وفي التشبث بها واحترامها واعتبارها قيمة عليا ، وهبة إلهية كريمة تحتم على الإنسان ألا يفرط بها مهما تعرض له من متاعب وضغوط وأحزان وهزائم وانكسارات .. وأن عليه أن يواصل الطريق حتى النهاية ، مستمداً من تقديس الحياة القدرة على المجابهة والتفوق والانتصار .. وبالتالي يصير الانتحار – في المنظور الاجتماعي – ليس هروباً وجبناً وعجزاً فحسب ، ولكنه كفران للمنحة الإلهية ، وردّ في منتهى القبح على الكرم الربّاني الجميل الذي يمنح الفرصة للإنسان كي يتحقق ويكون ويستمر ويواصل الصعود إلى الأبدية.

لقد زرع كتاب الله وسنة رسوله " صلى الله عليه وسلم " تقاليد احترام الحياة وصيانتها من الهدر والإعدام في نفوس المسلمين وعبر نسيج الممارسات الاجتماعية على السواء ، وجاءت التجربة التاريخية لكي تؤكد هذه القيم والتقاليد عبر رحلة الأربعة عشر قرناً .. وبمرور الوقت أصبح الانتحار حالة شاذة ، واستثناء لقاعدة عريضة ممتدة، وممارسة تتميز بغرابة متناهية لا يلجأ إليها إلا المجانين ومرضى العقول ، أولئك الذين يعانون من انشطار نفسي كامل ، بحيث أننا لا نكاد نعثر على حالة واحدة – إلا في القيل النادر – لإنسان مسلم يلجأ إلى الانتحار بملء إرادته وهو يملك قدرته العقلية ، وسويته النفسية المتعارف عليها.

ونقرأ في كتاب الله هذه الشبكة من التأكيد على (قيمة الحياة) من أكثر من زاوية وهي جميعاً تصب في البؤرة الواحدة التي تؤشر على كرامة النفس البشرية وحقها في الحماية والاستمرار : ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ...** ﴾(المائدة ، ٣٢) ، ﴿ **... قَالَ : أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً** ﴾ (الكهف ، ٧٤) ، ﴿ **... قَالَ : يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ (القصص ، ١٩) ، ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾

(المائدة ، ٣٠) ، ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ...** ﴾ (الأنعام ، ١٤٠) ، ﴿ **... وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ...** ﴾ (الأنعام ، ١٥١).

في كل الأحوال اعتبرت الشريعة الإسلامية قتل النفس أمراً محرماً ، وندّد رسول الله " صلى الله عليه وسلم " بأولئك الذين يقتلون أنفسهم ، وصوّرهم وهم يعانون من أشد الحالات عذاباً وبؤساً : عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " : (من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحسى سمّاً فقتل نفسه فسمّه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته بيده يتوجّأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً) (رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي) ، وعن الحسن البصري قال حدثنا جندب بن عبد الله في هذا المسجد فيما نسينا منه حديثاً قال : (كان برجل جراح فقتل نفسه فقال الله : بدرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة) (رواه الشيخان).

وعلى كل الانكسارات السياسية والتخلف الحضاري الذي عانت منه مجتمعاتنا الإسلامية عبر القرون الأخيرة ، على كل أنماط القهر الاجتماعي والكبت السياسي والتسلط الأجنبي بصيغه كافية ، قدرت هذه المجتمعات ، بقوة التقاليد الإسلامية ، على أن تحتفظ بطهرها ونقائها والتزامها بالقيم الشريفة في هذا العالم ، ومن بين هذه القيم احترام إنسانية الإنسان وحقه في الحياة ، وتقديس الحياة ذاتها واعتبارها منحة إلهية كبرى تتحتم حمايتها من الهدر والانتقاص.

وهناك في الجانب الآخر من العالم ، وعبر تجارب اجتماعية قدر لها أن تحظى بهامش واسع من العدل والحرية ، وبتفوق أسطوري في سلّم المدنيّة ، تنعكس الحال وتصير الحياة نفسها هدفاً سهلاً لإطلاق الرصاص .. تصير أكثر رخصاً من الحاجيات والأشياء.

ليس الشبع من كل شيء هو وحده الذي يقود الغربي إلى الطرق المسدودة ويدفعه للتساؤل المشؤوم : وماذا بعد ؟ وإنما هو غياب العمق الروحي ، وفقدان القناعة الفكرية أو التصورية السليمة بجدوى الحياة البشرية وقيمتها ، وبأنها فرصة فذة تستحق أن تعاش ، ليس هذا فحسب ، بل إنها فرصة ضرورية لمواصلة الطريق إلى فوق ، والتحقق أكثر فأكثر بالطموح الإنساني في ساحات الكون الكبرى .. بل إن الأمر ليتجاوز هذا كله إلى جعل الحياة البشرية فرصة للأمل والفرح والدهشة ، ومشروعاً مفتوحاً مترعاً بالاحتمالات الإيجابية لصيرورة الحياة.

في العدد الصادر في (التاسع من آب/أغسطس١٩٩١م) من صحيفة " نيويورك تايمز " تعليق على كتاب (الخروج النهائي) الذي يقدم للمرضى الميؤوس من شفائهم نصائح عن كيفية الانتحار ، وأنه أصبح أكثر الكتب التوجيهية (!!) مبيعاً في الولايات المتحدة.

وقالت الصحيفة إن الكتاب الذي وضعه البريطاني (ديريك همفري) يتصدر القائمة الخاصة بأفضل الكتب التوجيهية مبيعاً.

ويتضمن الكتاب نصائح (!!) بشأن كيفية الانتحار بواسطة الحبوب المنومة ، والاختناق الذاتي بأكياس البلاستيك ، والموت جوعاً.

وتقدم الإحصائيات الدورية التي تنشر هناك بين الحين والآخر ، ارتفاعاً ملحوظاً في نسبة الانتحار ، حيث أن بمقدور المرء أن يتوقع أن الانتحار في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين سيصبح أمراً اعتيادياً تماماً ، وعادة شائعة كشرب الخمر والتدخين والشذوذ الجنسي !.

تلك إذن هي المفارقة المحزنة والمدهشة في الحياة الغربية ، وهي تندفع بسرعة مذهلة صوب أعلى وتائر المدنيّة ، بعيداً عن مطالب الروح ، والقيم الخلقية ، والرؤية العقدية الصائبة .. بل بعيداً عن البداهات الإنسانية ذاتها.

وسيظل (المسلم) رغم كل الانكسارات والاحباطات وأنماط الحصار التي تدمره من الداخل والخارج ، هو النموذج الأكثر مقاربة لإنسانية الإنسان ، والشاهد العدل على جدوى الحياة وقدرتها على الصيرورة والإبداع والاستمرار ، وسيجد العالم نفسه ، في يوم قريب أو بعيد ، مرغماً على استدعاء هذا الشاهد لكي يدلي بأقواله حول الوجود البشري ومغزى الحياة.

ولسوف يتعلم من شهادته الكثيرون إذا أرادوا أن يخرجوا – فعلاً – من الدائرة المقفلة التي تضيق الخناق عليهم يوماً بعد يوم .. وإلا فهي الكارثة ..

السرطان

هناك ما هو أشد بشاعة من الانحلال الخلقي ، بل ما هو أشد خطراً .. ذلك هو الانحلال الفكري.

أن تؤمن بفكرة أو عقيدة أو تصور خاطئ يعني أنك تقف على شيء .. تفيء إلى جزيرة ما في محيط الكون الكبير ، وتملك لغة تمكنك من سماع صوت الأفكار الأخرى ، مهما كانت متغايرة ، حتى ولو بلغ التناقض زاويته القصوى ، ومعنى ذلك أنك قد تعدل وقفتك أو ترجع إلى الحق في يوم قريب أو بعيد.

لكن أن تفقد الإيمان بأية فكرة أو عقيدة أو قيمة ، فتلك هي المعضلة ، لأنك في هذه الحالة لا تقف على شيء ولا تأوي إلى قيمة ثابتة تمكنك من التعامل مع مفردات العقائد والأفكار، وتتيح لك حرية الاختيار ..

إن الانحلال الفكري بهذا المعنى لهو واحد من أشد صيغ الجبرية في تاريخ الإنسان من حيث أنه يبدو في الظاهر تحرراً واختياراً ، ذلك أنه يضعك في سياق دوامات تلف بك ذات اليمين وذات الشمال .. تتحكم بمصيرك دون أن تعطيك لحظة واحدة لمراجعة الحساب والإبحار في الخط الذي يوصلك إلى بر الأمان ..

اللفّ في المتاهات والاستسلام للغرق في نهاية المطاف ..

والانحلال الفكري ، فضلاً عن هذا ، سرطان خبيث لا يكتفي بتفكيك منظومة المسلّمات العقلية والحضارية ، ولكنه يمضي لتدمير كل شيء .. كل قيمة أو مرتكز في العلاقات الاجتماعية والممارسات الأخلاقية ، بل إنه قد يصل حد تدمير الطاقة الجسدية نفسها فلا يدع الإنسان إلا وقد أصبح ركاماً.

وباء لعين هو الانحلال الفكري ، وهو ينتقل بعدواه من فرد إلى آخر بقوة الإيحاء لكي يصيب أكبر عدد من الناس ، وخاصة في البيئات المشحونة بجراثيم الوباء ، المستعدة لقبول سمومه وأعراضه.

وللأسف الشديد فإن بيئاتنا الشرقية عموماً ، والإسلامية والعربية على وجه الخصوص ، غدت بعد مرور قرن ونصف القرن من الاستلاب الفكري والسياسي مهيأة تماماً لقبول أفواج المنحلين فكرياً وأصبحت ، بسبب شبكة معقدة من عوامل التدمير ، محضناً مناسباً لتفريخهم وتخريج حشود منهم أصبحوا في اللحظات الراهنة يمثلون ظاهرة اجتماعية تملك ثقلها وامتدادها.

والسكوت على هذا السرطان جريمة ، وأكثر جرماً منه المساعدة على جعله يمضي إلى أهدافه لكي يأكل الأخضر واليابس ، ويخلّي الطريق لسياسات الخصم كي تفعل فعلها في مقدرات هذه الأمة المنكودة.

والخصم المنظور ، المؤكد ، القريب ، هم اليهود الذين افترسوا فلسطين وهم الآن يحدون أنيابهم لافتراس الأرض والماء .. التاريخ والجغرافيا .. العقيدة والأخلاق .. بقوة تخطيطهم وبرمجتهم وتقنياتهم .. ومن ورائهم ، وبموازاتهم ، قوى دولية كبرى ونظام عالمي جديد يدعي الأحادية والتفرد في قيادة الإنسان المعاصر ، ويوهم بأن ليس ثمة أحد أو قوة في الأرض ، كائنة ما كانت ، بقادرة على أن تقف قبالته ، وتتحداه وتصده عن المضي إلى أهدافه للاستئثار بحكم العالم !

ومن وراء هذا وذاك ، وبموازاته ، عقول ترصد ، وأخرى تنظّر ، وثالثة تبحث عن آليات التنفيذ .. وبين الحين والحين تطرح نظرية ، أو تنزل إلى الميدان مقولة ما ، أو تبدأ محاولة جادة في تنفيذ سياسة من السياسات.

والآن نستمع إلى نظرية نهاية التاريخ ، وقانون صراع الحضارات ، ونشهد بأم أعيننا ممارسات التطبيع مع العدو على كل المستويات ..

والنتيجة تنفيذ واحدة من أبشع وأوسع عمليات غسيل المخ في التاريخ البشري عموماً ، والعربي الإسلامي على وجه الخصوص.

الانسلاخ عن التاريخ والهوية .. الطمس على الخبرات والذكريات. فك الارتباط بين الإنسان والعقيدة ، ودفعه إلى العالم مجرداً من كل شيء : التاريخ .. الهوية .. والعقيدة .. أعزل قبالة صنمية واحدة .. حتمية متفردة هي حتمية التكاثر بالأشياء ، وتطمين المطالب المادية ، والتحقق بالرفاهية في المعاش ..

ليس ثمة فارق بين عربي وإسرائيلي ، ولا بين مسلم ويهودي ، ولا بين شرقي وغربي .. الكل سواء قبالة الإله الجديد ، والكل يخضع من حيث يدري ولا يدري لتلك القوة الواحدة التي تهيمن اليوم على مقدرات العالم فيجد اليهود في تفردها فرصتهم التاريخية التي انتظروها طويلاً ..

في هذه الأجواء التي يعيش فيها الخراب والضياع وغياب العقيدة ، والتاريخ ، ونسيان الذات ، تتخرج أفواج المنحلين فكرياً الذين لا يثقون بشيء ، ولا يؤمنون بقيمة ، وكأنهم – وهم لا يفرقون بين الأبيض والأسود – قد أصيبوا بعمى الألوان ، وأصبح بمقدور القوى القاهرة التي تسوقهم ، أن تخيل إليهم بأن كل ما هو إسلامي أصيل ، أسود بالضرورة ، أو رمادي في أحسن الأحوال ، وأن كل ما تأتي به أمريكا وصنيعتها ، صفحة بيضاء ، بل إن بعضهم ، وقد انهارت في عقله ووجدانه آخر القيم والمرتكزات ، يدهش لكراهية العربي لإسرائيل ، والمسلم لليهودي ، والشرقي للأمريكي ، أليسوا جميعاً من بني الإنسان ؟ فلماذا الكراهية والبغضاء ؟ ولماذا لا يسعون جميعاً ، بنوع من التعايش المشترك ، لتطمين حاجاتهم الضرورية ؟ ولماذا اختلاق الأسباب للتقاتل والصراع ؟

سمعت بهذا في أذني ورأيت نماذج المنحلين بعيني وأنا أتجول في عدد من الجامعات والمنتديات العربية لإلقاء محاضرة أو المشاركة في ندوة .. كان أحدهم ينظر إليّ بدهشة وأنا أتحدث عن ضرورة التحصن ضد وباء التطبيع ومبادئ النظام العالمي الجديد ، ومقولات نهاية التاريخ وصراع الحضارات.

ما المبرر لهذا كله ؟ ولماذا الاجترار الأبدي للتاريخ ؟ ألم يئن الأوان للتصالح بين الإنسان والإنسان ؟ وإلغاء الذاكرة الدينية التي تفرق ولا تجمع ؟ وأقول له ، محاولاً تمالك أعصابي قبالة حالة عقلية جليدية تجاوزت نقطة الصفر وانحدرت إلى ما دونها بكثير : ولكنك ، حتى على المستوى المعاشي الصرف ، ستضع نفسك في يوم قريب في مكان لا تجد فيه ما يكفيك من الماء الذي يؤمن لك ، ولزرعك وضرعك ، الشبع والارتواء ..

يفتح فمه بالدهشة نفسها وينظر إلى زميل له مصاب بالسرطان ذاته ، كأنه يريد أن يقول : أنظر .. إنهم لا يزالون يلوكون العقيدة ويجترون التاريخ في زمن أصبح طبيعياً فيه .. طبيعياً تماماً ، أن يتحاور العربي مع الإسرائيلي ، وأن يتحابّ المسلم واليهودي ، وأن يلتقي الشرقي مع الأمريكي ، لإعادة صياغة العالم بما يكفل رفاهية الجميع ، وبما يزيل من طريقهم كل أوضار الماضي وأحقاده وسيئاته ..

حتى المساحات والخبرات النظيفة الوضيئة .. الجميلة في تاريخنا وحضارتنا لم يعودوا يأبهون لها أو ينظرون إليها باحترام .. ولمَ ؟ إذا كانت اللحظة الراهنة والمستقبل القريب والبعيد ، تتطلب شيئاً آخر .. شيئاً آخر تماماً غير الماضي والانتماء .. غير التاريخ والعقيدة. غير الحضارة والجغرافيا .. إنها مساواة الإنسان بالإنسان لكي يحظى الجميع بدفء الرفاهية وعطائها الذي ماله من حدود.

وهم – للأسف – لا يدركون أنهم – وقد ضحّوا بتميزهم العقدي والتاريخي والحضاري، أصبحوا بلا هوية. كالأنعام التي يعرف أصحاب المصالح والعقول كيف يسوقونها من المراعي إلى المذابح كي يجتزوا صوفها ويسلخوا جلودها ، وهم لا يدركون أنهم – يومها – لن يكونوا قد خسروا أنفسهم فقط ، وإنما اللقمة التي تشبعهم ، والماء الذي يرويهم ، والأرض التي يضطربون عليها.

وفي يوم ما لوحت الشيوعية بوحدة الإنسان على حساب العقيدة والجغرافيا والتاريخ وانتهى بها الأمر إلى السقوط لأنه أريد للضرع أن يدرّ في فم روسيا القيصرية وليس في فم الإنسان.

ولا تزال الماسونية التي يديرها اليهود تلّوح بالشعار نفسه ، رغم أنها تعرضت للانكشاف والرفض والانحسار .. وحلت محلها " إنجيليات " من نوع جديد.

واليوم فإن نظريات شتى تطرح ، وشعارات مستحدثة تلفق ، وسياسات مرسومة تنفذ باسم وحدة الإنسان.

وفي كل الأحوال فإن الرابح الوحيد في اللعبة هي الجهة التي " فبركت " المحاولة ، أما الذين استهوتهم الشعارات فقد ضاعوا وانطبق عليهم المثل الذي طالما ردده المؤرخ ابن الأثير في كتابه المعروف " الكامل في التاريخ " : (خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين)!

السيف والمحبة

ما من تجربة في التاريخ المعاصر تملك هذا القدر من الطهر والبراءة والارتفاع على " العدوانية " كالتجربة السودانية. ما من تجربة تملك النبل والسماحة والمرونة والانفتاح كهذه التجربة التي قدرت في سنوات قلائل على تجاوز الكثير من الحساسيات والعقد التاريخية وتقديم البدائل المناسبة المستمدة من فكر الإسلام وروحه ونبله وسماحته.

إنها لا تريد أكثر من أن تعطى لها الفرصة لتنفيذ برامجها ومفرداتها في واقع الحياة من أجل الارتفاع بالسوداني إلى المستوى اللائق الذي كان يحلم به منذ زمن بعيد ، فصدته عنه الحزبيات الضيقة والدكتاتوريات المسلحة. أيضاً من أجل تقديم النموذج الإسلامي الذي يتوق إليه الإنسان أياً كان موقعه وانتماؤه.

لقد رأيت بأم عيني ولمست بجوارحي وأنا أقضي هناك أسابيع قلائل الرغبة المؤكدة لحظة بلحظة للعمل والإنجاز تحت ظلال السلم والتهادن والمحبة بين كل المتخاصمين القدماء الذين أكلتهم الصراعات والأحقاد الفكرية والحزبية والطائفية والعرقية والدينية ، وآن لهم أن يعثروا على فرصتهم الضائعة في الأخوة والمحبة والتفاهم والعمل المشترك الذي يمطر خيره على الجميع ، ويمنح ثماره لكل يد شريفة تعرف كيف تزرع دون أن تخبئ في ثيابها السكين التي تنتظر اللحظة المناسبة للقتل والاغتيال.

أي بلد في العالم ينطوي على هذه التركيبة البشرية المتنوعة المنقسمة ، وعلى هذا التاريخ الموغل في الدم والصراع ، ومع ذلك يلغي السجون والمعتقلات ويسعى لاستئصالها حتى من قواميسه ، إن لم يكن العقل الذي يسوسه قد تطهر ابتداءً من هواجس السجون والمعتقلات والحجر على حريات الآخر أو كبتها وشكمها عن العمل ، وآل على نفسه أن يمنح الحرية على مداها لكي تؤرق كل الإرادات الخيرة وتؤتي ثمارها ؟

أي بلد يقول لخصومه في الداخل : ها هي ذي منابر الرأي قبالتكم فقولوا من خلالها ما تشاءون ، رغم أن هؤلاء الخصوم كانوا وما يزالون يدبرون كل يوم ألف مكيدة ومكيدة لاستعادة مراكزهم الضائعة وابتزاز البلاد والعباد ؟

أي بلد يطلب من أعدائه الذين يستميتون لتدمير وحدة الأرض ، وسلخ جزء عزيز من الوطن من أجل توظيفه لأقطاب الطاغوت العالمي استعمارياً كان أم صليبياً أم صهيونياً .. يقول لهم تعالوا إلى كلمة سواء ، فليس ثمة غير الحوار السلمي والتفاوض المفتوح من أسلوب للوصول إلى الأهداف التي تتوخاها الأطراف كافة ؟

أي بلد يقول لقوى الاستكبار العالمي التي لم تتطهر بعد من نزوعها العدواني ، إننا على استعداد للتفاهم ، لتجاوز كل العقد والحساسيات وتراكمات التاريخ القريب والبعيد ، شريطة أن

تكفوا عن التآمر علينا وتعطونا الفرصة لإعمار الأرض وتنمية الحياة ، ولكم علينا ألا نمسكم بسوء من قريب أو بعيد ؟

أي بلد يقول لجاره الذي يتحفز لاقتطاع الأرض : إنه لا مبرر للتوتر أو التلويح باستخدام السلاح ، فثمة الحوار الذي يمكن أن يصل بالطرفين إلى بر الطمأنينة والسلام ؟ أي بلد يقول للبابا زعيم الكاثوليكية في العالم : تعال ، لكي ترى بأم عينك أخوة المسلم للنصراني وتعايشهما المشترك الذي ما عرفته أية تجربة أخرى في العالم خارج دائرة الإسلام ؟

أي بلد يقول لعلماء الدين المسيحي في أمريكا وكندا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا وألمانيا والسويد وكوريا والدول الإفريقية والفاتيكان ومجالس الكنائس العالمية : تعالوا إلى كلمة سواء في مؤتمر للأديان تم عقده في (٢٦-٣٠ نيسان١٩٩٣م) ويخاطبهم القس فيلو ثاوس فرج، راعي كنيسة الشهيدين القبطية قائلاً : " إننا في السودان لا نميز بين المواطنين في الحقوق والواجبات والتوظيف بسبب الدين ، وإننا لا نكتب نوع ديانة المواطن في الأوراق الرسمية والبطاقات أو جوازات السفر ، ولا نفرق بين الناس والديانات بسبب الأسماء ..

" لقد احتفلنا بعيد الميلاد المجيد وازدانت قلوبنا ببهجة الذكرى ، وعلى نفس المستوى تحرك المسيحيون في عيد الفطر يشاركون إخوانهم المسلمين فرحتهم .. لقد كان باب الإعلام مفتوحاً أمامنا ولم يزل وكل هذا وحّد القلوب نحو تأكيد نموذجية التعايش والإخاء والتواصل الاجتماعي في سوداننا المتميز .. لم يحدث أن تحولت كنيسة إلى مسجد ولم يتعد أحد على أية مؤسسة دينية .. ولقد أعطت ثورة الإنقاذ للمسيحيين مكاناً بارزاً في الإذاعة والتلفزيون والصحف .. ونحن كمسيحيين لنا رأينا ولنا كلمتنا .. عندما نشعر أن شيئاً ما مس فكرنا المسيحي نتحاور ، وبالحوار نصل إلى القرار كما حصل بالنسبة لقضية الزي الإسلامي وعدم إلزام المسيحيات به .. والعمل السياسي مكفول للجميع ".

أشياء وخبرات كثيرة أخرى يلمسها المرء وهو يعاين عن كثب ما يجري في السودان. معطيات من المحبة والنبل والسماحة تتدفق كشلالات إفريقيا من أجل أن تغسل كل المرارات والضغائن والأحقاد ، وترتفع بالتعامل بين الإنسان والإنسان إلى سويته التي أرادها له الله سبحانه ورسله الكرام (عليهم أفضل الصلاة والسلام).

ورغم هذا كلّه ، بل – ربما – بسبب من هذا كله ، ازداد الخصوم في الداخل والأعداء في الخارج ضغينة وحقداً .. تصاعدت لديهم وتائر الرغبة في إعلان الحرب على التجربة التي حملت إليهم المحبة ، وتدميرها ..

والأسباب قد تكون أكثر عرياً وتكشفاً مما يتصور الكثيرون .. إن نجاح التجربة – النموذج، سيضع في الطرف الآخر كل التجارب الأخرى في دائرة الظل والشبهة والعجز عن أن تكون بالمستوى الذي يحلم به المواطن والإنسان .. كما أنه سيقطع الطريق على الزعامات

العالمية المتنفذة لتحقيق أهدافها ومصالحها من خلال بؤر الظل والعجز والشبهات تلك ن فيوم أن تزول هذه جميعها لن يكون بمقدور تلك القوى أن تجد طريقها بسهولة إلى بلادنا وديارنا.

طبعاً فإن هناك الوجه الآخر للصورة وإلا أصبح الخير نهباً للشر ، وحوصر الضوء وطغت الظلمات ، واستبيحت السنابل الخضر التي تعد بالعطاء.

لابد من التحصن بالقوة على كل المستويات ، والتهيؤ لرد العدوان بمثله ، والدفاع عن الذات في مواجهة التحديات التي تتذرع بكل أسلوب لتدمير التجربة ..

الصورة بوجهيها كما يأمر بها هذا الدين ..

من ثم فإن السودان الذي يقدم هذا العطاء الخصب من المحبة والسماحة لكل خصومه في الداخل والخارج على السواء ، لا يغفل لحظة عن تعزيز قدراته القتالية على المستويين العسكري والشعبي لحماية التجربة من الأخطار.

ولن يتناقض هذا مع ذاك .. بل على العكس .. فإن المحبة التي لا يحميها السلاح تغدو مذلة وخضوعاً .. والطهر الذي لا يحصن نفسه يصير مزرعة لذوي القلوب السوداء .. والوطن الذي لا يملك أبجديات الدفاع عن وحدة الأرض ، يتفتت ويضيع ، وتهيمن على مقدراته قبليات العصور البائدة.

وتبقى التجربة السودانية قبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، مثلاً يمكن أن يقدم للبشرية الكثير ، وان يعلمها الكثير ، في سياق التعامل بين الثنائيات : بين المسلم والنصراني ، وبين العربي والزنجي ، بين المتدين والعلماني ، بين الأصدقاء والخصوم .. وبين الرجل والمرأة .. وحشود الثنائيات الأخرى التي ما وجدت بيئة كالبيئة السودانية في ظلال تجربتها الراهنة ، تفتح صدرها على مداه لاحتواء كل الثنائيات والتعامل معها بهذا القدر من النبل والأريحية والسماحة والرضا.

اغتيال كاتب

لم يحدث للإسلاميين ، على كثرة ما تعرضوا له من ضغوط وحملات استفزاز ومحاولات اغتيال ، أن اغتالوا مفكراً أو كاتباً من الخصوم ، ليس خوفاً أو عجزاً ، فإنهم قديرون على الوصول وبسهولة إلى كل من يريدونه .. إنما لأسباب أخرى ليس الخوف أو العجز من بينها على الإطلاق.

هم مثلاً يعرفون أن المفكرين والكتاب الذين يشنون الحملات عليهم بإلحاح يتجاوز حدوده المعقولة ، لا يصدرون عن خيارهم الذاتي وقناعاتهم الخاصة وإنما عن خيار " الآخر " وقناعاته أياً كان هذا الآخر : زعيماً أو سلطة أو مركز قرار ، أو حتى بيئة فكرية خارج دائرة الإسلام أو في تضاد معه ، بمعنى أن هؤلاء لا يعدون أن يكونوا مجرد صدى ، أو أدوات بأيدي الخصم ، ولما كانت المعركة في أساسها مع هذا " الخصم " فإن الهدف هو كسر اليد نفسها ومجابهة العقل الذي يحركها ، وليس مجرد تقليم الأظافر المستعارة التي قد تطول مرة أخرى أو تستبدل ..

هم أيضاً يعرفون ، ربما للسبب المذكور ، أن المفكر أو الأديب في حالة كهذه لا يستحق أن يقتل فترفعه القوى المضادة بانتهازها المعروف للفرص ، إلى مرتبة القديسين والشهداء ، وإدانة الإسلاميين في المقابل بالإرهاب ، وهي إدانة تجيء متزامنة تماماً مع الحملة العالمية ضد الإسلاميين الذين تكال لهم التهم المستمدة من قاموس الإرهاب !.

في يوم ما كان الإسلاميون يردون بالحجة والكلمة على حملات كهذه لكنهم ما كانوا يصلون إلى شيء ، لأنهم – للأسف – ما كانوا يعرفون – يومها – أن مفكرين وكتاباً كهؤلاء لا يسعون – ابتداءً – للبحث عن الحق ، وبالتالي فإنهم غير مستعدين لأية محاولة للحوار ، بل إن رد فعلهم تجاه محاولة كهذه يكشف عن نفسه بطبيعته الرافضة ، بسهولة بالغة ، ومن ثم فإن ألف سنة من الحوار لن تلقى منهم سوى (أذن من طين وأخرى من عجين) كما يقول المثل ، بل إنهم قد يزدادون عنفاً وإيغالاً في عدوانيتهم كلما جوبهوا بحجة لا يستطيعون نقضها .. إنها محاولة للهروب والاحتماء بالمزيد من العدوان.

إن تاريخنا الفكري المعاصر مترع بسلوكيات كهذه ، وقد أخذت تتكشف بمرور الوقت وتتعرى ، حتى لم تعد تغيب على أحد أسبابها الحقيقية الكامنة وراء فكر المفكرين وكتابات الكتاب ، وراء قناعاتهم الخاصة نفسها التي قد يفصحون عنها بين الحين والحين ، كما يفصح العقل الباطن عن رغبات الإنسان الدفينة ، لكنهم – لسبب ما – سرعان ما يتبرأون من انكشافهم ذاك ، استرضاءً لعقول التي تمدهم بالفكر والأيدي التي تسبغ عليهم المناصب والدنانير ! ومن ثم فإن الجدل مع هذا النمط من الناس الذي ينتشر كالدمامل والبثور على وجه حياتنا الثقافية ، ويسير كالطاعون في دوائر الفكر والكلمة .. الجدل مع هؤلاء قد توقف أو كاد .. ومع ذلك فهم

مستمرون على أداء الدور المرسوم لهم .. وكلما ازداد الإسلاميون تجذراً في الأرض ، وقدرة على مجابهة الخصوم الكبار ، وتعرية فكرهم وكسر أذرعتهم ، نشط هؤلاء الصغار .. مخالب القط ، في شحذ أقلامهم للنيل من الإسلاميين إلى حد اللجاجة التي تقود الطرف الآخر إلى التفكير بالكي الذي هو آخر دواء ممكن.

أين كان هؤلاء يوم أن اغتيلت الديمقراطية في الجزائر الشقيقة ، في واحدة من أبشع عمليات الاغتيال الفكري والسياسي في التاريخ المعاصر ؟ وأين كانوا ، وهم المحسوبون على خط التقدمية واليسار ومعاداة الإمبريالية ، يوم قامت هذه قومتها المعروفة ومارست كل الصيغ التحريضية لقتل التجربة ، ووقف الإسلاميين عن الإفادة منها للتعبير عن مصداقية فكرهم ومواقفهم التي هي في نهاية التحليل وبدئه ، فكر الشعب المجاهد الأصيل ، وموقف البلد الذي أعطى مليونا ونصف المليون من الشهداء ..

أين كانوا يوم أن تجاوزت الزعامات الغربية الأمريكية والأوروبية ومعها ومن ورائها الدوائر الصهيونية والمؤسسات الصليبية ، كلّ موقف نبيل ، حتى في حدوده الدنيا ، وتنازلت عنه باتجاه (الويسترن الأمريكي) .. منطق رعاة البقر الذي يبرر لنفسه استخدام أي أسلوب في صراع القوى من أجل تطمين مصالحه وحمايتها ؟

لا شيء أبداً ، بل إنهم لهذا السبب بالذات ، لكون جريمة القرن قد نفذت على أيدي هذه القوى المنفردة اليوم بقيادة العالم ، سكتوا ، ولهذا السبب بالذات بحّت أصواتهم ونفد صبرهم في الهجوم على الإسلاميين رغم أن هؤلاء غدر بهم مرتين .. مرة بوقفهم عن استثمار حقهم المشروع ، ومرة أخرى بتغييبهم في السجون والمعتقلات لغير ما مبرر على الإطلاق سوى أنهم حققوا نجاحاً ساحقاً في الانتخابات وأحرزوا ثقة غالبية الجماهير ..

في حوار أجرته " قناة فرنسا الدولية " حول الأوضاع في الجزائر شارك فيه بعض المفكرين الجزائريين والفرنسيين " ونشرت جانباً منه مجلة فلسطين المسلمة في عدد آب ١٩٩٣م " ، بالغ الكاتب الجزائري الفرنكوشيوعي " رشيد ميموني " الذي قالت مذيعة البرنامج إنه يتكلم من مكان مجهول لأسباب أمنية ، في وصف الحالة المأساوية التي يعيشها المثقفون في الجزائر ، فما كان من المفكر الفرنسي " برونوايتشان " إلا أن صاح غاضباً : لقد قال لنا هؤلاء " فرنكفون الجزائر ! " بعد الجولة الأولى من الانتخابات إنهم يفضلون الكارثة على حكم " جبهة الإنقاذ " وها هم الآن يعيشون الكارثة فلماذا البكاء ؟

والمثقفون الذين يعنيهم " ميموني " بطبيعة الحال ليسوا كل مثقفي الجزائر الأصلاء المنتمين للأرض والعقيدة والتاريخ ، وإنما حفنة من أولئك المنتمين للتيارين الفرنكفوني والشيوعي، أو ما أصطلح على تسميتهم " حزب فرنسا " .. أي – بعبارة أخرى – أولئك الذين منحوا ولاءهم لغير جغرافية وطنهم ، سواء كانوا فرنفكونيين أو شيوعيين ، والذين لم يجدوا غير فرنسا " وطنهم

الأم !! " مكاناً يطلبون فيه حق اللجوء السياسي !! ، والذين كان العقل الاستعماري الفرنسي قد زرعهم في الجزائر فوجدوا في حفنة من الجنرالات الفاسدين خير حليف للانتقام من الشعب الجزائري الذي همشهم ورفضهم في أول انتخابات ديمقراطية تشهدها الجزائر.

فما يكون فكرهم سوى أنه محاولة لدخول (الغرباء) من الشباك الجزائري بعد أن كانوا قد أرغموا – وسادتهم – على الخروج من الباب بكفاح مئة وثلاثين عاماً ممهورة بدماء مليون ونصف المليون شهيد ؟

أيعد هذا الموقف الخياني من كتّاب كهؤلاء فكراً يستحق الاحترام ؟ بل .. أيعد هؤلاء الكتاب أنفسهم " شيئاً " يستحق أن تطلق عليه رصاصة واحدة تعطي الفرصة للأيدي التي تحركهم لكي تدين الإسلاميين بالإرهاب الفكري واغتيال حرية الكلمة ؟!

وسيلة إيضاح

تمثل الصومال عينة نموذجية لدراسة أبعاد المؤامرة الدولية على عالم الإسلام .. ها هنا حيث بمقدور المرء أن يعثر على " الجريمة الكاملة " التي تنفذ أهدافها المرسومة كافة ، ويختفي الجاني فلا يعثر عليه أحد.

والسبب واضح .. إن الصومال تمثل رأس حربة عربية إسلامية موغلة في القارة السوداء ، وهي بموقعها هذا يمكن أن تكون جسراً يجتازه الإسلام إلى عمق القارة ، ويضيق الخناق أكثر فأكثر على مصالح الاستعمار والتبشير والصهيونية .. بل حتى الشيوعية التي كانت إلى وقت قريب تطمح لأن يكون لها مكان هناك .. إن الصومال هي العمق الاستراتيجي للعروبة والإسلام .. الظهير الذي يمكن أن يسدي لهما الكثير.

ولابد إذن من كسر هذه التجربة .. من تفتيتها وإضعافها .. من منعها من أداء دورها الذي رشحته لها حيثيات الجغرافيا والتاريخ. من شلّها عن الفاعلية التي يمكن أن تقلب الموازين لصالح العرب والمسلمين.

من ثم فإن قوى العالم المصطرعة على الساحة الإفريقية ، والتي كان يمكن أن تختلف في كل شيء ، اجتمعت وتوحدت ها هنا : الديمقراطي والفاشستي .. الأمريكي والروسي .. الرأسمالي والشيوعي .. النصراني واليهودي والوثني .. قيادات ما يسمى باليمين ، وفي أقصى حدته " هيلا سيلاسي مثلاً " وما يسمى باليسار ، وفي أقصى حدته " منغستو هيلا مريام مثلاً " .. كلها تتوزع الأدوار المرسومة لكسر الحربة الصومالية وتحويلها إلى سلاح مثلوم عاجز عن العمل.

ما من بيئة جغرافية في عالم الإسلام نفذت فيها لعبة اليمين واليسار كالبيئة الصومالية ، وما من وسيلة إيضاح على جهل العرب بمصالحهم العليا ، وسعيهم – على العكس – لتعريضها للدمار ، كالصومال .. وما من شعب في التاريخ الحديث والمعاصر أغمض عينيه على المؤامرة التي تحاك ضده بأيدي أعدائه وأبنائه على السواء كالشعب الصومالي الذي يبلغ به الأمر ، الآن، إلى أن يقتل بعضه بعضاً ، ويفني بعضه بعضا ، ويرتد إلى أبشع صيغ القبلية الضيقة التي حذر الرسول المعلم " صلى الله عليه وسلم " من نتنها ، ويعطي الفرصة والمبرر للتدخل الأمريكي المباشر تحت مظلة النظام العالمي وحماية حقوق الإنسان.

وليس منا من لم يذكر الدور الخطير الذي نفذه " محمد سياد بري " على مدى ما يقرب من ربع القرن لتحقيق الهدف المذكور .. للانزلاق بالصومال إلى حافات الإعياء والتبعية وفقدان الهوية والتحول إلى دولة لا يكاد أبناؤها يجدون ما يسد جوعهم ويروي ظمأهم ، حيث

يصير المواطن الصومالي اليوم في مخيلة الناس في كل مكان هيكلاً عظمياً يسوقه الجوع إلى الهلاك ..

وبغض النظر عن الدوافع الحقيقية لسياسات " سياد بري " ، فإن العبرة بالنتائج المنظورة ، والنتائج المنظورة تؤشر على واحدة من أبشع السياسات التي تعمل بمفرداتها المتناقضة كافة ضد البلد الذي تقوده ، ضد المواطن الذي تدعي تحريره من الفقر والجهل والتخلف ، وضد حيثيات الجغرافيا والتاريخ.

بدأ " سياد بري " الذي قفز إلى السلطة في أواخر الستينيات بانقلاب عسكري دبره بليل ، أو دبُر له بليل ، لكي يغتال ظلال الحرية والديمقراطية في الصومال .. بدأ يسارياً ، ثم ما لبث أن كشف عن توجهاته الفكرية اللينينية – الماركسية من أجل أن يعطي الفرصة لنفسه ، أو يعطيها إياه من أعانوه على الوصول إلى السلطة ، لقتل الإسلاميين في الصومال ، وذبح ذراريهم ، وإخلاء الساحة الصومالية من أية فاعلية إسلامية وترشيحها للدخول في تبعية مصطنعة تعجز عن تأدية أي دور تاريخي على الإطلاق ، فلما وضعتها الظروف ، أو المكر الغربي بعبارة أدق ، قبالة تحديات اليسار الحبشي بزعامة " منغستو هيلا مريام " وأرغمتها على مجابهة رفاق العقيدة تحت دعوى تحرير الأرض الصومالية " إقليم أوغادين " من قبضة الأحباش، هزمت هزيمة منكرة وأضطر " سياد بري " وقد انكشفت اللعبة ، إلى أن يحول توجهه على زاوية قدرها مئة وثمانون درجة ، بعد أن استغاث بسادته في الكرملين فلم يعيروا له التفاتاً ، ربما لأنهم متفقون ابتداءً على اقتسام مناطق النفوذ مع أمريكا في مؤتمرات ثنائية كهلسنكي ، الذي دشنت مقرراته السرية في الستينيات أوّل تنسيق جاد لاقتسام العالم بين المعسكرين ، وربما لأن " هيلا مريام " أكثر شيوعية من " سياد بري " ، وربما لأن الأخير ينتمي ، شاء أم أبى ، إلى عالم العروبة والإسلام ، رغم كفاحه المرير للانسلاخ عن جلده ، بينما " مريام " الحبشي ، النصراني ، أكثر طواعية بكل المقاييس لأهداف الشيوعية في القارة .. وربما وربما ..

مهما يكن من أمر فإن صرخات " سياد بري " ذهبت هباء ولقيت من موسكو (أذناً من طين وأخرى من عجين) .. فبدأ بعتاب رقيق ، ثم أخذ ينتقد بهمس ، ثم تحول الهمس إلى صراخ ، فلما لم يرد عليه أحد ، قام بطريقة دراماتيكية ، بالانتقال دفعة واحدة إلى الطرف الآخر، وأعلن عن نقل خدماته إلى خانة المصالح الأمريكية ، وبدأ يستجدي منهم المال والسلاح، وهم إن كانوا أسخياء في المال ، فإنهم – في السلاح – بخلاء عندما يكون الأمر متعلقاً ببلد كالصومال قد يوجه سلاحه الجديد يوماً ضد الغرب والصليبية والصهيونية الحليفة في الساحات الإفريقية.

ومن ثم فإن الصومال ظل عاجزاً عسكرياً ولم يستطع في نهاية الأمر أن يسترد شبراً واحداً من أراضيه التي انتهبها الجيران ، أو بعبارة أخرى ، أعطيت إليهم زمن السلطات الاستعمارية

المباشرة من أجل تحقيق الهدف نفسه : ألا يكون هناك صومال موحد قدير على الفاعلية في عمق القارة السوداء.

وما حدث بعدها معروف تماماً .. ومعروف أيضاً الحضور العسكري الأمريكي المباشر في الصومال تحت مظلة النظام الجديد ، وليس من أجل سواد عيون الصوماليين وحمايتهم من الفناء .. وإلا لماذا لم يسارع الأمريكيون أنفسهم لحماية شعوب الجمهوريات الروسية في آسيا من سكين الشيوعية البائدة التي تحصدها بلا رحمة ؟

الصومال ليست المحطة الأخيرة .. فهناك السودان .. وتلك مسألة تحتاج إلى وقفة أخرى ..

المطلوب تصفيتان لا واحدة

أدلى إسحق رابين رئيس وزراء العدو الصهيوني بحديث تناقلته وكالات الأنباء العالمية حول الحركات الأصولية ، حذر فيه الغرب من أن الإرهاب لن يقتصر على الشرق الأوسط وأن السودان سيكون قلعة للأصولية والإرهاب.

وهذا أمر طبيعي تماماً ، بل إن سكوت رابين وعدم إدلائه بحديث كهذا هو الأمر غير الطبيعي ، والذي يتناقض مع المعطيات الصهيونية وبداهاتها ..

لقد كان الإسلام المهادن هو المطلوب دائماً في الدوائر اليهودية والصهيونية. إسلام الشعائر والعبادات ، المنزوي في المساجد والجوامع والذي لا يعرف أبجديات الخروج إلى الشارع ولا كيف يدافع عن نفسه في مواجهة العدوان.

أما أن يتحول الإسلام إلى حركة تملك تنظيمها المحكم ، والتحامها الوثيق بالحياة وحضورها في الشارع والمؤسسة والحي ، وقدرتها على الدفاع عن النفس وردع الخصوم ، فإنها صيغة لن يوافق عليها أو يسكت عنها زعماء يهود وحكماء صهيون لأنهم يعرفون جيداً أنهم هم أنفسهم سيكونون الهدف الأول الذي سيطلق عليه النار ..

ورابين يعرف جيداً ، وسكين حماس الإسلامية في خاصرة دولته المغتصبة ، أنه ليس ثمة حركة تمارس المقاومة الجادة للوجود الصهيوني في فلسطين غير الحركة التي تتجذر في عقيدة الأمة وتستمد من الإسلام مفردات العمل ومنهاج المواجهة .. وهو يعرف – كذلك – أنه ليس غير الأصوليين ، كما يسميهم الإعلام الغربي وذيوله في الأرض العربية ، من يقدر على الانبعاث من قلب الأرض المحتلة لكي يصير في سنوات قلائل التحدي الأكثر حضوراً وجماهيرية وتأثيراً ، من كل الحركات الأخرى التي لم تتجذر في العقيدة واختارت أن تستورد الأفكار والمفاهيم وتلبسها الكوفية الفلسطينية الحمراء !

ورابين يدرك جيداً أن التجربة السودانية التي عرفت كيف تختار الطريق وأن تكون صادقة مع جغرافيتها وتاريخها ودينها وحضارتها ، يمكن أن تشكل في المدى القريب والبعيد تحدياً مشابهاً ، لكنه أبعد مدى وأشد تأثيراً. إنها تقدم النموذج الإسلامي على مستوى " الدولة " التي كانت غائبة عن الساحة يوم قامت (إسرائيل) عام (١٩٤٨م) ، وغائبة عن الساحة في حزيران الأسود الذي ضاعت في أيامه الستة غزة وسيناء والضفة والجولان.

أما الآن ، فإن حضورها قد يجعل حيثيات المعادلة الجانحة تستعيد توازنها المفقود ، وتضع (إسرائيل) في حالة مجابهة أكثر صعوبة بكثير مما كانت عليه زمن غياب الوجود الإسلامي في جغرافية الصراع بيننا وبين (إسرائيل) ..

ورابين ، بما يفعله وما يقوله ، يدرك جيداً ، أنه يضرب في الوقت المناسب ، حيث تتصاعد الحملات العدوانية ضد الإسلاميين في مشارق الأرض ومغاربها ، فكأنه يستعدي القوى المضادة وعلى رأسها أمريكا ، ويلوح لها بما ينطوي عليه انتشار الأصولية من تهديد وإرهاب ، ليس في الشرق الأوسط وحده ولكن في ديار الغرب نفسه.

إن المفاوضات الراهنة التي يراد منها تصفية نهائية للقضية الفلسطينية ، وتأكيداً مؤيداً لشرعية الوجود الإسرائيلي في فلسطين ، لن تمضي إلى أهدافها المرسومة ، والأصولية الإسلامية تملك هذا الحضور ، والتجذر ، والفاعلية ، والانتشار في مدى جغرافية العالم الإسلامي ، وفي قلب الأرض المحتلة التي ما حسب طاغوتها اليهودي حتى وقت قريب أيما حساب لقيام المجاهد المسلم ، وانتشاره ، ورفعه السلاح في مواجهة السلطة واكتساحه كل التجمعات الفئوية التي لا تملك أصالة فكرية ولا رؤية شاملة ، والتي ما فعلت عبر ثلاثين سنة من المقاومة شيئاً ذا بال.

واليوم إذ ترتفع مكبرات الصوت في العالم كله لكي تدين الحركات الأصولية وتتهمها بالإرهاب ، وتلصق بها أشنع النعوت ، من أجل أن تضعها في حالة عداء قبالة الرأي العام الإسلامي والعالمي .. وقبل هذا وذاك قبالة السلطات المحلية لكي تدفعها إلى تضييق الخناق عليها بكل الوسائل الممكنة ، ومحاصرتها وتصفيتها ، اليوم ، حيث تصير (الإسلامية) بمفهومها الجهادي ، الهاجس الذي يؤرق قادة الرأي ومراكز اتخاذ القرار في أمريكا وأوربا الغربية وروسيا ، وحيث يعاد القول في وسائل الإعلام ، المرة تلو المرة ، بضرورة المجابهة الحاسمة.

اليوم حيث تكثر التصريحات السياسية بضرورة التنبه لما تسميه متعمدة الإرهاب الإسلامي .. اليوم حيث يمضي الإسلام لكي يشق طريقه في قلب أوروبا نفسها وفي مساحات واسعة من العالم .. اليوم يجدها رابين فرصة مناسبة تماماً للمساهمة في الحملة الصليبية الكبرى .. لاستعداء حلفاء المصير الغربي من أجل تطويق الظاهرة ، قبل أن تصير خطراً يهدد الغرب نفسه ، مشيراً بشكل خاص إلى التجربة السودانية باعتبارها نموذجاً للخبرة الإسلامية المتشكلة في إطار دولة قد تمارس ، في الساحة الإفريقية على الأقل ، سياسات متعارضة مع مصالح الصهيونية والصليبية والاستعمار.

وغير رابين زعماء صهاينة لا يحصيهم عدّ ، أدلوا بالحديث إياه ، تماماً كما أدلى به قادة أمريكان أو إنجليز أو فرنسيون أو روس.

وكلهم يعتمدون المفردات نفسها ، الاستفزاز نفسه ، ويكشفون عن نزوع عدواني يذكر الإنسان بالحملات الصليبية الكبرى.

وهذا أمر معروف ، وهو منطقي تماماً ، لأنهم جميعاً يستمدون كلماتهم من قاموس واحد هو قاموس الحقد على الإسلام والمسلمين ، والرغبة المتأبدة القادمة من عصر فرديناند وإيزابيلا في ألا يكون لهذا الدين حضور مؤثر في صياغة التاريخ.

أوكازيون الدم الإسلامي

نشرت وكالة الأنباء الأرمنية في الآونة الأخيرة رسالة موجهة من برلمان (ناغورني- كاراباخ) إلى السلطات الأذربيجانية يؤكد فيها سقوط أكثر من سبعة وعشرين ألف قتيل أذربيجاني في النزاع الدائر هناك ، معظمهم من الشبان ، وأن الآلاف دفنوا في مقابر جماعية في كاراباخ.

إنها واقعة أخرى ، ووسيلة إيضاح ثالثة ورابعة وعاشرة ، لرخص الدم الإسلامي في كل مكان من جغرافية عالم الإسلام ، قبالة غلاء الدم النصراني أو اليهودي وارتفاع ثمنه !

ولطالما تساءل المسلمون أنفسهم وهم يجدون ذراريهم تسفك دماؤهم هنا وهناك ، وتحصد رؤوسهم بأرقام خيالية وحسابات فلكية .. بينما خصومهم لا يكادون يعطون عشر معشار هذا الذي يعطيه المسلمون ، ومع ذلك يخرجون منتصرين .. ولطالما تمنى المسلمون أن يجيء اليوم الذي يكف فيه نزيف الدم الإسلامي ، وتتوقف مأساة الهدر المحزنة هذه التي ما فتئت طاحونتها الحمراء تدور وتعصر منذ بدايات القرن الماضي ولا تزال ..

ولكن المسلمين وهم يتساءلون ويتمنون ، ما حاولوا أن يعرفوا الأسباب ، ولا أن يضعوا أيديهم على مواطن الجراح لكي يكفوها عن النزيف !

إنهم يعرفون – مثلاً – أن الخصم أقوى بكثير ، على الأقل في مجال تكنولوجيا السلاح .. وهذا حق .. ويعرفون كذلك أن القوى المهيمنة على مقدرات العالم هي قوى معادية للإسلام جملة وتفصيلاً ، وأنها تجد نفسها بالضرورة مندفعة لإسناد وتأييد كل الفئات التي تتحرك لذبح المسلمين ، وبالتالي فإن المعركة ستفقد تكافؤها منذ اللحظات الأولى .. وهذا حق كذلك ..

ويعرفون ، فوق هذا وذاك ، أن الخصم لا يملك ديناً جاداً ، ولا تجذراً في العقيدة القادمة من السماء ، وبالتالي فإنه نصرانياً كان أم يهودياً ، بوذياً أو هندوسياً ، يفتقد منظومة القيم والضوابط والمعايير الأخلاقية في التعامل مع الآخر ، حتى إذا ما احتدم الصراع استخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتدمير الخصم .. فإذا ما كتبت له الغلبة ما وجد أيما عائق في المضي بعيداً عن مطالب الدين والعقيدة والأخلاق والبداهات الإنسانية ، لتصفية خصمه بأي أسلوب وإلحاق أكبر قدر ممكن من الأذى به ، حتى ولو اقتضى الأمر ترتيب مذابح جماعية يغطى بها على آثار المقابر الجماعية ، وهذا حق أيضاً.

لكن المسلمين إلى جانب هذا كله ، يتحتم عليهم أن يعرفوا أن السبب لا يتمركز فقط في دائرة الخصم ، وان هناك – بالضرورة – حشوداً من الأخطاء ونقاط الضعف في ساحات المسلمين أنفسهم ، وأن عليهم أن يبحثوا عنها ، جيداً ، وأن يتدارسوها من أجل تجاوزها قدر الإمكان .. وأن تعليق الهزائم والانكسارات على مشاجب الآخرين وحدهم إنما هي محاولة

هروبية، تبريرية ، تسعى لأن تخدع نفسها وترمي بالأسباب على (الآخر) لكي تتحرر من ضغوطها ومستلزماتها ، وأننا طالما غفلنا عن هذه الحلقة أو تلك من حلقات سنن الله في التاريخ ونواميسه في العالم ، أو ما يسمى بقوانين الحركة التاريخية ، وهي واضحة بينة مؤكدة في كتاب الله وسنة رسوله " صلى الله عليه وسلم " ونحن نقرأ صباح مساء ، دون أن ننتبه للبعد الحقيقي ، آيات من مثل : ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ...** ﴾ (النساء : ١٢٣) ، ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ...** ﴾ (آل عمران : ١٦٥) ، ﴿ **... إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ۞ الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ (الأنفال : ٦٥-٦٦) ، وأحاديث من مثل حديث المركب الذي لم يتداركه أصحابه فآل إلى الغرق المحتوم.

لقد رخص الدم الإسلامي على الخصوم والأعداء ، لأنه قبل هذا وذاك رخص على المسلمين أنفسهم حيث قتل بعضهم بعضاً ، وذبح بعضهم بعضاً ، وجاءت قيادات العصور المتأخرة لكي ترفع السكين في مواجهة رعاياها الذين لا يدينون لها بالطاعة ، لهذا السبب أو ذاك، فتحصدهم صباح مساء.

وسيطرت على أرواحهم محبة الدنيا وكراهية الموت ، وهذا أول الوهن الذي يقود إلى الجبن والهزيمة والمذلة ، وإيثار السلامة ، والاستعداد للخيانة ، حينذاك يمكّن لعدوهم في الأرض ولسكينه من احتزاز رؤوسهم كالأغنام.

وعجزوا عن فهم مطالب القرآن المؤكدة بضرورة أن يكونوا حاضرين في قلب العالم الذي سخر لهم لكي ينقبوا في الأرض ويكشفوا عن قوانينها ويستخرجوا طاقاتها المذخورة ، ويحموا دماءهم وأعراضهم وإيمانهم بالإعداد التقني الذي لا يغفل لحظة واحدة عن مواصلة الصعود إلى مستويات جديدة من القوة كالذي يفعله الغربيون ، وأكثر .. إن الآيات الواردة في سورة الحديد واضحة تماماً في مدلولها ، وكذلك المقاطع الخاصة بذي القرنين وسليمان وداود " عليهما السلام " فضلاً عن آية الإعداد التي يعرفها الجميع ولا يكاد يعمل بها الجميع.

وقعد المسلمون عن الدعوة إلى الله في ديارهم ، فتركوا الساحة للخصوم يصولون فيها ويجولون ويزدادون قوة ومنعة وانتشاراً ، حتى إذا دقت ساعة الحسم كان هؤلاء الخصوم مخلب القط الذي يمزق به الأعداء الخارجيون جلود المسلمين ، والسكين التي يحتزون بها رقابهم ، فتكون الداهية التي تضع أبناء هذا الدين في دوامة الموت ، فيطبق عليهم الجزار وأتباعه من الخارج والداخل فتنزف الدماء أنهاراً ويكون هذا الذي يعرفه الجميع.

إننا نتذكر جميعاً ، تحت وطأة إحساس قاسٍ بالقهر والضياع ، كيف أن اليهود ، وهم في المنظور الإيماني أحقر خلق الله ، وفي المنظور التاريخي والإنساني شذاذ الآفاق وسفلة الشعوب، نتذكر كيف أنهم كانوا يبادلون الأسير اليهودي الواحد بعشرين أو خمسين ألف أسير عربي مسلم .. بل إنهم كانوا يتنازلون عن حشود الأسرى والمعتقلين مقابل استرداد جثة قتيل يهودي واحد.

ونتذكر أيضاً كيف أن أمريكا كانت ولا تزال تقيم الدنيا وتقعدها ، إذا اختفى لها رجل واحد، وكيف أنها تتخذ كل الإجراءات المشروعة وغير المشروعة ، وتبذل بسخاء أسطوري الكثير من المال والمتاع من أجل استرداده.

ونحن في الطرف الآخر ، نقدم في بقعة صغيرة واحدة من الأرض ، أكثريتها من المسلمين، وفي غضون أيام قلائل ، سبعة وعشرين ألف قتيل ، إزاء دويلة أرمنية لا تكاد ترى على خارطة العالم.

وغير هذه الواقعة عشرات ، بل مئات وألوف من الوقائع التي ذهب فيها آلاف المسلمين هزيمة أو غدراً .. ويكفي أن نستعرض أعمدة الصحف ومانشيتاتها في العقود الأخيرة. أو أن نستمع إلى نشرات الأخبار .. فلماذا ؟

لعبة سحب البساط

ما حدث ويحدث في أرتيريا ليس سوى واحدة من حلقات أو خبرات كررت نفسها ولا تزال في التاريخ الحديث والمعاصر ، في عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه.

سحب البساط في اللحظة الأخيرة من تحت أقدام المجاهدين الإسلاميين وتسليم الثمرة الناضجة لخصوم هذا الدين أياً كان ولاؤهم وانتماؤهم : نصرانياً أو صهيونياً .. لا دينياً أو – حتى – شيوعياً !

والذي يعتمد المحاولة ويباركها إنما هي دول الغرب نفسها وعلى رأسها أمريكا .. وفي الحالات التي لا يتوفر فيها سوى البديل الماركسي ، أو اليساري على أقل تقدير ، فإن أمريكا ما كانت تمانع في تسلّمه السلطة وإخراج الإسلاميين من الساحة ، رغم أن الجهد الأكبر والأكثر فاعلية في تدمير القيادة الضالة السابقة وهزيمتها ، كان هؤلاء ..

واللعبة مكشوفة تماماً ، فإن تبديل الوضع التاريخي ، أو السياسي ، أو المذهبي ، في دولة ما من دول العالم الثالث ، يصبح بمرور الوقت قدراً لا مفر منه ، بسبب من تراكم الانحرافات والضلالات والأخطاء.

نتنبّه القوى العالمية للأمر فتدخل سباقاً لاهثاً من أجل إحداث التغيير وتوجيه الحدث لصالحها ، معتمدة في ذلك على القوى الداخلية المؤثرة في الصراع ، ولما كان الإسلاميون أشد استعصاءً على المساومة الدولية ، لما كانوا – بحيثيات الإيمان الصلب وقناعات الولاء الحر – يصعب اختراقهم وجرهم للتعامل مع هذه الدولة أو تلك ، فإنه ليس ثمة مناص من البحث في خانة القوى المضادة للإسلام لإيجاد " العميل " المناسب الذي يتسلم القيادة ويملأ الفراغ.

حتى في الحالات التي كانت أمريكا لا تجد فيها سوى الشيوعيين فإنها كانت على استعداد لشرائهم والتعامل معهم من أجل قطع الطريق على الإسلاميين ، وأحياناً كثيرة ، عندما كانت تعجز عن إيجاد هؤلاء أيضاً ، كانت تصنع على عينها وبالمقاسات التي تريدها ، قوى يسارية ، وتشكيلات ماركسية لينينية حيناً ، وصينية ماوية حيناً آخر ، من أجل تسليمها المفتاح وسد الأبواب على الإسلاميين.

حدث هذا مراراً على أيدي الإنجليز والفرنسيين والهولنديين والاسبان والبرتغاليين والبلجيكيين وغيرهم من المستعمرين القدماء ، ويحدث تكراراً على يد أمريكا .. وبمقدور المرء أن يتذكر تماماً ما الذي شهدته – على سبيل المثال – أندونيسيا وباكستان ومصر والجزائر .. وبمقدوره أن يتذكر ما يحدث الآن في ساحات الجمهوريات الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفياتي المنحل.

أما في أعماق أفريقيا فإن الشواهد أكثر من أن تعد وتحصى ، وقد عرضنا لها بشيء من التفصيل في كتاب (ملامح مأساتنا في إفريقيا) حيث أخرج الإسلاميون في معظم الحالات من دائرة الفاعلية والقيادة وسلمت الفرصة الناجزة للصليبيين والصهاينة والشيوعيين ، يوم دخلت هذه الأخيرة طرفاً في اللعبة وأخذت تتحين الفرص للانقضاض في اللحظة المناسبة ، والمشاركة في لعبة جرّ البساط إياها !

والآن ، فإن أرتيريا تشهد المأساة نفسها .. تحجيم القوى الإسلامية التي تولت كبر الكفاح ضد الطاغوت الحبشي في مرحلتي الصليبية والشيوعية على السواء ، وتلقت لعقود طويلة من الزمن ضربات صليب هيلا سيلاسي ومطرقة منغستو هيلا مريام .. فلما سقط الطاغوت وحان قطف الثمار قفز الجناح النصراني لاحتواش الثمرة ، وأبعد الإسلاميين بهدف إخراجهم نهائياً مما يسمى بالتنافس على النفوذ أو الاصطراع على السلطة.

وليس ثمة ما يمنع الخصوم وقد أسكرهم عشق السلطة والتهافت عليها بأي ثمن ، من أن يمدوا أيديهم لأمريكا أو غيرها إذا ضمنت لهم الثمرة التي يتحلب لها الريق .. وليس ثمة ما يمنع هذه من أن تعقد الصفقة الملعونة مع هؤلاء الذين تدرك كم هم على استعداد ، وقد فقدوا الضوابط والمعايير الفكرية والأيديولوجية وحتى الأخلاقية ، للتعامل معها.

إنها لعبة " أعطني لكي أعطيك " والرابح الأكبر هو أمريكا بطبيعة الحال ، أما القوى التي تتعامل معها فقد يكفيها فتات السلطة وضمانات الديمومة والبقاء .. وأما الخاسر فهم الإسلاميون .. وهي خسارة مزدوجة لأنها لا تقف عند حدود إبعادهم عن السلطة ومراكز الفاعلية واتخاذ القرار ، وإنما تمضي لكي تبدأ سلسلة الملاحقة والتضييق ، والتصفية الجسدية في نهاية الأمر.

حدث هذا في أكثر من بلد ، ولا يزال يحدث ولسوف يستمر ما دام الإسلاميون يملكون قدراً كبيراً من طيبة القلب ، والإخلاص الذي لا يحرسه الحذر ، والفدائية التي توظف دائماً لصالح الخصوم.

ويوم أن ينتبه الإسلاميون لهذا كله فيكون أكثر دهاءً وحذراً ، ويعرفون كيف يقطعون الطريق على الخصم قبل أن يشتد ساعده فيطويهم أو يغدر بهم .. حينذاك يمكن أن تتغير الحال غير الحال ، وتكسر الدوامة التي " هرستهم " طويلاً وقذفت بهم بعيداً عن حركة التاريخ ومواقع الفاعلية ، وأعطتها لحثالات الشعوب من نهآزي الفرص الذين لا يبذلون ولا يضحون ، والذين يعرفون كيف ينجون بجلودهم في ساعات الحسم لكي ما يلبثوا أن ينقضوا من مخابئهم ، في اللحظة الأخيرة ، لقطف الثمار وحصاد الرز المر.

ومرة أخرى ، لن يكون بمقدور الإسلاميين كسر الحلقة المقفلة ما لم يتعلموا من الأخطاء ويتجاوزوها ، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ**

مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ... ﴾ (النساء : ١٢٣) ، والقائل : ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ...** ﴾ (آل عمران : ١٦٥).

السكين والمطرقة

الجمهوريات الإسلامية (الخمس) التي أعلنت استقلالها بعد انحلال الاتحاد السوفياتي كانت مرشحة في نظر المراقبين لأن تمنح عالم الإسلام عمقاً على سائر المستويات البشرية والسياسية والاقتصادية والاستراتيجية .. وقبل هذا كله : عمقاً دينياً ذا جذور موغلة في الحضارة والتاريخ ، كانت سياسات التأحيد والقسر الشيوعية قد سعت إلى أن تفك ارتباط شعوب المنطقة بها ولكنها عجزت تماماً.

وبقوة الاندفاع التاريخي والفكري المضاد " للسوفياتية " طردت الأحزاب الشيوعية من السلطة ليحل محلها المستقلون ، وأحياناً الإسلاميون ، واستبشر المسلمون خيراً ، لاسيما أن هذا كله جاء في موازاة أو بعيد الانتصار التاريخي المعجز للمجاهدين الأفغان على واحدة من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ البشري قدرة وهيمنة وجبروتاً.

لم يدم هذا طويلاً ، فالمعادلة التي تمخضت عن غياب الاتحاد السوفياتي لم تكن هي الأخرى لصالح المسلمين في العالم ، حيث تفردت أمريكا في الساحة وبرز ما يسمى بالنظام العالمي الجديد ، وأصبحت " الإسلامية " خط التحدي الأول لهذا النظام ، سيما وأن الأحداث المذكورة تزامنت مع تصاعد الصحوة الإسلامية وتأكدها وحضورها في أكثر من جبهة وعلى أكثر من صعيد.

في الماضي ، يوم كان الاتحاد السوفياتي لا يزال يحيا ويتنفس ويشكل الهاجس المزمن للولايات المتحدة ، كانت هذه على استعداد لأن تضع يدها بأيدي هذا الحزب الشيوعي أو ذاك لتدمير الإسلاميين هنا وهناك .. أحياناً أخرى كانت تصنع أحزاباً شيوعية بالمقاسات التي تتوخاها للغرض نفسه .. تتناسى الخطر المزمن لأن ثمة ما هو أشد خطراً واستفزازاً.

واليوم فإن محاولة إحياء الشيوعيات المحلية ودعمها أصبح لا يمثل أيما خطر على مصالح أمريكا ، بعد أن تم سحق الرأس الذي كان يشدها ويقودها إلى مواقع الفاعلية والتحدي قبالة الغرب .. اليوم تجد أمريكا ، وفي صفها الصهيونية والدوائر الكنسية ، أنه ليس ثمة بديل لمواجهة المد الإسلامي في الجمهوريات المستقلة إلا أن تنفخ في الرماد العتيق لعل الجمر الشيوعي المنطفئ يتألق من جديد فتكوى به جباه الحركات الإسلامية وتحرق محاولاتها لملء الفراغ الذي أحدثه غياب الشيوعية.

إن دمار الحروب الأهلية في مدى الجمهوريات الإسلامية ، وصراع الموت والحياة الذي يبحث عن تبريره بالعرقية حيناً ، وبالطائفية حيناً آخر ، وبالمذهبية حيناً ثالثاً ، يقود شعوب المنطقة إلى واحدة من أبشع المجازر البشرية في التاريخ الحديث ، وكان يفترض في النظام

العالمي الجديد أن يبذل جهده لوقف الحريق ، وتطويقه ، ومحاولة إطفائه لصالح الدم البشري المسفوك والطاقات المهدورة .. لكن الذي يحدث هو عكس هذا تماماً.

إن روسيا نفسها التي تتزعّم قيادتها السياسية الراهنة مهمة الحرب ضد بقايا التوجهات الشيوعية .. روسيا نفسها ، وبمباركة أمريكا والصهيونية والدوائر الصليبية ، تضع أيديها في أيدي الأحزاب الشيوعية البالية في المنطقة ، وتمدها بالمال والسلاح والرجال من أجل أن تمكنها من الإسلاميين وتعيدها إلى مراكز السلطة.

(إسرائيل) حذرت كثيراً من تنامي الإحساس الإسلامي في المنطقة ، ومن احتمال قيام الدول الإسلامية المجاورة بالقفز إلى الفراغ واستغلاله على حساب مصالح القوى العالمية الأخرى ..

الصليبية لا تزال تذكر صراعها التاريخي مع الإسلام والتحديات الأبدية التي يمثلها هذا الدين في مواجهة النصرانية التي لا تملك – بمفردها – مقومات البقاء.

أمريكا التي تقود العالم تحت مظلة النظام الموحد الجديد ، لا ترتاح لتنامي الإسلامية في الجمهوريات المستقلة ، وهي تجد قبالتها تحديات ما يسميه إعلامها بالأصولية ، وما يمكن أن يسببه تصاعدها وانتشارها من متاعب ، ويضعه من متاريس ، في مواجهة الهيمنة النهائية على العالم.

وأمريكا التي تتذرع اليوم بحماية حقوق الإنسان للتدخل المباشر هنا وهناك ، تنسى مهمتها هذه .. تنساها تماماً حيثما كان الأمر مرتبطاً بشعب مسلم يذبح بسكين الصليبية ، أو يهرس بمطرقة الشيوعيين القدماء .. وقديماً قال الشاعر :

ما حك جلدك مثل ظفرك فتولّ أنت جميع أمرك

فما لم يتداع المسلمون أنفسهم لحماية أنفسهم من القتل ، فإن ألف سنة من التظاهر لن تدفع خصومهم التاريخيين للتحرك شبراً واحداً من أجل إنقاذهم .. وسيظل صليب الكراهية ، ونجمة داود المتعطشة للدم ، ومنجل الحقد المكسور .. تدوّم فوق رؤوس المسلمين ، فتحصدهم هنا وهناك ..

الإسلام كان دائماً الهدف

بمنطق القوة المتفردة في مصير العالم ، المندفعة وراء إغراء التحكم والسلطان ، المنفلتة من أي معيار إنساني أو أخلاقي ، المتمردة على مطالب (الحكمة) التي شال بها الميزان، يمضي المعسكر الغربي بقيادة أمريكا لتنفيذ سياساته الجديدة – القديمة للهيمنة على الأمم والشعوب وتوظيف جغرافية العالم للمصالح الغربية تحت مظلة النظام العالمي الموحد أو الجديد.

وبعد أن غابت الشيوعية عن الساحة أصبح الإسلام هو الهدف الأول .. هكذا يخيل للكثيرين .. لكننا برجوع متأن إلى الوراء لاستدعاء الشاهد التاريخي يتبين بوضوح حيناً ، وبخفاء وغموض حيناً آخر ، أن الإسلام كان دائماً الهدف الأول للقيادة الغربية – ذات البطانة الصليبية والتأثير اليهودي – قبل انهيار الشيوعية ومعها وبعدها ، وقبل قيام النظام العالمي الجديد ومعه وبعده كذلك.

والاختلاف الأكثر أهمية أن الصراع ضد الإسلام أصبح الآن أكثر تكشفاً ووضوحاً ، والآليات الغربية في التعامل معه صارت أكثر قدرة على تجاوز الضوابط العرفية والأخلاقية. كما أن الإسلام أصبح بعد غياب الشيوعية الهدف الوحيد الذي تضعه القيادة الغربية نصب عينيها.

ولأمر يريده الله (جلت حكمته) ، يحدث وأن يتشكل النظام العالمي الجديد وتنفرد أمريكا في الساحة في ذات الوقت الذي تكون فيه الصحوة الإسلامية في كل مكان من جغرافية عالم الإسلام ، قد أطلت برأسها هي الأخرى وأكدت حضورها ، وأصبحت بحجمها الكبير الذي يزداد فاعلية وانتشاراً ، واضحة تماماً لكل ذي عينين.

وفي محاولة للالتفاف ، مبطنة ببعد إعلامي ونفسي ملحوظ ، يستدعي الغربيون المفردات الأكثر إثارة في مجابهتهم للصحوة ، بغض النظر عن انطباقها على الواقع ، وبعيداً أيضاً عن أية رغبة جادة في تقويم الظاهرة تقويماً موضوعياً يدّعي الغربيون أنه واحد من تقاليدهم الأصيلة.

ها هم الآن يطلقون على الإسلاميين تسميات الأصوليين والمتشددين والمتطرفين والإرهابيين ، يسمونهم بكل شيء إلا باسمهم الحقيقي .. وتلك لعبة غربية معروفة تماماً .. ومعروف أيضاً لهاث المقربين والأتباع من أبناء عالم الإسلام نفسه وقياداته الفكرية والسياسية والإعلامية ، وراء المفردات إياها واعتمادها في الخطاب كأن ليس هناك تسمية أكثر موضوعية وانطباقاً على الواقع ألا وهي الإسلاميون !

والنظام العالمي الجديد يملك ولا ريب قدرة تفوق حدود المعقول وتمضي باتجاه الحالات الأسطورية التي تصير فيها القوة صنماً جديداً يعبد من دون الله .. وهي لهذا تملك إغراءً مدمراً قد يقود أمريكا إلى تجاوز كل الضوابط القيمية في التعامل مع " الأضعف " لإرغامه على

الخضوع ، والأضعف هنا هو عالم الإسلام وطلائعه المتقدمة التي يجمعها إطار ما اصطلح عليه بالصحوة.

وإن هذا النظام يوظف اليوم كل طاقاته وإمكاناته لتحقيق الهدف المنشود في تدمير هذه الصحوة قبل أن تتجذر في العالم وتصير تحدياً متأبداً يصعب احتواؤه والقضاء عليه.

وهم إلى يوم قريب كانوا يداورون ويناورون في محاولتهم هذه ، أما اليوم وبسبب من تفردهم في الساحة ، أصبحوا يقولونها بوضوح ، وأصبحت تصريحات قادتهم وزعمائهم تترى منددة بالإسلاميين ، منذرة طلائعهم بالويل والثبور ..

وهذا حسن لأنه يكشف الأوراق تماماً ، بجعل المحاولة الماكرة تتشكل في جوانب كبيرة منها قبالة أنظار العالم وما يسمى بالضمير العالمي ، بوضوح تام.

والسؤال هو : هل سيكون بمقدور النظام الجديد أن يتمرد على سنن الله في التاريخ ؟ أن يتجاوز حيثيات الحركة وقوانين الصيرورة التاريخية ويتفرد في الساحة دون أن يتشكل في رحمه استقطاب للقوى يفتت وحدة القيادة ويعيد للعالم توازنه المفقود ؟

وقبل هذا وبعده ، هل بمقدور قوة في الأرض ، مهما عظم شأنها ، أن تلغي من خرائط العالم الدين الوحيد الذي يحمل بالصدق الكامل كلمة الله (سبحانه وتعالى) ورسالته إلى البشرية، وأن تحرفه عن أداء وظيفته التوحيدية الكبرى في العالم ، لصالح الطواغيت والصنميات والأرباب ؟

إن خبرة أربعة عشر قرناً لا يمكن أن تمحى بقرن أو قرنين ، وإن الصوت الوحيد الذي يعد البشرية المأزومة بالخلاص لا يمكن ، بحكم مطالب التاريخ وقوانينه ، أن يغيب عن مواقع الفاعلية والتأثير ..

فمن يضمن للنظام العالمي الجديد استمراره في التفرد عشرات القرون القادمة لكي يتمكن من أداء مهمته الماكرة هذه ؟ مهمته المخادعة التي هي ضد الإنسان ابتداءً .. من ؟!

الشيخ أحمد ياسين في محاكم التفتيش

ليست هي المرة الأولى التي يسقط فيها القناع الديمقراطي المدعى لإسرائيل .. فمنذ قيامها وحتى اللحظات الراهنة تحقق السقوط عشرات المرات ومئاتها.

أما الآن ، ومع قضية (الشيخ أحمد ياسين) بالذات ، فإنه سقوط ليس للبعد القانوني أو العدلي للادعاءات الإسرائيلية فحسب ، ولكنه سقوط ودمار البعد الإنساني الصرف في التعامل بين الغالب والمغلوب ، وعود محزن لشريعة الغاب التي تجعل منطق القوة المجردة حكماً في مصائر الأفراد والجماعات ، والتي تسمح للمخلب الأكثر قدرة على الفتك ، بتمزيق جسد (الآخر) الذي هيض جناحه.

في قضية (الشيخ أحمد ياسين) يسقط الإنسان في الممارسة الإسرائيلية .. ومرة أخرى ، وثالثة وعاشرة ، فإن هذا السقوط حتى في مستواه الإنساني كان قد تحقق منذ قيام (إسرائيل) ، بل قبلها بكل تأكيد (مذبحة دير ياسين مثلاً) ولكنه الآن يجيء لكي يستفز الوجدان البشري الذي تلقى شيئاً من المخدرات على مدى العقود الأخيرة ، فكاد ينسى ، كما أريد له تماماً ، أن هناك انتهاكاً لحقوق الإنسان في (إسرائيل).

إن ديمقراطية الغرب نفسها ، التي تعتبر بشكل من الأشكال الرحم الذي تخلّق فيه جنين الديمقراطية الإسرائيلية .. ديمقراطية الغرب نفسها تتعرى اللحظة لكي تنكشف على حقيقتها المغيبة ومغزاها الذي تشكل عبر حلقات متواصلة من الصراع بين الغرب والشرق .. إنه منطوق القوة المجردة من كل خلفياتها الأخلاقية أو الفكرية أو الإنسانية .. منطوق " الرجل الأبيض " و" الدم الأزرق " و" العرق الممتاز " و" السوبرمان " و" البقاء للأصلح " و" شعب الله المختار " و" محاكم التحقيق " والهيمنة البايولوجية العمياء على الأرض والماء والثروات والأشياء والمصائر والناس .. المنطوق الذي يصير فيه " هيغل " و" نيتشه " و" دارون " و" كبلنج " وغيرهم كثيرون، " عرّابين " يمنحون " الشرعية " لكل ممارسة غير متكافئة بين الغالب والمغلوب .. يباركونها رغم ما تنطوي عليه من اغتيال للحق الإنساني بصيغة يراد لها أن تكون " جريمة كاملة " يفلت فاعلها من القصاص ويوضع على جبينه إكليل الغار !

مراراً حدث هذا .. ولكن ليس كهذه المرة .. يقيناً.

في (السادس عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١م) صدر الحكم (الإسرائيلي) على (الشيخ أحمد ياسين) : السجن المؤبد مع خمسة عشر عاماً أخرى !

كان (الشيخ أحمد ياسين) قد اعتقل قبل ذلك بسنتين وخمسة أشهر تعرض خلالها للتعذيب والإنهاك في واحدة من أكثر حلقات التحقيق في التاريخ البشري قسوة وبشاعة .. وحسب التقارير الطبية فإن التحقيق الديمقراطي القادم من العمق التاريخي للديمقراطية الغربية التي بدأتها

(محاكم التحقيق) في إسبانيا ، هذا التحقيق الأكثر حداثة ، تمخض عن التهاب مزمن بالشعب الهوائية " للمعتقل " وضيق عام بالتنفس ، وحساسية مزمنة في الجلد ، وأكزيما ، ومتاعب في الرؤية بالعين اليمنى (نتيجة تعرضه لضرب قاسٍ عليها) ، إضافة إلى حالات غيبوبة مفاجئة مع آلام شديدة.

وبعد مرور أكثر من عام على إصدار الحكم عليه ، وطبقاً للمعلومات التي استقتها اللجنة الدولية للدفاع عنه ، ومن عائلة الشيخ وأطبائه ومحاميه ، فإنه يعاني من تدهور مقلق للغاية في صحته ، حيث ترفض السلطات الإسرائيلية السماح له بتلقي العلاج اللازم ، خارج المعتقل ، بالنظر لما يقرره الأطباء المختصون ، إضافة إلى ممارسة تضييق متزايد على عائلته ومنعها من تأمين متطلباته في المأكل والملبس ، وحيث أن الشيخ يحتاج إلى أطعمة خاصة وفقاً للبرنامج الصحي الذي حدده له أطباؤه ، فإن ذلك الإجراء ساهم في زيادة حدة تدهور صحة الشيخ أحمد ياسين بصورة تدعو لمزيد من القلق والخشية على مستقبله.

والآن ، فإن (الشيخ أحمد ياسين) يعاني من شلل كامل في أعضاء جسمه ولا يتحرك منه سوى رأسه ، ولا يسعه التحرك أو القيام بقضاء حوائجه دون مساعدة من مرافقيه.

هذه المعطيات المحزنة ، المضادة " للحق " في أبسط حالاته وأكثرها وضوحاً ، باطلة وغير شرعية ، مكشوفة البطلان واللا شرعية بالنظر إلى تعارضها مع مواثيق العدل الدولية وخاصة ميثاق جنيف الذي ينظم حقوق الأسرى ، وميثاق وقوانين الأمم المتحدة الخاصة بإدارة الأراضي المحتلة ، إلى جانب اللجوء إلى محكمة عسكرية تتبع السلطات المحتلة مباشرة ، ورفض السماح للدفاع بالاطلاع على حيثيات الأحكام ، سوى ما قررت الإدارة الإسرائيلية الكشف عنه وهو لا يعدو كونه تهماً عامة ومجحفة تفتقر إلى الأدلة العدلية.

وفي المنظور الديني الذي " يلبسه " الكهنوت الإسرائيلي .. أي عدل هذا ؟ وأي حق ؟ إن (فرديناند) و(إيزابيلا) وقسس محاكم التحقيق ينهضون ثانية في " إسرائيل " لكي يتعاملوا مع المسلم الذي لا ينتمي لدين السلطة بالأسلوب نفسه الذي أتى على مليوني مواطن تحت غطاء " المحكمة " و" التحقيق " وشرعيتهما الموهومة.

ترى هل تملك " إسرائيل " الاستعداد لسماع صوت الآخرين وقد صبت الشمع في أذنيها ، ومنعت رجلاً لا يتحرك فيه سوى رأسه من تلقي العلاج ، قبل أن يمضي مدة حكمه بالسجن المؤبد مضافاً إليها خمسة عشر عاماً أخرى ؟

الصوت اليهودي

إذا كانت الزعامات الأمريكية تملك أمر نفسها فعلاً ، وإذا كان ساستها لا يخضعون لقوة في الأرض بسبب تفرّدهم في قيادة العالم ، كما يعتقد البعض ، فليردّوا ولو مرة واحدة على شتائم بني إسرائيل ، وسبابهم ، وفجورهم السياسي.

إن أشدّهم صلفاً وتبجحاً .. ريغان .. القادم من سلالة رعاة البقر الأقوياء ، لوى رأسه لشتائم اليهود في الثمانينيات ، ولم يقم حتى بمحاولة تمثيلية لحماية ماء وجهه وهو الممثل المعروف !

ويتساءل المرء ، وهو يرى السيناريو نفسه يعاد المرة تلو المرة ، ويخرج الاحتجاج الإسرائيلي منتصراً إثر كل معركة جدل صاخب مع مراكز اتخاذ القرار الأمريكي بخصوص هذه المفردة أو تلك من المفردات السياسية التي يحدث فيها الاشتباك بين الطرفين حيناً بعد حين.

يتساءل ، وهو يرى الإيقاع ذاته في كل مرة ، يزداد مع تزايد حدة الصراع الإسرائيلي الذي يصل حد السباب للزعماء الأمريكيين ، بل التلويح بالتهديد قبالة تضاؤل في الصوت الأمريكي يصل حدّ الخجل والاعتذار والتلويح بالتعويضات السخية.

يتساءل : أهي مجرد تمثيلية متفق عليها سلفاً لتمرير لعبة ما على حساب الفلسطينيين والعرب والمسلمين ؟ أم هي الحقيقة التي تجعل أمريكا تتذكر تفردها وسلطاتها فتتخذ القرار المستقل الذي يراعي المصلحة القومية العليا ، بغض النظر عن ارتطامه بالسياسات الإسرائيلية أو تساوقه معها ، حتى إذا أحسّت هذه بأنه قد انتقص من مصالحها ، أخذت تحد أنيابها ومخالبها ، وتكشف عن وجهها القبيح في مواجهة أمريكا لإرغامها على التراجع والاعتذار ؟

أغلب الظن أن الأمر كذلك ، على الأقل في الحلقات الأكثر عدداً عبر هذه اللعبة الممجوجة ..

ولكن .. يتساءل المرء كرة أخرى : ما الذي يرغم أمريكا ، سيدة العالم ، على التراجع أمام (إسرائيل) " المضطهدة " و" المحاصرة " وربما العاجزة عن الدفاع عن أمنها السياسي والاقتصادي .. في كل مرة ؟!

ثمة دوافع شتى واضحة تماماً للعيان قد تمنحنا الجواب ، ليس أقلها بطبيعة الحال ، قدرة الصوت اليهودي في الساحة الأمريكية على التحكم ، بدرجة أو أخرى ، في مصير الانتخابات بشتى مستوياتها ، وصولاً إلى الرجل الأعلى الذي يقود أمريكا من موقعه الرئاسي في البيت الأبيض.

وفرصة الرئاسة تعطى للرجل الواحد مرتين كما هو معروف .. وهو من أجل ضمان الثانية، مستعد أن يتنازل عشرين مرة وثلاثين قبالة الاحتجاجات الإسرائيلية حول هذه المفردة

السياسية أو تلك ، ومستعد تماماً أن يجعل " إحدى أذنيه من طين والأخرى من عجين " فلا توجعه أو تزعجه شتائم يهود وسبابهم القبيح ، إذا كان ذلك كله يعني ضمان فوزه في الجولة الثانية. أما قبل هذا وذاك ، أي وهو يستعد للمنازلة الكبرى قبيل الجولة الأولى ، فإنه يمارس نوعين من المزايدات مع (إسرائيل) والحركة الصهيونية ومطالبهما المشروعة وغير المشروعة ، فيما لم يشهد له التاريخ مثيلاً ، وفيما هو معروف تماماً للقاصي والداني.

ويحس المرء ، والمرارة تنسرب في خلاياه حتى النخاع ، أن (إسرائيل) مدللة بأكثر مما يجب ، وأن عرّابها الأمريكي قد " دلعها " فيما جعلها تتجاوز معه كل حد ، وأنه – أي العرّاب – لا يشعر بأية غضاضة وهو يرى مدللته تضربه ، وتوبخه ، وتمطره بالشتائم واللعنات.

أتراها " المصلحة " التي ربى أستاذ التربية المعروف (جون ديوي) الأمريكي عليها ، فيما يعرف بالفلسفة الذرائعية (البرغماتية) تفعل كل هذا الفعل ؟ أم أن هناك ، مع المصلحة ، دوافع أخرى ، تجعل الموقف الأمريكي يصل حد التصلب الغرانيتي الذي لا يلين قبالة المطالب أو الاحتجاجات العربية والإسلامية المشروعة ، ويبلغ حد الميوعة والانحلال قبالة المطالب والاحتجاجات الإسرائيلية غير المشروعة ؟

نعم وبالتأكيد ، فثمة الخنادق التاريخية ، والحضارية ، والجغرافية ، والدينية تفعل فعلها .. ولكن هذه كلها يمكن تجاوزها بردم الخنادق من خلال الحوار المفتوح ، والرغبة الجادة في حل العقد وتجاوز الحساسيات والوقوف على قدم سواء يراعي كرامة الطرفين ومصالحهما العليا في الوقت نفسه.

بل إن دافع المصلحة " الذرائعية " وبخاصة في دائرة " الانتخابات " ، يمكن أن يحول عن وجهته الخاطئة ، وأن يوظف لصالح القضايا العربية والإسلامية ، أو على الأقل " يلطف " من اندفاعه الأعمى صوب العدو.

ولكن كيف ؟ والصوت الإسلامي داخل أمريكا وخارجها لا يزال يفتقد لحد الآن القدرة على التعلم من الآخر .. على الاستفادة من التجربة .. وتجاوز الأخطاء القاتلة لماض مترع بالفوضى والارتجال واللا مسؤولية والهزائم والانكسارات ؟

كيف والصوت الإسلامي لا يزال ، رغم عنف التحديات وضراوتها ، يصطرع مع ذاته ، ويتشرذم ، ويفقد القدرة على التنسيق ، ولمّ الطاقة وتجميعها في البؤرة الواحدة التي تستطيع أن تضيء وتحرق في الوقت ذاته ؟

أفلا نتعلم ، ولو مرة واحدة ، من خصومنا ، على الأقل لحماية أنفسنا من اللدغة القاتلة لأولاد الأفاعي ؟

الهوية أم الرغيف ؟

نشرت " قضايا دولية " في (عددها ٣١٧ شباط ١٩٩٦م) تحت عنوان (الإسلام السياسي لا يشكل خطراً على المصالح الغربية) ما يلي :

" استبعد إعلامي بريطاني مرموق أن يشكل الإسلام السياسي خطراً على المصالح الغربية، ودعا روجر هاردي – محلل شؤون الشرق الأوسط لدى القسم العالمي لهيئة الإذاعة البريطانية – الغرب إلى فهم الإسلام والحركات الإسلامية " بعيداً عن صورهما النمطية في إعلامه " ورأى هاردي المهتم بشؤون منطقة الشرق الأوسط منذ عام (١٩٧٣م) في محاضرة دعي إليها في المركز الثقافي بلندن " أن الحركات الإسلامية هي أكثر من مجرد إسلام سياسي ، وأنها تعبير صادق عن الصحوة الإسلامية وليست رد فعل على الفقر والبطالة ، بدليل الصحوة الإسلامية في دول الخليج الغنية " وأكد الإعلامي البريطاني في حديثه بأن نجاح الإسلاميين في الانتخابات البرلمانية التركية " يمثل اكتشاف الأتراك لهويتهم الإسلامية ولا يعني ظروف البلاد الاقتصادية " ، وانتقد هاردي نظرية (صراع الحضارات) لصموئيل هنتنكتن وقال إنها (جاءت في توقيت مناسب كان فيه الأمريكيون عطشى لشعار جديد يحل محل شعار الحرب الباردة ويستبدل الشيوعي بالإسلامي) ، وأضاف هاردي الذي اشتهر بسلسلة حلقات " الإسلام ، الإيمان والقوة " أن (الإسلام الأمريكي يصور الإسلام الآن على أنه عمر عبد الرحمن أو لويس فرقان باعتبارهما رموزاً غير مرحب بها في الشارع الأمريكي) ، واعترف أن السياسيين في الغرب لا يعرفون الكثير عن الإسلام لأن فرصة اللقاء لرموز الحركات الإسلامية والتعرف على وجهات نظرهم لم تتح لأكثرهم ، وأشار هاردي إلى أن (سبب خوف الغرب من الإسلاميين هو غياب الثقة في أن هؤلاء سيحافظون على الاستقرار لو وصلوا إلى السلطة ، ولو عرف الغرب أن جبهة الإنقاذ في الجزائر لن تضرّ بمصالح فرنسا مثلاً ، فإنه ما كان ليكترث لو وصلوا إلى الحكم) ، وأكد هاردي على أهمية الحوار بين الإسلام والغرب ، محملاً المسلمين الذين يعيشون في الغرب المسؤولية الكبرى في تحقيق هذا الحوار وترسيخ تفاهم إسلامي غربي ".

إذن فإن الدافع الاقتصادي بشكل عام ليس سبباً رئيسياً في الصحوة الإسلامية كما أكد عدد من الكتاب من بينهم (محمد حسنين هيكل) فيما يذكرنا بتحليلات الماركسية البائدة ، بردّ كل ظاهرة أو نشاط حيوي إلى المال والاقتصاد ، والشروط المحتومة لوسائل الإنتاج التي تتمخض عن القاعدة التحتية المتمثلة بهذا الظرف الإنتاجي أو ذاك.

والذين يستشهدون اليوم في فلسطين المحتلة أو بلاد الشيشان لا يبحثون عن التطمينات المعاشية وهم يتحفزون لمغادرة الحياة.

وإنه لأمر محزن أن تمسخ الظواهر الإنسانية الفريدة المتألقة في الحياة البشرية .. وتحجم ، وترغم على أن تكون انعكاساً لتقلصات الأمعاء وهي تبحث عن الشبع وإغراءات المال والذهب وهو يلتمع من بعيد .. أن تصير رداً على الفقر والبطالة ولا شيء وراءهما ..

إن الإنسان يضيع وسط هذه الرؤية المختنقة ، والقيم النبيلة ترتكس في حمأة الصراع المجنون على التكاثر بالأشياء.

وقبل هذا وذاك فإن الحقيقة نفسها يضحّى بها وسط هذا التزييف ، والحقيقة ها هنا ، في نسيج الصحوة المباركة ونبضها ، تعكس رغبة المسلم المعاصر في استعادة دوره الضائع في مجرى الحياة البشرية من خلال الإسلام وليس من خلال عقائد الوضعيين الخائبة أو المذاهب المشتراة من هنا وهناك كقطع الغيار.

وسواء كان الدافع في رد الصحوة إلى المال والاقتصاد خبث القائلين به ومكرهم وحسدهم الذي طالما تحدث عنه كتاب الله وهو يعرض لمواقف اليهود والنصارى والمنافقين .. أو كان جهلهم وعدم قدرتهم على إدراك المغزى الحقيقي للظاهرة .. فالأمر سواء .. إنه واحدة من عمليات التشويه العديدة التي تحاصر الصحوة اليوم في محاولة لتحجيمها ووقفها عن الامتداد.

إن روجر هاردي يعيد المعادلة الخاطئة إلى وضعها الصحيح بمثل يضربه : " إن نجاح الإسلاميين في الانتخابات البرلمانية التركية الأخيرة يمثل اكتشاف الأتراك لهويتهم الإسلامية ولا يعني ظروف البلاد الاقتصادية " ، إن الرجل ها هنا يبدو أذكى وأكثر استشراقاً واشد إخلاصاً للحقيقة من كل أولئك الذين فسروا الظاهرة ولا يزالون بالدافع الاقتصادي ، وهو تفسير عفا عليه الزمن ، رغم أن الدافع المذكور يحتل مساحة مؤكدة في سياق الظواهر كافة ، إلا أن هذا شيء وردّ الظاهرة في أساسها إلى هذا العامل شيء آخر تماماً.

ومن بين عمليات التشويه الأخرى للصحوة ، تلك الصورة النمطية التي يتحدث عنها روجر هاردي والتي تهيمن على الخطاب الإعلامي الغربي مقدمة الصحوة في إطار العنف والإرهاب وكراهية كل ما هو غربي بغض النظر عن خطئه أو صوابه .. وهو يضع يده على الدافع الحقيقي لتشكل هذه الصورة المضللة : إنه الأمريكي المعاصر المتعطش لشعار جديد يحل محل شعار الحرب الباردة ويستبدل الشيوعي بالإسلامي .. " اليانكي " الذي اعتاد أن يتعامل مع الآخر بمنطق رعاة البقر الذي شكل جذور السلوك السياسي في الحياة الأمريكية منذ عصر الاكتشاف والتوغل غرباً والذي لا يزال يبحث عن بدائل جديدة لإطلاق النار.

ويبرز من بين رعاة البقر هؤلاء ، بين الحين والحين ، مفكرون يقدمون تنظيراتهم لتغذية هذا التوجه ، وحمايته من التآكل والاندثار ، وتجيء نظرية (صراع الحضارات) في هذا السياق، والضحية أولاً وأخيراً هو " الآخر " الذي يراد له أن يتحول إلى ملاكم ويرغم على دخول

الحلبة وهو في اللحظات الراهنة " الإسلامي " الذي يبالغ في تصويره كرمز غير مرحب به في الشارع الأمريكي.

وثمة تشويه ثالث يفعل فعله في العقل والسلوك الغربيين إزاء الصحوة وكل المنتمين إليها أفراداً وزعماء وحركات وحكومات ودولاً ، فيما ينعكس بوضوح على سياسات أمريكا المتفردة بقيادة العالم إزاء السودان ، وتخوّف العديد من مراكز القرار السياسي والإعلامي في الغرب من وصول الرفاهيين إلى السلطة في تركيا ، وبإجماع دول الغرب – رغم ما بينها من خلافات – على ضرورة اغتيال خيار الشعب الجزائري بالاكتساح الساحق لجبهة الإنقاذ في الانتخابات المعروفة.

إنهم مقتنعون – صدقاً أم كذباً – بأنه لو أتيح للإسلاميين أن يصلوا إلى السلطة فإنه لن يكون بمقدورهم الحفاظ على الاستقرار !

من الذي حمى الخرطوم من السقوط بأيدي الفوضويين الجنوبيين المتعصبين سوى ثورة الإنقاذ ؟ ومن الذي قدم رغيف الخبز لشعب كاد الجوع أن يقوده إلى الضياع سوى ثورة الإنقاذ ؟ وقبل هذا وذاك ، من الذي منح السودان التوحد والاستقرار والتحقق بالأمن الغذائي والسياسي سوى ثورة الإنقاذ ؟ ومن الذي رسم سياسات السودان الخارجية المرنة التي لم تستطع كل الاستفزازات المتلاحقة أن تجر قدمها إلى مواقع رد الفعل المتشنج .. سوى ثورة الإنقاذ ؟

وما الذي جرى في الساحة التركية على أيدي الرفاهيين الذين ضربوا مثلاً عملياً مشهوداً منذ لحظات انتصاراتهم الأولى والمدهشة في انتخابات البلديات وحتى وصولهم القمة ، على قدرة الإسلامي المعاصر على تقديم أوسع الخدمات للأمة التي مزقتها أحزاب اليمين واليسار وآن الأوان لاستدعاء الإسلام لكي يقدم الحل على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فيما نسجته اليوم أذرع الرفاهيين في الشارع التركي فما زادت البلاد إلا نهوضاً واستقراراً ؟

إن هاردي يرد الأمر إلى جهل السياسيين الغربيين الذي لا يعرفون الكثير عن الإسلام ، وإلى تقصير المسلمين الذي يعيشون في الغرب في تعزيز " الحوار " كأسلوب في التعامل مع الآخر ، من أجل السعي لترسيخ تفاهم إسلامي غربي.

وهذا صحيح ولكنه لا يمثل سوى الوجه الواحد للصورة ، أما الوجه الآخر الذي ربما يكون هاردي قد ألمح إليه من طرف خفي ، فهو أن الغربي ، بعيداً عن كل الشروط الموضوعية، يميل في معظم الأحيان إلى اختلاق هدف ما للخصومة والبغضاء .. شاخص محدد لإطلاق النار. وفي الغالب يكون الإسلام والإسلاميون هما ذا الهدف .. ها هنا العمق الديني والتاريخي والحضاري والجغرافي والمصلحي والاستراتيجي الذي يعين على تأجيج الصراع ، ومنع الكلمة الحرة والخبرة الموضوعية من أن تصل إلى عقل المواطن العادي في الشارع الغربي ، ووجدانه ،

لكي تقول له إن هذه ليست هي الصورة الوحيدة للعلاقة بين الطرفين ، ولا هي بالقدر المحتوم وأن هناك صوراً عديدة أخرى.

الاخطبوط

وصف رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق " إسحق رابين " الحركة الإسلامية بأفعى ذات سبعة رؤوس يصعب مقاومتها ، وقال أمام تجمع لعدد من أصحاب رؤوس الأموال اليهود : إن الجهود الإسرائيلية في المرحلة المقبلة يجب أن تتوجه لمحاربة الحركات الإسلامية ومحاولة منع نفوذها في منطقة الشرق الأوسط ، ودعا إلى تحالف شرق أوسطي لمواجهة الحركات الإسلامية ومنع انتشار " وباء " الأصولية إلى مناطق أخرى من العالم !

وحول مستقبل مدينة القدس أكد رابين أنه لن يحدث أي تغيير في الموقف الإسرائيلي منها، وأنها ستبقى العاصمة الأبدية والموحدة للكيان الصهيوني في الداخل والمهجر ، وأبدى استعداده للتضحية بالسلام مع العالم العربي إذا ما حاول أي طرف عربي إرغام " إسرائيل " على إبداء أي تنازل في موضوع القدس ، ووصف رابين المطالب الفلسطينية في مدينة القدس بأنها : " هراء لا يستحق الرد عليه " وقال : " إن إسرائيل تتمتع بقوة تجعلها بمنأى عن أي ضغوط عربية ".

ما قاله رابين ليس جديداً وهو استمرار وتأكيد للسياسات الإسرائيلية منذ قيام " الدولة " ، ولكني سأقف لحظات عند واحد من المعاني التي ينطوي عليها التصريح : إن رابين رغم أنه يمثل حزب العمل الإسرائيلي ذا البنية العلمانية ، يزايد هنا مع " الليكود " وكل المتدينين الإسرائيليين لتأكيد الحق اليهودي في القدس والتشبث بها ، وهو تأكيد ذو بعد ديني كما هو معروف ، ومن ثم يصير رابين ها هنا " أصولياً " إن لم يكن بالاسم فبالفعل ، وهو بهذا يتناقض مع نفسه مرتين !! مرة بتشبثه بالثوابت الدينية اليهودية ومزايدة الليكود وحلفائه عليها ، ومرة أخرى بهجومه العنيف على الأصولية الإسلامية واستعداء " الأصدقاء " ضدها.

إذا كان اليهود يدّعون – كذباً – حقهم الديني الكامل في القدس ، فلماذا لا يكون المسلمون أصحاب حق ديني في هذه المدينة التي عاشت تحت ظلالهم القرون الطوال ، وشكلت أجيالهم خارطتها الديمغرافية منذ زمن بعيد ؟

ولماذا هذا الهجوم الوقح على الأصولية الإسلامية في نفس الوقت الذي يصير فيه المتدين اليهودي والعلماني على السواء أصوليين من خلال التمسك بادعاءات دينية لا تصمد أمام الوقائع التاريخية والنقد العلمي الجاد ؟

وإذا كان الاخطبوط الصهيوني يمد أذرعه السبعين ، وليس السبعة ، لتطويق الدول والشعوب ، والأحزاب والحكومات والزعامات في العالم كله على مداه ، ودفعها إلى الزاوية الضيقة وابتزازها ، وإرغامها على تنفيذ مطالب حكماء صهيون .. فلماذا هذه الضجة التي تجاوزت كل حد إزاء الحركة الإسلامية وتصويرها كما لو كانت أفعى تملك رؤوساً سبعة وتصعب مقاومتها ؟

إنه إسقاط مكشوف يمارسه رابين " العلماني " على الحركات الإسلامية ، فها هو ذا الوباء اليهودي المتجذر في التاريخ يزداد استشراءً وإفساداً في العالم قرناً بعد قرن ، ويبلغ الأوج عبر نصف القرن الأخير حيث أصبحت " إسرائيل " نفسها مخزناً كبيراً لتغذية الوباء ومده إلى أقطار العالم الأربعة.

وقد لا يكون " التناقض " و" الإسقاط " بجديدين على سياسات الزعماء الإسرائيليين ، بل إنهما القاعدة وغيرهما الاستثناء ، ولكن الجديد هو في تجاوب العديد من مراكز التأثير العربية والإسلامية ، بل والفلسطينية ، مع هذا التناقض والإسقاط ، وقبولها بمنطقه ، وتحركها لتنفيذ مطالبه على المستويات السياسية والأمنية والثقافية والإعلامية كافة.

فما قاله إسحق رابين عن الحركات الإسلامية يتصادى في العديد من الإذاعات الفلسطينية والعربية والإسلامية ، فضلاً عن " العالمية " التي امتطاها اليهود وأمسكوا بقرنيها إذا استعملنا عبارة حكماء صهيون .. إنهم يتهمون الحركات الإسلامية بالأصولية ، تماماً كما تفعل "إسرائيل". ولا بأس في هذا إذا كانت الأصولية تعني التشبث بالأصول القرآنية والنبوية لهذا الدين .. لكن أن تصير الأصولية ، كما هي في المنظور اليهودي ، تطرفاً وتشدداً وإرهاباً ، وأن تمضي الخدعة الماكرة لكي تطال جلّ زعامات ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي تنفرد أمريكا بقيادته .. بل أن تمضي لكي تخترق الجغرافية الفلسطينية والعربية والإسلامية ، وتسلم العديد من زعاماتها ومراكز اتخاذ القرار فيها ، سكين يهوذا الأسخريوطي لكي تغتال زهرة شباب الأمة ، ونخبتها الطاهرة ، وطلائعها المجاهدة التي تكافح لاسترداد الحق المغتصب .. فإنه الأمر المرفوض لكونه ينطوي على واحدة من أبشع صيغ التناقض مع الذات الفلسطينية والعربية والإسلامية ، إذ لا يعقل – على مستوى المنطق والواقع والبديهة – أن تضيق الخناق على من يسعى لتحريرك ، وأن ترمي بثقلك إلى جانب الجلاد الذي يحد شفرته لقتل كل من هو فلسطيني وعربي وإسلامي شريف في هذا العالم لكي لا يبقى إلا " الأمميون " .. قطعان الشياه التي لا تملك عقلاً ولا إرادة ولا ديناً ولا عقيدة والتي يسهل على زعماء يهود في أية لحظة سوقها إلى المذبح.

إن رابين في تصريحه ذاك يدعو إلى تحالف شرق أوسطي لمواجهة الحركات الإسلامية ومنع انتشار " وباء الأصولية " إلى مناطق أخرى من العالم ، فمن أجل حماية الأمن الإسرائيلي المهزوز بقوة الطلائع الإسلامية ، من أجل حياة هادئة آمنة مطمئنة رغدة للمواطن الإسرائيلي المغتصب ، ومن أجل تطمين مصالح حفنة من أصحاب رؤوس الأموال اليهود ، بل من أجل تنفيذ المنظور التوراتي الأصولي في الاحتفاظ بالقدس لبني " إسرائيل " إلى الأبد .. يدعو رابين لتحالف شرق أوسطي.

فماذا يمكن أن يقال إزاء كل أولئك الفلسطينيين والعرب والمسلمين الذين سيقبلون الدعوة الماكرة ، ويضيفون أذرعاً أخرى للإخطبوط الصهيوني الذي يمسك برقاب العالم ، ويسعى لاغتيال الحق والعقيدة والشرف والتاريخ ؟!

الدخول على الآخر

﴿ ... ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة المائدة : ٢٣).

ليس ثمة موقف وسط ، فإما أن نعبر إلى الآخر أو يعبر الآخر إلينا .. إما أن ندخل عليه أو أن يدخل علينا .. تلك هي سنة الله في خلقه وذلك هو واحد من قوانين الحركة التاريخية ، والتي كان تاريخنا بالذات انعكاساً أميناً لها.

وليس بالضرورة أن يكون الدخول على الآخر أو العبور إليه عملاً عسكرياً أو قتالاً مسلحاً .. كما أن عبور الآخر إلينا ودخوله علينا لن ينحصر بالجهد الحربي أو القتال المسلح .. فإن صراع العقائد والأفكار .. احتكاك الحضارات والثقافات ، يعطي هامشاً واسعاً لهذه الحركة الذاهبة أو الراجعة ، والأمة التي تعرف كيف تتنبه للأمر جيداً وتأخذ المبادرة هي التي تخرج منتصرة في نهاية الأمر.

وعبر السياقين الحربي والسلمي وجد المسلمون أنفسهم وسط حالتين لا ثالثة لهما : فيوم أن عبروا إلى الآخر بفتوحاتهم الجهادية وقدراتهم العسكرية أصبحت كلمتهم العليا في الأرض ، ويوم أن دخلوا عليه بدينهم وفكرهم وثقافتهم وحضارتهم المتميزة ، حققوا حضورهم المدهش في العالم كله ، فهزموا الثقافات العتيقة المتهرّئة وجعلوا من ثقافة التوحيد الثقافة الغالبة.

إن التاريخ لا يحتمل فراغاً ، تماماً كما هو الحال في تبادل الأدوار عبر مناطق الضغطين العالي والمنخفض ، فما أن تتهيأ الفرصة حتى تندفع دوامات الضغط العالي صوب المناطق المنخفضة فتكتسحها.

في التاريخ يصير الاندفاع القتالي أو السلمي .. العسكري أو الحضاري ، هو القانون السائد ، والذي لا يأخذ المبادرة فيبدأ عملية الاندفاع يصبح هدفاً لاندفاع الآخرين ، وقد يكون هؤلاء أدنى مستوى حضارياً ، وأبعد عن مطالب التحقق بالسوية الإنسانية ، وقد لا يكون هؤلاء يحملون عقيدة عليا ، وقد تكون المصلحة وتطمين الحاجات المادية هي التي دفعتهم لاكتساح الآخر .. وحينذاك تقع الكارثة ، ويسيل الدم البريء ، وتستنزف الطاقات المبدعة ، وتلحق بالأمم والحضارات المتفوقة كسور ليس إلى جبرها من سبيل ، بل قد يقودها هذا إلى الانهيار والدمار.

ولذا كان من حكمة هذا الدين أن يدعو أتباعه إلى عدم السكون لحظة واحدة لكي لا يسمحوا لمأساة كهذه أن تقع ، وان يسعوا بدلاً من ذلك إلى التحرك المضاد ، ليس فقط للدفاع عن مقدراتهم ومنع الكارثة ، وإنما لإنقاذ الأمم والجماعات والشعوب من طغيان الطواغيت والأخذ بيدها صوب التحرر ، ومنحها الفرصة المواتية للتقدم والإبداع.

لقد كان منطوق الحركة في الإسلام دائماً هو هذا : أن نتحرك إلى الآخر لإنقاذه وتحريره وتوسيع مدى حركته ومنحه الفرصة للتحقق بالسوية العليا التي تليق بالإنسان.

إن الدخول على الآخر في هذه الحالة يغدو أكثر من ضرورة لأنه – مرة أخرى – ليس مجرد عمل للدفاع عن الذات ضد عوامل التفكيك والتدمير وإنما ، وهذا هو المهم ، الدفاع عن الإنسان ، أينما كان ، ضد العوامل التي تسعى إلى سحقه ودماره.

من أجل ذلك ظل القرآن يرفع نداء الجهاد ويحكي ملحمة القيادات المؤمنة عبر التاريخ وهي تدخل على الخصم فتغلبه ، أو تعتذر عن الدخول خوفاً وحرصاً وعجزاً ، فيدخل الخصم عليها ويحجب عنها فرصتها التاريخية للتحقق والوجود.

ليس ثمة هدنة أو فسحة على الإطلاق .. ليس ثمة منطقة محايدة أو أرض حرام .. فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة .. هكذا يقولها الرسول " صلى الله عليه وسلم " بإطلاقٍ في الزمن والمكان.

لم يقل – عليه الصلاة والسلام – ارتاحوا هنا واستجموا هناك. كان يعرف – بهدي الله – أن أي توقف عن الفعل والحركة والاجتياز ، والعبور سيمنح الخصم الفرصة لكي يتحرك هو فيعبر إلينا لكي يقتلنا ويسلب أرضنا وأعرضنا حيناً ، ولكي يخترق عقيدتنا وثقافتنا حيناً بعد آخر فيلبس علينا ديننا وتصورنا ، ويخلخل ثوابتنا العقدية ، ويجعلنا نتأرجح قبالة أعاصير التشريق والتغريب.

وهل ننسى كيف أننا ، يوم توقفنا عن العبور إلى أوروبا بالفتح أو الدعوة أو الحضارة ، عبروا هم إلينا فمحوا وجودنا هناك أو كادوا ، ثم جاءوا إلى عقر ديارنا لكي يستعمرونا مئات السنين ولا يزالون – ربما – ولكن بصيغ غزو أخرى : ثقافية أو اقتصادية أو استراتيجية ؟!

وهل يجرؤ أحد اليوم في العالم الإسلامي على امتداده أن يقول إننا بالرضا بالسكون والتوقف عن الدخول على الغير يمكن إقناعه بأن يكف هو عن الاقتحام بهذه الصيغة أو تلك ، حتى لو قدمنا له الجزية وتمسحنا بأعتابه ، وتوسلنا إليه ، وحاولنا تقليده واتباعه في كل صغيرة وكبيرة حتى وهو يدخل جحور الضبّ الضيقة التي يفسد فيها الهواء وتختنق الأنفاس ؟

المجابهة بردود الأفعال !

لعل أحد الأسباب الرئيسية في حياتنا العربية المعاصرة للهزائم والانكسارات .. للمراوحة في أماكننا وعدم تقدمنا شبراً واحداً في العديد من المضامير التي تفوّق فيها الآخر وسبقنا بمسافات شاسعة يصعب حسابها على الحاسبين ..

لعل أحد الأسباب في هذا كله هو أننا كنا ، ولا نزال ، نجابه حركة التاريخ بردود الأفعال وليس بالأفعال ابتداءً.

وثمة فرق كبير بين هذا وذاك .. فإن المجابهة (بالفعل) تمنحك فرصة اختيار المكان المناسب واللحظة المناسبة في التعامل مع الآخر ، وتمكنك من إخضاعه للدراسة والتحليل بهدوء وإمعان ، وكشف أكبر قدر ممكن من خططه وقدراته ونواياه .. بل معرفة طريقته في التفكير وما يترتب عليها من السياسات ومناهج العمل.

وحينذاك ستكون أنت لا الآخر ، صاحب المبادرة ، وستجيئ حركتك المدروسة بعناية وهي تملك أكبر قدر من الضمانات ، وستمضي إلى أهدافك برؤية واضحة لا غبش فيها ، وبإيمان عميق بأن العاقبة – في الغالب – ستكون لك وليس عليك !

والذي كان يحدث في ديارنا أننا ما لجأنا إلا في القليل النادر إلى صياغة تاريخنا ، والجدل مع التحديات والمتغيرات ، من منطوق المبادرة بالفعل لا بردوده.

أما المساحة الأكبر في واقعنا المعاصر فقد ملأتها ردود الأفعال ها هنا حيث يرغمك الآخر على العمل في البيئة التي اختارها ، وعبر اللحظة التي حددها هو ، ومن خلال جهد مرتجل وربما فوضوي لم يحسب حسابه لأي شيء ، ولا رسم الخطط والسياسات ومناهج العمل التي تضع في حسبانها كل أقطاب الفاعلية التي يتميز بها الآخر ، والتي تجعلنا نمضي إلى الهدف برؤية واضحة غير مدخن عليها ، وبأكبر قدر ممكن من الضمانات.

ودائماً كان الآخر هو الذي يختار نقطة الانطلاق ، وتوقيتها ، هو الذي يبدأ ..هو الذي ينطلق أولاً في المسارات التي يريدها فيجعلنا نركض وراءه إلى حد اللهاث .. فتهدر طاقاتنا ولا نكاد نصل إلى شيء ، بينما يكون هو قد تركنا وراءه لمسافات طوال ، ووصل خط النهاية ، وأعلن فوزه بشهادة الحكام والمراقبين.

دائماً كنا ننتظر من الآخر أن يبدأ ، لكي نحدد بعدها ، وبسرعة لا تقرها طبائع الأشياء ، ردودنا على فعله .. وفي معظم الأحيان كانت هذه الردود المستعجلة ، المتشنجة ، غير المدروسة ، والتي لا تحسب حساباً دقيقاً لشيء .. تجيء على غير ما نريد ونتمنى ، فما تزيدنا إلا انكساراً ، وتخلفاً ، وضياعاً ، وهدراً للطاقات والفرص التاريخية.

إنهم " بالفعل " كانوا يوظفون التاريخ لصالحهم ، ونحن بردود الفعل كنا نخسر التاريخ ، وقد تكون مأساة حرب الـ (١٩٦٧م) وسيلة إيضاح بالغة المصداقية لهذا الذي نقول .. لقد كانت ، بتعبير رجال القانون " الجريمة الكاملة " التي ارتكبناها بحق أنفسنا فكان أن أفلتت حركة التاريخ من بين أيدينا ، بينما عرف الخصم كيف يمسك بها.

لقد اخترنا أن يبدأوا " الفعل " ثم جاءت مجابهتهم بردود الأفعال فكانت المأساة.

لكأن الفارق بين الموقفين هو الفارق بين العقل والعاطفة .. في الأول يستجاش العقل بهدوء لتقديم كل ما عنده من أجل تطمين المصالح العليا للأمة ، ومنحها الضمانات والقدرة على التنامي والاستمرار ..

وفي الثاني تشتعل النار في العواطف ، فترتجل الأفعال ، وتستعجل الثمار ، ويدخن على الوقائع والحقائق بالضجيج والصخب والصراخ .. فلا تكون النتيجة إلا المزيد من الهزائم والانكسارات ..

المغني عبد الحليم حافظ كان يرفع عقيرته وسط دخان الحرب وهدير المدافع والدبابات والقنابل الإسرائيلية ، متوسلاً بالمقاتل المصري : " بابا يقولك يا بطل هات لي انتصار ".

أي انتصار .. حتى ولو كان على سبيل التمثيل وخداع الذات .. انتصار .. وكفى .. فلعله يملأ شبراً أو ذراعاً في هوة اليأس التي حفرت خنادقها المخيفة في الذات العربية صبيحة الهزيمة .. هذا بينما كان الإسرائيليون – دونما أغانٍ أو أناشيد – ينطلقون إلى حافات القناة ، ويستقلون الجولان ، ويدخلون المسجد الأقصى ..

والانتصار الذي توسل المغني أن يجيئه به المقاتل المصري ما كان له أن يجيء حتى ولو كان انتصاراً جزئياً تافهاً .. والسبب أن هذا المقاتل الذي ضرب به المثل بالشجاعة الفائقة والقدرة القتالية ، والإيمان الذي يصنع المستحيل .. قد وضع – ابتداءً – في المعادلة الخاطئة .. وبدلاً من أن يبدأ هو الفعل ، أرغم – لسبب أو آخر – على أن يرد على الفعل ، فكانت ما أسماه الصحفي المصري المعروف (وجيه أبو ذكرى) : (مذبحة الأبرياء) وهو عنوان الكتاب نفسه الذي تحدث فيه عن تفاصيل حرب الـ (١٩٦٧ م).

وكان الرسول القائد " عليه أفضل الصلاة والسلام " هو الذي يبدأ الفعل في معظم الأحيان، إلا حيث أرغم على الرد – عبر حالات استثنائية – وكان وهو يأخذ المبادرة من الخصم ، يعرف كيف يوظف التاريخ ، فيحسب كل الاحتمالات الممكنة ، ويحدد الأبعاد المنظورة لقوى العدو ، ويرسم الخطط بتفاصيلها الدقيقة ، من أجل أن تجيء حركته وهي متحققة بأكبر قدر ممكن من الضمانات.

وكانت النتائج في معظم الأحيان لصالح المسلمين ..

هزمت الوثنية ، وصفي وجودها من جزيرة العرب. وقلمت أظافر اليهود .. وتم فك الارتباط بين القبائل العربية النصرانية في الشمال وبين سادتها البيزنطيين .. ومهد الطريق لحركة الفتوحات التي نقلت الحركة الإسلامية إلى مرحلة العالمية .. وبعدها جاء الراشدون " رضي الله عنهم " لكي يتسلموا القيادة ، ويتعاملوا مع التاريخ وفق الأسلوب نفسه : أن يبدأوا الفعل ما وسعهم الجهد ، وأن يرغموا خصمهم على خيار واحد هو ردود الأفعال بكل ما تنطوي عليه من أخطاء وسلبيات .. فكان هذا الذي كان ..

ومرة أخرى .. فإننا إذا أردنا أن نعدل وقفتنا الجانحة ، ورؤيتنا الخاطئة للأشياء ، فإن علينا أن نضع هذه المسألة في الحسبان ..

أن نبدأ الفعل على كل المستويات السياسية أو العسكرية أو الإعلامية .. أو .. الحضارية في نهاية الأمر ..

وإلا فإن انتظار الآخر كي يبدأ هو الفعل ويدفعنا إلى الزاوية الضيقة للرد الذي يفتقد الحسابات الدقيقة والضمانات الممكنة ، لن يقودنا إلا إلى المزيد من الهزائم والتخلف وهدر الطاقات ..

فلسفة قتل الإنسان

في المذاهب والنظم الغربية يبرر قتل الإنسان بلسان المقال حيناً ولسان الحال في معظم الأحيان ..

هيغل يمارس قتله باسم البطل التاريخي ، ومطالب العقل الكلي ، وهو يتحرك باتجاه تجلي المتوحد حيث تنطبق الفكرة على التاريخ ..

ماركس وإنكلز يمارسانه باسم ضرورات الصراع الطبقي وسعي البروليتاريا لحكم الأمم والشعوب وإفناء الطبقات الأخرى ..

هتلر وموسوليني يمارسان قتله باسم التفوق العرقي وضرورة البحث عن المجال الحيوي للشعوب ذات الدم الأزرق النبيل ..

زعامات الدول الغربية الرأسمالية تمارس قتله باسم الضرورات الاقتصادية في إيجاد المواد الخام ، والأيدي العاملة الرخيصة ، والأسواق المستهلكة ..

أمريكا تمارس قتله باسم النظام العالمي الجديد وصراع الحضارات ..

يقولون هذا في فلسفاتهم وتنظيراتهم ، وينقذونه في أفعالهم وسياساتهم ..

وفي كل الأحوال لا يكاد المرء يجد فسحة ما أو هامشاً ضيقاً لخيار الطرف الآخر المعرض للقتل.

إنها واحدة من أشد الجبريات التي شهدها التاريخ البشري ، وأكثرها دموية وعنفاً ، رغم أنها تتزيّا – حيناً – باسم المثالية – وحيناً – باسم التقدمية أو مطالب الحركة التاريخية ، وحيناً ثالثاً باسم حضارة الإنسان ..

ولكنها أردية زائفة لم تعد تخدع أحداً ..

كانت في يوم ما قديرة على أن تمارس لعبتها وتضحك على عقول الجماهير في مشارق الأرض ومغاربها. أما اليوم ، وبعد أن أثبتت هذه المذاهب والنظم عجزها عن مواصلة الطريق ، وفشلها في تحقيق أهدافها ، ومفارقتها القاسية لمطالب الإنسان ..

اليوم .. بعد أن ازداد الوعي ، وانتشرت الثقافة ، وقوي صوت الخطاب الإعلامي ، وأصبح العالم كله ، كما يقول المثل : " قرية صغيرة " ، غدا خداع الجماهير أصعب بكثير من ذي قبل ، ولم يعد أحد – إلا أن يكون مرغماً أو في حالات استثنائية لا يقاس عليها – يقبل أن يذبح من أجل تجلي المتوحد ، أو حكم البروليتاريا ، أو البحث عن الأسواق ، أو صراع الحضارات .. بينما – في المقابل – تظل الرغبة في الاستشهاد مركوزة في فطرة المسلم ودمه ووجدانه .. بل إنها اليوم ، كما هو الحال قبالة كل التحديات التاريخية الكبرى ، تزداد ألقاً وتوهجاً .. كما يلحظ المرء في الساحة الفلسطينية أو الشيشانية أو البوسنوية .. وغيرها كثير ..

والسبب أن الإنسان ها هنا لا يسوقه إلى الذبح الوضاعون والدجالون وكهنة المذاهب والأفكار .. وإنما يختار الموت ، مستجيباً – بتحرر كامل حتى أعمق نقطة من وجدانه – لنداء الله ورسوله " صلى الله عليه وسلم ".

وثمة فارق كبير بين نداء الله ورسوله ، وبين صرخات الدجالين والوضاعين .. هؤلاء يريدونها لأنفسهم .. لمجدهم الشخصي .. لتألههم في الأرض .. بينما في ساحة هذا الدين يصير الاستشهاد واحداً من أكثر صيغ التضحية والعطاء نبلاً وشرفاً ، لأنه يستهدف تحرير الإنسان ، وإخراجه من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ..

في المذاهب والنظم الغربية ليس ثمة خيار للإنسان ، فإما الانتماء للمذهب ، أو النظام ، وفق أشد الصيغ قسراً وإكراهاً ، وإما الملاحقة والاضطهاد والقتل .. أما في الإسلام ، وهو ينطلق لتحرير العالم والإنسان من قبضة الطاغوت ، ومنح حرية الانتماء العقدي للأمم والجماعات والشعوب .. فقد فتح الباب على مصراعيه للاختيار ، وكان بمقدور غير المسلم ، وفي كل الأحوال ، أن يظل على عقيدته شرط أن يكون مواطناً صالحاً في الدولة الجديدة .. وحينذاك وجدنا كيف أتيح لليهودي والنصراني والمجوسي والبوذي والصابئي أن يصير صرافاً كبيراً ، أو زيراً لامعاً ، أو طبيباً حاذقاً ، وكيف كانت المؤسسات التعبدية لهذه الطوائف تمارس نشاطها على مداه دون أن يقف أحد في طريقها ..

كان المقاتل المسلم وهو ينطلق مجاهداً في سبيل الله ، يعرض على خصمه ، قبل أن تسفك قطرة دم واحدة ، خياراً بين ثلاثة : الانتماء للإسلام ، أو البقاء على الدين السابق مع دفع الجزية تعبيراً عن المواطنة ، أو القتال.

فالقتال هو الخيار الثالث والأخير ، ومن قبل ذلك الباب المفتوح على مصراعيه للاستمرار على دين الآباء والأجداد.

ففي الإسلام (لا إكراه في الدين) بعد أن (تبين الرشد من الغي) .. ومهمة الفاتحين ليس قتل الآخرين وإنما نقل مشروعهم الإنساني الراشد قبالة غي الطواغيت وضلالات الكهنة والوضاعين ، بعدها يمكن لأي إنسان أن يختار الفكر أو العقيدة التي يشاء وفق قناعاته وتقاليده ..

فأيهما أكثر مثالية وتقدمية واستحقاقاً للوصاية على الإنسان وقيادة العالم ، الغربي الذي يقتل باسم فكرته النسبية المحدودة دون أن يعطي الآخر حرية الخيار ، أم المسلم الذي يمنحه العقيدة المتفوقة والحرية معاً ؟!

لمصلحة من ؟

لمصلحة من سوى المرتشين واللصوص والكسالى والقاعدين ، إبعاد الدين عن الحياة العامة وإرغامه على التراجع باتجاه العبادات الفردية والأحوال الشخصية ؟

وإذا كان الدين يملك قدرات مدهشة على تكوين المواطن النظيف والموظف النزيه والمنتج المبدع ، فلماذا يضحى بهذه الفرصة الفريدة التي تأخذ بيد الشعوب والدول والحضارات صوب الأقوى والأحسن والأكثر انضباطاً خلقياً .. ولمصلحة من ؟

إن المرء ليتساءل كيف يبيح عاقل لنفسه أن يرفع عقيرته بضرورة إبعاد الدين عن الحياة سوى أن يكون هو نفسه مرتشياً أو لصاً .. أو متقاعساً لا يملك الرغبة الجادة في التجرد والعطاء ؟

إنها دعوة تتأرجح دوافعها بين الجهل والاستغلال ولا شيء وراء ذلك على الإطلاق.

وقد آن الأوان لتعرية هذه الدوافع وانحراف القائلين بها عن الجادة في عصر أصبح فيه الزمن عاملاً أكثر حسماً في سباق الشعوب والحضارات ، وغدا أي تردد في المسيرة .. أي خطأ .. أية ممارسة سلبية تقود إلى حشد من التراكمات في الكم والنوع ، وتتخمض في النهاية عن اتساع الهوة بين المتسابقين ..

بدلاً من أن تتشبث بالدين كخبرة متميزة تفجر الطاقات وتدفع إلى التحسين والإبداع ، وتمنح الضوابط الخلقية والسلوكية ديمومة وتجذراً .. وهي أمور ضرورية في أي نشاط عام .. بدلاً من ذلك نجد الكثيرين يرفعون عقيرتهم بضرورة تحييد الدين وتحرير الحياة العامة من قيوده وضوابطه.

إنها دعوة معكوسة من أية زاوية نظرنا إليها ، وهي في بدء التحليل ونهايته ، دعوة ملتوية تسعى لأن تضع الأشياء في غير مواضعها ، فما تزيد الحياة العامة إلا تعاسة وتخلفاً وضلالاً ..

وقد آن الأوان .. كرة أخرى .. لكشف عوارها وتفاهتها وتأثيراتها المدمرة ..

الرشوة التي تستشري اليوم في شرايين النشاط الوظيفي في العديد من الدول ، وبخاصة دول العالم المتخلف ، تمثل كما هو معروف عنصر ابتزاز للمواطن واستغلال لحاجته الملحة للخدمات الحكومية ، وتوظيف للإدارات الحساسة ليس للمصلحة العامة وإنما لحفنة من الموظفين .. وعندما يشن الإسلام ، والدين عموماً ، حملته العنيفة ضدها ، عندما يسعى إلى تحريمها ، وتطهير الحياة العامة من ويلاتها ، فإنه يقوم بحماية المواطن من استغلال الدولة وهو في الوقت ذاته يحمي الدولة نفسها .. المال العام .. والمناصب المؤثرة .. من

الابتزاز .. من تحويلها إلى فرصة غير مشروعة للكسب الحرام على يدي الموظف اللا ديني الذي لا يردعه عن ممارسته الخاطئة هذه وازع يقول له : هذا حلال وهذا حرام ..

وغير الرشوة حشد كبير من الممارسات المنحرفة التي تغري بها المواقع الوظيفية التي تصير في بعض الدول أوكاراً للابتزاز المالي ، وسراديب للاستغلال الجنسي .. ومافيات للتهديد والإرهاب وملاحقة العناصر النظيفة في الجهاز الحكومي.

ومن منا لم يسمع حتى في الدول المتقدمة كاليابان وروسيا وفرنسا وأمريكا ، ناهيك عن دول العالم الثالث ، بمحاولات استغلال بشعة للمواقع الحكومية ، لتحقيق مصلحة قائد إداري ، أو عصابة من الموظفين على حساب المصالح العامة للشعب والدولة معاً ؟!

من منا لم يسمع برشوة شركة لوكهيد لصناعة الطائرات ، أو بمحاولة شراء أصوات الناخبين في دوائر الأحزاب الغربية الكبرى .. وبفضيحة (ووترجيت) التي أسقطت الرئيس الأمريكي السابق نيكسون ؟ من منا لم يسمع بالفضائح المالية المتزايدة لوزراء ورؤساء وزارات ومدراء عامين في طوكيو وموسكو ولندن وروما وواشنطن ؟

ومن منا لم يسمع وير ويكتو بما يفعله الموظفون المتنفذون ، بل حتى الموظفون الصغار الذي يقبعون في المفاصل الحساسة لأجهزة الدولة في بلدان العالم الثالث ؟

يكفي أنهم حولوا الرشوة من ممارسة خجولة إلى عمل مكشوف .. وأخرجوها من السراديب إلى المكاتب ، وأصبحوا يمارسونها كما لو كانت عملاً مشروعاً ، رغم ما تلحقه بحشود المواطنين من أذى ومتاعب وويلات على كل المستويات ؟

إن قراءة سريعة للصحف والمجلات العالمية في بلدان أوروبا .. أو متابعة معاملة رسمية في ديارنا ، ستضع أيدينا على حجم الكارثة التي تهدّد الإنسان في العالم من خلال ممارسة منحرفة واحدة يدفع إليها ضمير قد تخلى عن التزاماته الأخلاقية وعمقه الروحي .. فكيف بعشرات بل مئات وألوف من هذه الانحرافات التي لن يقدر على شكمها ووقفها عن الانتشار السرطاني الخبيث في شرايين الحياة سوى الدافع الديني الذي يفجر التقوى في قلوب العاملين والمسؤولين ويخضعهم لرقابة ذاتية صارمة تجعلهم يترددون ألف مرة قبل الإقدام على أي سلوك ملتوٍ أو كسب حرام ؟

فكيف لا يكون الدين متعاشقاً مع الحياة والإدارة والنشاط العام إذا كان مردوده في هذه السياقات الأساسية على هذا القدر من العمق والاتساع ؟ وهل يجوز لعاقل أن يفرط بفرصة ذهبية مؤكدة لحماية المصلحة العامة .. ولحساب من كرة أخرى ؟

إننا في زمن يقتضي منا توظيف كل ما نقدر عليه لنتجاوز الانكسارات والانهيارات والتخلف المزري .. ومحاولة وضع الخطوات الجادة في البداية الصحيحة من أجل أن نصل إلى

أهدافنا البعيدة التي ضللنا الطريق إليها منذ قرون وقرون فأعطينا الفرصة للغربي لكي يتحكم بمصائرنا ، ويبتزنا ، ويسومنا سوء العذاب ..

في ضوء هذا كله .. ألا تعد الدعوة لإبعاد الدين عن الحياة خيانة عظمى يستحق صاحبها أشد درجات القصاص ؟!

واحدة .. من عشرات

هذه واحدة من صور البؤس البشري الذي سبق وأن حدثنا عنه القرآن الكريم وحذّرنا منه في الوقت نفسه : ﴿ **وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** ﴾ (سورة النحل : ١١٢).

والسبب يكمن دائماً في اتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ..

يجيء هذا مكشوفاً حيناً ، كما حدث في مصر الفرعونية وإيران الكسرويّة على سبيل المثال ، ويجيء أحياناً أخرى مغطى بأردية الأيديولوجية والتنظير كذلك الذي شهدته ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية والاتحاد السوفييتي الشيوعي ، وكما تشهده كوريا الشمالية التي لا تزال تتدفأ على الوهج الكابي للماركسية الآفلة.

والأمر سواء .. اتخاذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. وتفرد هذا الطاغوت أو ذاك باستعباد الأمم والشعوب ، وتحوّله إلى إله مزعوم يستأثر بكل شيء ، ولا يكاد يبقي شيئاً لعبّاده المتمسحين بأذياله.

ها هنا في كوريا الشمالية تمضي اللعبة الشيطانية إلى غايتها ، حتى والزعيم الراحل (كيم إل سونغ) يدلف إلى شيخوخته ويكاد يفقد القدرة على التفكير والتواصل مع الآخرين .. ناهيك عن التفرغ لإدارة شؤون الدولة واتخاذ القرارات الحكيمة بصددها.

حتى إذا ما أحس بدنو الأجل عهد بالربوبية على العباد من بعده لابنه (كيم يونغ) لكي تواصل الحياة الطبيعية المبدعة مسيرتها ، ولكي لا تطلع الشمس من الغرب بعد أن كانت تطلع من الشرق .. ولكي لا يفجع الكوريون بموت الإله وبقائهم معلقين من رقابهم في فضاء مخيف لا إله فيه !.

ولم يقل أحد من العبيد ، ولن يقول ، بأن التنظير الشيوعي لا يسمح بالملكية الوراثية ، وأن هذا الذي تشهده بيونغ يانغ يتناقض ابتداءً مع ثوابت الماركسية.

ولقد توفي الأب بالفعل منذ زمن بعيد وجاء الابن من بعده فلم ينبس أحد من المواطنين ببنت شفة ، بل لعلّهم بسبب من استلابهم حتى النخاع كانوا يرون أن هذا هو القاعدة وغيره الاستثناء !!

ولم يترك التنظير الشيوعي هناك أية مساحة فارغة لاستكمال الثالوث ، فها هي ذي على بعد ستة كيلو مترات من العاصمة : (مقبرة الشهداء) حيث يتحتم على طلاب المدارس زيارتها ليشاهدوا تمثال (كيم سونغ) وهي الزوجة الأولى لرئيس النظام والتي ماتت عام (١٩٤٩م) فالمقبرة مكرسة لها.

ها قد اكتملت الأقانيم الثلاثة : الأب والابن والأم ، وليس ثمة سوى روح القدس التي تجيء بصيغة تنظيرات ماركسية تجعل الأقنوم الجديد أمراً ممكناً ومبرراً.

وثمة مفارقة أخرى من بين عشرات ومئات من المفارقات .. إن العمارة الكبيرة الوحيدة في العاصمة والتي تبلغ ٤٥ طابقاً وتبدو مثل قصر كثير القلاع ، أصبحت ملكاً للرئيس كيم إل سونغ ، حيث حصل عليها كهدية من الشعب عام (١٩٨٥م) في مناسبة عيد ميلاده الثالث والسبعين في دولة ماركسية يفترض فيها ألا تشهد أية ملكية فردية على الإطلاق ، ناهيك عن أن تكون هذه الملكية لرئيس الدولة نفسه !

والناس في كوريا الشمالية جوعى لا يكادون يعثرون على قوت يومهم ، ولا يملكون شيئاً على الإطلاق ، لأن هذا مناقض لمبادئ إلغاء الملكية الفردية في النظم الشيوعية.

وهم مع الجوع خائفون لا يكادون يأمنون على أنفسهم .. والحياة هناك تتوقف بعد الرابعة عصراً ، ويجري إطفاء الأنوار في العاشرة مساءً ، ولا ترى في الشوارع بعدها أي شخص باستثناء الشرطة.

التعاسة تتسرّب إلى روح المواطن هناك وتنعكس على الوجوه حزناً وتجهماً .. ومع هذا ترى في المدارس والشوارع لوحات تقول : " نحن سعداء ".

وتلك أكذوبة أخرى .. وما أكثر الأكاذيب في البلدان التي كفرت بالله ..

والكفر بالله ، أو الشرك به ، هو الظلم العظيم لأنه الأكذوبة الكبرى التي مارسها الإنسان العاق ولا يزال ..

ومن ثم لنا أن نتوقع كيف ستتكشف هذه الأكذوبة عن مئات وألوف من الأكاذيب التي أسقطت دولاً وإمبراطوريات تعبّد فيها الإنسان الإنسان ونسي الله !.

الصدق مع الذات

يلزمنا الإسلام بأن نكون صادقين مع أنفسنا وأن نجاهد ذواتنا باستمرار لتحقيق الوفاق بين القول والفعل .. بين الفكرة والسلوك.

جهاد صعب مثابر لا يفتر ولا يتوقف من أجل ردم أية هوة أو ثغرة قد تقود الإنسان المسلم إلى حالة الازدواج التي يرفضها الإسلام ويعلن الحرب عليها ، ويدين أصحابها بالنفاق !

والإسلام ، بما أنه يضع الإنسان بشكل دائم قبالة الحضور الإلهي ، ويمنحه ضميراً حساساً تجاه أية ممارسة ، فلا يقبلها وينفذها في واقع حياته اليومية إلا بعد تمريرها من مرشح وعيه الإيماني .. والإسلام بما أنه دعوة متواصلة للتسامي والصعود والتوحد ، يغدو مشروعاً مفتوحاً للسعي الموصول صوب الأحسن والأرقى ، وتجاوز كل عناصر الشد والإغراء التي تملك قدرة مذهلة على فك الارتباط داخل التجربة الإنسانية بين العقيدة والسلوك.

من أجل هذا سمي بالجهاد الأكبر ، إذ أنه يتطلب دفوعاً نفسية صعبة ومتواصلة ، مدعمة بأقصى درجات الحذر والوعي ويقظة الضمير ، لمجابهة قوى الشد والإعاقة والهبوط التي تقود المسلم إلى الثنائية والازدواج وربما النفاق !

المسلم الجاد إما أن يكون صادقاً مع نفسه ، متوحداً مع مطالب عقيدته وشريعته على مستوى الممارسة والعقل والسلوك ، أو ألا يكون على الإطلاق.

كتاب الله وسنة رسوله " صلى الله عليه وسلم " مترعان بالتأكيد على العمق الغيبي في خبرة المسلم ، وعلى أن خشية الله سبحانه في الغيب هي القاعدة وحجر الزاوية ونقطة الانطلاق في رحيل المسلم اليومي عبر مطالب الحياة وتحدياتها ، وأنه بدون التحقق بالإحساس الإيماني الشفاف ، أي بتقوى الله ، فلن يكون بمقدور المسلم أن ينفذ بشكل جاد مطالب دينه التي تغطي كل مرافق الحياة ومفاصلها وشراييها.

إنها حالة فريدة ما عرفتها عقيدة من العقائد أو دين من الأديان بهذا القدر من العمق والحضور والتأثير والامتداد !

إن المسلم الجاد ، وأشدد على الكلمة ، لهو نموذج إنساني فريد من نوعه ، بقدرته على التوحد حتى أعمق نقطة في كيانه .. إنه يجد نفسه مضطراً بحكم مطالب الإيمان لإحالة كل خبرة في حياته اليومية ، صغيرة كانت أم كبيرة ، على المقصود الشرعي ، ومن ثم يقبلها ويمررها ، أو يرفضها وينفيها ، وهو عبر جهده الصعب هذا يستمد الزاد والقدرة على القبول والرضى ، من دفقه الإيماني ، ومن توهج تقواه ، ومن طموحه لبلوغ أفق الإحسان حيث يجد نفسه قبالة الحضور الإلهي .. مكشوفاً لا يحجبه شيء ، فيلبي ويطيع ويزداد توحداً .. وهو سعيد بهذا ، مطمئن به ، قدير على تحمل عبئه الثقيل ..

وبمقدور المرء أن يتذكر خبرة واحدة من بين عشرات ومئات ، بخصوص هذه الحالة النادرة من التوحد للإنسان المسلم قبالة أصحاب المذاهب والعقائد والدعاوى والنظريات ..

إن إعانة الفقراء والكادحين ، والتحقق بالتكافل الاجتماعي الذي يجعل الأقوياء يمدون أيديهم لانتشال الضعفاء ورفعهم إلى مستوى الكفاية ، هي – كما هو معروف – من مبادئ الإسلام الأساسية ، فإذا ما حدث لمسلم ما أن انهالت عليه الثروة فجأة – لهذا السبب أو ذاك – فإنه بحكم فريضة الزكاة يجد نفسه ملزماً بمقاسمة الفقراء وفق نسبة تصاعدية من ثروته تلك ، وبذلك يظل صادقاً مع نفسه.

لكن هذه ليست سوى الحدود الدنيا والدرجات السفلى من السلم الصاعد إلى فوق ، ويبقى الأفق بعدها مفتوحاً للمزيد من التضحية والعطاء والإيثار ، والإعانة والتكافل .. فالصدقات في الإسلام مشروع مفتوح لا يحده قيد ، وبمقدور المسلم أن يبسط يديه لكي يتحقق بالمزيد من الصدق مع الذات من خلال تقديم المزيد من العطاء ..

إن هذا ليس كلاماً يقال ولكنه فعل مشهود يغطي تاريخ الأمة المسلمة وجغرافيتها ، فهو ليس في حاجة إلى إثبات ..

قارن هذا – إن شئت – مع الشيوعي أو الاشتراكي عندما يتحول بقدرة قادر إلى خط الغنى الفاحش .. إنه حينذاك لا يجد نفسه ملزماً بتقديم فلس واحد من ثروته للفقراء والمعدمين .. بل قد يدفعه موقعه الجديد إلى التنكر لمبادئه السابقة وإعلان الحرب عليها ..

ولكن حتى في حالة استمراره على (المبدأ) فإن انتماءه يصبح لا معنى له على الإطلاق .. مجرد كلام وشعارات وادعاءات لا رصيد لها من الواقع ..

ذلك أن الواقع أخذ يتشكل في الطرف النقيض الآخر ، وبزاوية قدرها مئة وثمانون درجة، عن المذاهب والقناعات ، وهو بذلك قد حفر خندقاً عميقاً يصعب عبوره .. هناك حيث تحكم الازدواجية قبضتها على عتق الشيوعي أو الاشتراكي ، وتجعل أفعاله شيئاً لا علاقة له البتة بالمذاهب والنظريات التي يدعيها ويتبناها ..

وحينذاك ستفقد مصداقيتها ، وقدرتها على الكسب والانتشار .. إذ ليس ثمة كالتجربة فرصة لاختبار العقائد وتمييز الذهب من التراب.

ولنتذكر – على سبيل المثال كذلك – ما فعله (نيرودا) الشاعر الشيلي الشيوعي ، و(ماركيز) الروائي الكولومبي اليساري عندما منحا جائزة نوبل.

لقد قبلاها ، رغم التناقض الفاضح بين توجهات المؤسسة المشرفة عليها وبين قناعاتهما الخاصة. ثم ، وهذا هو الأنكى ، تحوّلا بالإمكانات المالية التي منحتهما إياها إلى أرستقراطيين في حياتهما الخاصة ، ناهيك عن أن أحداً منهما لم يفكر مطلقاً في أن يقدم ولو جزءاً يسيراً

للفقراء والكادحين انسجاماً مع توجهاتهما الشيوعية واليسارية .. وغير نيرودا وماركيز عشرات .. ومئات ..

المسلم بين الاتصال والانفصال

المسلم الجاد يشكل علاقته بالمجتمع وفق صيغة مركبة ذات وجهين أو بعدين وليس وجهاً أو بعداً واحداً ..

أما أحدهما فهو الانفصال وأما الآخر فهو الاتصال .. وليس ثمة أولويات زمنية بين الخبرتين ، وإنما هما تتداخلان وتتعاقبان في أداء الدور وفق مطالب اللحظة الزمنية التي يتعامل معها المسلم.

بمعنى أنه قد يبدأ بالانفصال عن المجتمع ، أو البيئة التي يعايشها في جل حلقاتها وممارساتها ، ثم ما يلبث أن يتصل من خلال هذه الحلقة أو الممارسة أو تلك ، ثم يعود إلى الانفصال في اللحظة التي يتحتم فيها ذلك ، وهكذا ..

وبالعكس ، فإنه قد يبدأ بالاتصال أو الاندماج في مجرى الحياة العامة ، ثم يتحول بين الحين والحين إلى الانفصال لكي يتحقق بالحصانة والتميز ويحميهما في الوقت نفسه من التآكل والذوبان ..

وهو في الحالتين يعيش التجربة كإنسان وليس رقماً من الأرقام أو عنصراً من العناصر الطبيعية أو الكيمياوية ، أي أنه – حتى وهو في أقصى درجات الانفصال – يجد نفسه مرغماً على التماس مع البيئة عبر هذه النقطة أو المساحة أو تلك ، كما أنه – حتى وهو في أقصى حالات الاتصال – يمارس نوعاً من الانفصال الفكري والوجداني والذي يعينه على حماية استقلاليته وذاته العقدية.

إن المفاصلة بهذا المعنى تصبح أمراً ممكناً ، وخبرة معقولة ، وإلا فإنها الاستحالة ، أو الانحراف عن الجادة باتجاه الحالات غير السوية التي تقود صاحبها إلى العزلة أو الضياع !

ولا اعتقد أن كل الذين تحدثوا عن المفاصلة قصدوا وضع جدار أصمّ أو خط من الأسلاك الشائكة بين المسلم ومجتمعه الذي لا تحكمه قيم الإسلام ، لأن المفاصلة بهذا المعنى حكم بالإعدام على فاعلية الداعية ، ودفعه إلى الزاوية الضيقة التي تشلّ قدرته على العمل ، وتعزله عن الحياة ..

كما أن كل أولئك الكتاب الذين تحدثوا عن ضرورة الاندماج في المجتمع ، لإيصال الخطاب الإسلامي إلى سمعه ووجدانه ، والارتفاع به إلى مستويات أعلى باتجاه المطلوب الإسلامي ، ما قصدوا البتة تنازل المسلم عن قناعاته والتفريط بشخصيته وهو يسبح في التيار.

إنما هو الحل الوسط ، أو المعادلة الصعبة التي يلتقي فيها الانفصال بالاتصال وفق نسب غير محددة سلفاً ، ولكنها تتشكل في ضوء مطالب اللحظة الزمنية والبيئة التي تمارس فيها التجربة.

إن المفاصلة التي تعني الانسحاب من الحياة ، لا تقود فقط إلى شلل في قدرة المسلم على التأثير ، وإنما ترتد سلبياتها على نفسية المسلم ذاته فتصيبها بشروخ والتواءات خطيرة ، وتقودها إلى جملة من الحالات التي تخرج بالنفس عن سويتها .. كالحقد والجفاء والكراهية والنفور ، وأحياناً ، الإحساس المرضي المتورم بالذات .. وهي خصائص سلبية نقيضة تماماً لما هو مطلوب في المسلم من محبة وسماحة وانسجام ، وإيثار يبلغ حد نكران الذات والفناء في الآخر !

وفي المقابل فإن الاتصال غير المشروط بالمجتمع يقود هو الآخر إلى الانحراف عن " السوية " المطلوبة في المسلم صوب الترهل والتسيب وتميّع الشخصية ، وعدم القدرة بالتالي على الفعل والتأثير.

إنما هي – مرة أخرى – المعادلة ذات الحدين ، والنسب الدقيقة في الموقف ، والتحول المحسوب – في الوقت المناسب – من حال إلى حال.

إن المفاصلة في صيغتها المعقولة هذه تعني التحقق بالحصانة الداخلية من خلال الانفصال الفكري والنفسي والأخلاقي عن السياق الاجتماعي العام المترع بالشروخ والانحرافات على المستويات الثلاثة ، وليس الانفصال المادي أو المعيشي أو الاجتماعي ، أو حتى الوظيفي، لأن هذا يكاد يكون مستحيلاً – إلا في حالات استثنائية لا يقاس عليها – فضلاً عن كونه يقود إلى جملة من الأخطاء سبقت الإشارة إليها ..

والمفاصلة الإيجابية هي – بمعنى من المعاني – جهاد مزدوج يسعى إلى التحقق الذي يمنع الاندماج في التيار العام على المستوى الأفقي ، وإلى الاستعلاء الذي يمنع من الاندفاع إلى القاع !

ولن يتحقق ذلك بمجرد أن يرغب المسلم فيه ، ولا بالأماني والأحلام .. وإنما بجهد موصول على مستوى الفكر والروح يمكن الداعية ، من خلال شحذ الفكر وتغذيته بالقدرات المعمقة والموصولة في شتى السياقات المعرفية ، بدءاً بالعلوم الشرعية ، وانتهاءً بالآداب والفنون .. وشحذ الروح بالذكر والعبادة والاتصال الدائم بمنابع الوهج في كتاب الله وسنة رسوله " صلى الله عليه وسلم ".

إن هذه الرياضة المجاهدة على مستويي الفكر والروح هي التي تمكّن المسلم من ممارسة ما سماه القرآن الكريم بالتغيير ، وتحدّث عنه في موضعين :

﴿ ... إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ... ﴾ (سورة الرعد : ١١) ، **﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾** (سورة الأنفال: ٥٣). وهو الذي سماه الرسول الكريم " صلى الله عليه وسلم " : الجهاد الأكبر لأنه مجابهة شاملة للنفس ، وسعي متواصل للارتفاع بها صوب الأعلى.

وحينذاك ستكون المفاصلة ، ليس انسحاباً من المجتمع أو هروباً من تحدياته ، وإنما نزول إلى قلب المجتمع ومحاولة تغييره ، وقلبه إذا اقتضى الأمر ، دون أن يضطر المسلم قيد أنملة إلى التنازل عن قيمه وقناعاته أو يفقد جانباً من شخصيته المتميزة.

لقد خرج إبراهيم " عليه السلام " من المحرقة التي أوقدها له الطاغوت ، مثلاً على قدرة الحصانة الإيمانية والمفاصلة الجادة على النجاة من النار !

إن تاريخ البشرية مسرح كبير تلتهب في جنباته نار التمحيص الإلهي من أجل أن يميز الله (سبحانه وتعالى) الخبيث من الطيب ، ولكي يزداد الذهب نقاءً والماس تبلوراً ، بقوة الضغط والنار ، حيث يتم نفي الدخل والخبث والتراب والزبد ولا يتبقى سوى المعدن الأصيل.

ضلال العلم !

حقاً إن للعلم لضلالاً !!

فبمجرد أن ينفلت العلم من ضوابط الدين والحكمة ، فإنه سرعان ما يندفع باتجاه الأنانية والغرور والتعامل غير المنضبط مع القوة التي يقود إليها ، فلا يكون حينذاك ضلالاً واحداً وإنما سلسلة لا نهاية لها من الضلالات التي ترتكب بحق الإنسان والجماعات البشرية باسم التفوق العلمي.

إن الحروب التي اشتعلت نارها عبر القرن الأخير على وجه الخصوص ، إنما هي بمعنى من المعاني تعبير عن تنامي القوة التي يضعها الكشف العلمي في أيدي الدول والزعامات ، ويغريها باستخدامها لتحقيق غرور ذاتي ، أو مصلحة قومية ، أو لمجرد نوع من العمل الاستعراضي الذي لا يحسب – وهو مخمور بنداءات القوة – حسابه لأية نتيجة مهما عظمت وفدحت ..

وعندما تطلق النار بإغراء التفوق العلمي ، فإنها لا تميز في معظم الأحيان بين من يستحق العقاب ومن لا يستحق ، وفي معظم الأحيان أيضاً تكون الشعوب الأضعف هي الحطب الذي يعين على إشعال الحرائق الكبرى دون أن يكون لها في ذلك أية مصلحة على الإطلاق !

إن إغراءات الفتك بالضعيف واحدة من منظومة الشر التي يصنعها إغواء القوى حتى ولو كانت البداية صراعاً بين ندين. لكن النار ما تلبث أن تتسع وتأتي على الأخضر واليابس ..

لقد كانت الحربان العالميتان بمثابة ساحة اختبار لقدرة القيادات البشرية التي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، على توظيف العلم التطبيقي توظيفاً إنسانياً ، لكنها أخفقت في الامتحان ، وتبين أن إغراء القوة الذي لا يشكمه الإيمان ، لن يوقفه شيء عن المضي للفتك والتدمير ، بغض النظر عن انسجامه ، أو ارتطامه بمنظومة القيم الخلقية وإنسانية الإنسان ..

ولقد كانت القنبلتان الذريتان اللتان أسقطتهما الطائرات الأمريكية على هيروشيما وناغازاكي في أواخر الحرب الثانية بمثابة شاهد لن ينساه التاريخ على الضلال الذي يقود إليه العلم الذي لا يؤمن بالله ..

ثم جاءت القنابل الهيدروجينية والأسلحة الجرثومية والكيماوية لكي تزيد هذه الحقيقة المحزنة اتساعاً وتأكيداً ..

ولن تكون سوى حكمة سليمان (عليه السلام) تلك التي قصّ علينا القرآن الكريم جانباً منها ، ما يقدر على مجابهة الضلال وردّ الأمور إلى نصابها ، وليس هذا بالأمر المستحيل ، فلو قدر للأمة التي أنيطت بها أمانة الرسالات السماوية ، وعهد إليها بالشهادة على العالم ، أن

تتولى زمام البشرية فإنها ستكون منوطة بتحقيق هذا الهدف العزيز ، وإلا فإن العلم الوضعي سيزداد اندفاعاً وغروراً في أعقاب كل كشف جديد عن مصادر القوة التي يبلغ من قدرتها على التدمير أن تعجز المعادلات الرياضية عن تحويلها إلى أرقام منظورة ..

ومع غرور القوة وضلالها الذي يقود إليه العلم ، هنالك ضلال الفكر الذي لا يقل خطورة وقدرة على إلحاق التعاسة والدمار بالإنسانية مما تفعله القوة المجردة عن الدين والأخلاق ..

إن المذاهب والنظم والنظريات التي شهدتها القارة الأوروبية ، والتي جاءت أشبه بالإفراز الطبيعي لتنامي القدرات والكشوف العلمية .. تمكنت من خلال الغرور العلمي – إذا صح التعبير – على أن تتحكم بشعوب أوروبا ، بل بمساحات واسعة من جغرافية العالم عبر فترات زمنية متطاولة ..

لقد توهم المخدعون بضلال العلم أنه استطاع الكشف عن الحقائق الأساسية للوجود والمصير ، وأصبح بالتالي إلهاً متفرداً يشرع للناس ويرسم لهم المذاهب والنظريات والأفكار.

إن الفرويدية والداروينية والماركسية وعشرات غيرها من المذاهب والنظريات التي استعبدت الغربيين وغير الغربيين ، زمناً طويلاً ، إنما هي النتاج المحتوم للورم السرطاني المتمثل بغرور العلم وادعائه القدرة على تربع مركز الألوهية على مقدرات الناس .. فلما تبين أن هذا مستحيل وأن العلم هو مجرد محاولات أو خطوات للكشف عن جوانب محدودة ضئيلة من الحقيقة الكونية، ولما أعلن العلماء أنفسهم – بالجرأة التي يستحقون عليها التقدير – أن العلم هو ليس كل شيء في هذا العالم ، وأن منهجه لا يتجاوز حدود التعامل مع الظواهر والأشياء ، وأن معطياته ليست نهائية ، وأنها تتعرض للتغير والتحول ، وربما الانحسار ، في ضوء الكشوف الجديدة ، وأن العالم المادي ليس سوى القشرة الصلدة التي تخفي وراءها مجاهيل الغيب ومطلقاته ويقينياته الكبرى .. وأن هذه القشرة لا تتجاوز نسبة " العشر " المنظور ، بينما تظل هناك تسعة أعشار مغيبة عن الأنظار ..

لما تبين هذا وذاك ، وفاء العلم بعد عصر الفصام النكد إلى حظيرة الإيمان ، فقدت ضلالات الأفكار سندها ومصداقيتها وراحت تتساقط الواحدة تلو الأخرى ، ولكن بعد كم من العذاب والنكد وهدر الأموال والطاقات .. تحقق هذا الذي حرر حشود الضائعين في العالم من سلطة المذاهب والنظريات التي مارست استعباد عقولهم وأرواحهم وفق أشد صيغ الاستلاب والقهر عبر التاريخ ؟!

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه : **﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾** (سورة النجم٢٣).

الحرية .. والقوة

أحياناً يجد الإنسان نفسه قبالة الحبكة الإلهية المعجزة للمشروع الإيماني في الأرض ، حتى في أسماء السور القرآنية !

وعلى سبيل المثال ، هنالك سورتان تحمل إحداهما اسم " الشورى " والأخرى اسم " الحديد " .. بمعنى أن الحرية والقوة تمثلان قيمتين أساسيتين في الحياة الإسلامية وإلا ما سميت سورتان في كتاب الله العزيز .. بهما !

لقد أريد للأمة المسلمة منذ بدايات تشكلها الأولى أن تكون حرة قوية لأن غياب أو ضمور أي من القطبين يفقد هذه الأمة القدرة على الحركة والفاعلية والانتشار ، فيما هو ضروري لوظيفتها في الأرض باعتبارها الأمة الوسط ، والشاهد على البشرية في مسيرها ومصيرها ..

إن غياب الحرية في المجتمع المسلم يعرضه للتيبس من الداخل ، ويفقده القدرة على التحقق الذاتي والاستعلاء بالإيمان ، فيما هو ضروري لرفع الخطاب العقدي قبالة الآخرين ، والمضي به في مشارق الأرض ومغاربها.

إن غياب الحرية يعني فيما يعني انكسار الإنسان والجماعة قبالة سوط الإرهاب والاستلاب.

والقوة المجردة في حالة كهذه لا تستطيع أن تصنع من المجتمع المسلوب شيئاً ذا قدرة وفاعلية .. وبالمقابل فإن الحرية وحدها لن يكون بمقدورها تمكين الأمة المسلمة من حماية وجودها في الأرض والتعامل مع الآخر من موقع التمكن والتأثير إن لم تسندها القوة وتحميها من الانتقاص والعدوان.

إن شعار **(لا إله إلا الله)** الذي هو محور حركة الأمة وهدفها في الوقت نفسه يعني – ابتداءً – الثورة على الصنميات والطاغوتيات والمصلحيات السياسية والطبقية والعرقية والاقتصادية ، لأن هذا الشعار ينطوي على دعوة لتغيير العالم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. وهذا يعني – منذ اللحظات الأولى – الارتطام بالقوى التي ستتشبث بمواقعها ومصالحها .. فإن لم تكن الأمة متسلحة بالقوة فإنها لن تقدر على مواصلة الطريق وتنفيذ مشروعها في الأرض .. إنهما قطبان متكاملان لن يكون بمقدور أحدهما العمل بمعزل عن الآخر : الحرية التي تحصّن الأمة من الداخل ، والقوة التي تحميها من الخارج ..

إن القرآن الكريم يقدم لنا في هاتين السورتين ، بل في تسميتهما ، مفاتيح عمل ، إذا أحسنَّا التعامل معها استطعنا أن نقطع المسافات الطوال صوب أهدافنا الكبرى.

ولقد أدرك المسلمون الأوائل وقيادتهم الراشدة أبعاد هذه المعادلة فحرصوا على تربية أمتهم على الحرية ، وتمكينها – في الوقت نفسه – من القوة ، لا لحماية نفسها فقط ، وإنما لإرهاب

أعدائها الذين أخذوا يحدون إزاءها المخالب والأنياب ، وتمكينها منهم ، ومن أجل فتح الطريق أمام حرية الإنسان وخياره العقدي دون أن يقف في طريقه كسرى أو قيصر أو فرعون ، ودون أن تستلب حقه مصلحة أو ظن أو هوى ..

وبالإمساك بطرفي المعادلة : الحرية والقوة ، وإحسان التعامل مع المفاتيح القرآنية ، تمكن الأجداد من أخذ زمام المبادرة ، ونفذوا مشروعهم الإيماني في مساحات واسعة من العالم.

فلما ارتخت الأيدي ، وتثاقلت العقول ، وطغت المصالح والأهواء ، وعمّ الجهل ، أخذ المسلمون يفقدون شيئاً فشيئاً موقعهم المتميز ويتراجعون صوب الخطوط الخلفية .. وكان معنى ذلك إتاحة الفرصة للخصم الكافر مرة أخرى لتولي الزمام ..

شيئاً فشيئاً أخذ المسلمون يتعرضون للاستلاب والقهر والاستبداد ، فأهينوا وهانوا على أنفسهم ومرغت كرامتهم في التراب ، ولم يعد بمقدورهم وقد انكسرت همتهم أن يمضوا للتعامل مع الآخر بالثقة والاستعلاء الضروريين للتأثير فيه وكسبه .. بل اتقاه مكره وضرباته الموجعة وتحركه المضاد ..

وشيئاً فشيئاً راح المسلمون يهملون مطالب التعامل الجاد مع مصادر الطاقة والقوة التي سخرت لهم في الأرض ، وتوظيفها للتحقق بالقوة ، بينما مضى الخصم يوغل في الأرض ويستخرج طاقاتها ، ويكشف عن سننها ، ويسخرّها لتمكنه وهيمنته ..

إن الغربيين يتفوقون علينا اليوم بأمور شتى ، من أبرزها وأكثرها ثقلاً وحضوراً : الحرية والقوة !

صحيح أن الحرية لم يعطوها إلا لأنفسهم ، وحجبوا حق التمتع بظلالها الوارفة عن الآخرين .. ولكن من قال إن الحرية تعطى ولا تؤخذ ؟ من قال إنها هبة القوي للضعيف ؟

والقوة نفسها إن لم تكن – ابتداءً – من صنع أيدينا فلن يكون استجداؤها من الآخر هو الأسلوب الصائب لتجاوز ضعفنا وانكسارنا ..

لقد جربنا هذا وذاك .. جربنا التوسّل بالغربي لكي يمنحنا شيئاً من " ديمقراطيته " .. كما جربنا أن نشتري منه السلاح الذي نحمي به أنفسنا وكانت النتيجة – في الحالتين – المزيد من الهزائم والتراجع والانكسار ..

والقضية ، بعيداً عن وضع الخلفيات الفلسفية التي تعقّد الأمر ولا تجلوه ، لا تتجاوز حقيقة أن على المسلمين في العالم أن ينصتوا جيداً لنداءات القرآن ، أن يعرفوا كيف يتسلمون مفاتيحه، وكيف يحسنون التعامل معها .. وحينذاك – فقط – سيتغيّر الحال ، وستعود الأمة الوسط إلى موقعها المتميز شاهدة على العالم ، قديرة على إعادة صياغته بما يريده الله ورسوله " صلى الله عليه وسلم " لا بما يتخبط فيه الكهنة والوضاعون ..

العالم .. والسلطان

يحكى أن أحد السلاطين قام بزيارة للجامع الأموي الكبير في دمشق .. مرّ – وهو يجتاز الباحة – بعالم معروف كان قد أسند ظهره إلى الجدار ، ومدّ ساقه وهو منهمك في الإجابة على أسئلة أحد تلامذته .. لم ينهض العالم قائماً ليقدم فروض الاحترام ولا كلف نفسه – حتى – عناء سحب قدمه !

أحس السلطان بأنه قد امتهن ، فأسرها في نفسه حيث لم يكن أمامه لحظتها أن يفعل شيئاً لاستعادة هيبته الضائعة ..

عندما استقر به المقام في المجلس الذي أعد له هناك بعث أحد غلمانه بصرة من الذهب إلى العالم المذكور ، فما لبث هذا أن ردها في وجه الغلام قائلاً : من يمد قدمه للسلطان لا يمد إليه يده !

كان السلطان قد مارس صنوفاً من الظلم والابتزاز مع أبناء أمته التي قدر لها أن تخضع لجبروته ، فلم يكن موقف العالم الكبير مجرد رغبة " شخصية " في حماية كرامته التي منحتها إياه مكانته كعالم ، وإنما كان – إلى جانب هذا – رداً على جبروت السلطان الظالم وكسراً لعنجهيته واحتجاجاً على سياساته.

إن موقفه هذا هو موقف أمة بكاملها كان العالم يومها ، من خلال الموقع العالي الذي يحتله ، يمثلها قبالة السلطة .. قبالة كل صنوف الأذى والجهل والضلال التي تحيق بها .. وكان وقوفه للسلطان وهو يمر بإزائه يعني أنه خان الأمانة وقدم فروض الاحترام لرجل لا يستحقها .. ويعني أنه خدع الجماهير المؤمنة التي وضعت ثقتها فيه .. أما قبوله الذهب فهو يعني ما هو أكثر شناعة من هذا : وضع شرفه وتميزه وثقة الجماهير به في كفة ميزان مع إغراء الذهب والفضة ، وأن هذه قد مال بها الميزان فشالت كفته الأخرى فلم يعد ثمة أيما وزن للقيم النبيلة التي تشع من روح العالم وعقله وضميره.

لقد كان العالم الكبير يدرك هذا جيداً .. وفي لحظات وجد نفسه في المعادلة التي لا لبس فيها ولا غموض ، والتي لا تسمح بأيّ هامش للتردد على الإطلاق .. فإما شرف العلم وإما قوة المال ، ولقد اختار الأولى فرفض أن يمد يده للسلطان ..

ويقارن المرء بين هذا الموقف الذي ينبثق عن رؤية إيمانية ساطعة كحد السيف ، وبين مئات الشعراء الذين كذبوا على السلطان بتسخير شعرهم في مديحه وتلقوا أكياس الذهب والفضة .. يقارنه – أيضاً – بما هو أشد إمعاناً في الخطيئة : وعاظ السلاطين وفقهاء الطاغوت وهم يبررون أخطاءه ويصدرون فتاواهم في تخريج سياساته الظالمة من أجل أن يتسلقوا منصباً أعلى ويحصلوا على كيس أكبر من الذهب والفضة.

لقد كان قدر هذه الأمة أن يصير فقهاؤها طليعتها المتقدمة في مواجهة السلطان .. أن يكونوا ممثليها الحقيقيين ورمز شرفها وكرامتها وتمنعها على عسف السلطة وظلمها وابتزازها.

ومن ثم كانت خطيئة العالم أو الفقيه ليست خطيئة اعتيادية ولكنها مركبة ، تنزل كالسكين الحادة ذات الشفرتين لكي تذبح العالم والأمة معاً.

وعبر تاريخنا الطويل شهدت جماهير الناس صنفين من العلماء قبالة السلطان الجائر : صنف يركض بقدمه ، ويمد يده ورأسه للسلطان لكي يحظى بالمزيد ، وصنف يظل في مكانه صامداً كالطود لا يكلف نفسه حتى عناء النهوض للسلطان وهو يمر به ، لإبداء فروض الطاعة والاحترام ، بل لا يكلف نفسه أن يسحب قدمه الممدودة .. لأن هذه – إذا أردنا الحق – هي مهمة السلطان نفسه لا العالم أو الفقيه.

خلفاؤنا وسلاطيننا الكبار الذين كانوا ينظرون بعين الله سبحانه ، وينفذون بأمانة تعاليم رسوله الكريم " عليه أفضل الصلاة والسلام " أدركوا هذا جيداً ، لمحوه منذ اللحظات الأولى بقوة إيمانهم وثاقب بصيرتهم ، فوضعوا أنفسهم تلامذة بررة قبالة أساتذتهم الكبار فكسبوا بهذا رضا الله ومحبة الجماهير واحترام العالم والفقيه.

هارون الرشيد الذي كان يحكم نصف العالم يومها ، شوهد – مرة – وهو يتمشى مع أحد كبار العلماء .. كان يضع يده في يد العالم وهما يقطعان المسافات المحيطة بالقصر ويتحدثان .. فجأة ودونما مبرر ملحوظ سحب الخليفة يده من يد العالم وكأنه قد تذكر شيئاً ما .. فلما لمح في عيني العالم التساؤل الملحّ ، منحه الجواب :

- يد العالم هي العليا في هذا العالم وليس ثمة فوقها إلا يد الله ، فلم أشأ أن أجعل يدي فوق يدك أيها العالم الجليل لكي لا أغضب الله !

نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، سلطان الشام ومصر وقاهر الصليبيين ، كان – وهو في قمة السلطة – يسعى إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم ، وكان العلماء عنده – كما يحدثنا مؤرخو عصره : أبو شامة وابن واصل وابن الأثير – في المنزلة الأولى والمحل العظيم ، يحضرهم إلى مجلسه فيدنيهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويجلسه معه ، ويقبل عليه بكليته تعظيماً وتوقيراً واحتراماً ..

خليفة كذاك وسلطان كهذا يستحقان أن ينهض لهما علماء الأمة ، ويقدموا لهما فروض الاحترام .. أما أولئك الذين رفسوا جماهير الأمة بأقدامهم .. فلا يستحقون – على الأقل – إلا أن تظل أقدام العلماء ممدودة تجاههم ، ولو من قبيل رد الإساءة بمثلها ؟!

فماذا يسمى – بعد هذا – مد اليد لقبول ذهب السلطان والتهافت عليه ؟

سلاطنة كثيرون وضعوا أكياس الذهب في جيوب علمائهم وفقهائهم فلما قبلها هؤلاء وضعوا العلماء والفقهاء أنفسهم في جيوبهم !

ويتساءل المرء : لو أن علماء الإسلام وفقهاءه كانوا جميعاً كهذا الذي لم يمد يده للسلطان في الجامع الأموي الكبير ، أنفة وكرامة واستعلاءً ، أكان بمقدور قوة في الأرض أن تشتريهم ؟ أن تشتري كرامتهم وضمائرهم وفتاواهم لصالح السلطان ؟

وعلى حساب من ؟ غير الأمة التي وضعت ثقتها فيهم .. وغير العقيدة التي وزنت مدادهم بدم الشهداء .. وأرادت لكلماتهم أن تتجذر في الأرض وأن تسمو بفروعها إلى السماء ؟!

معادلات .. في مواجهة المحنة

منذ مئة وخمسين عاماً ، أو يزيد ، وطلائع الأمة المسلمة ، ونخبها المتقدمة ، تتلقى الضربات القاسية ، وتحيق بها النكبات والانكسارات ، وتتجرع العلقم والمرارات .. فلم يثنها ذلك لحظة عن واصلة الدرب ، ومجابهة الطاغوت الذي حشد كل قوى العالم لسحقها وإبادتها ..

الشهادة في سبيل الله كانت مختومة على الجباه .. والرغبة العاتية في التحرر وإعادة ترتيب الأشياء المبعثرة في هذا العالم .. إعادة صياغته بما يرضي الله ورسوله .. كان هدفها الأول والأخير .. وهي من أجل المضيّ – ولو خطوات صوب هدفها هذا – ما كان يهمّها أن تتلقى الضربات وأن تحيق بها النكبات .. المهم أن تمضي .. ألا تخون الأمانة وأن تذهب للقاء الله وهي مطمئنة إلى أنها قد قطعت شوطاً آخر من سباق الركض بالراية صوب خط النهاية والفوز الكبير ..

اليأس ما خطر لها على بال رغم أنها في معظم الأحيان كانت تقاتل في ظروف هي فوق طاقتها وقدراتها ، وتجد نفسها في معادلات هي في غير صالحها .. ومع ذلك فقد ظل ينبض في كل خلية منها معنى هو قبل المعادلات ومعها وبعدها : أن على المسلم في هذا العالم أن يحمل هدى الله إلى الإنسان بالكلمة ، فإن أعاقته العوائق وصده الطاغوت عن المضي إلى هدفه، فثمة السيف !

وبمرور الوقت كان الأفق يزداد ظلمة واعتاماً .. وكانت الأعاصير تدوّم يعنف لم يشهد له التاريخ مثيلاً .. عنف شكلته خبرة القرون الطوال في مجابهة " الحق " واستخدمت فيه القدرات الدولية التي تمرست في سحق المسلمين على مدى جغرافيتهم الممتدة في قارات العالم الثلاث ..

رغم هذا كله لم ييأس الإسلاميون ، أو يلقوا السلاح ، لأنهم كانوا يدركون جيداً أن العاقبة ستكون لهم ، وأن التاريخ لا يقاس بالأيام والسنين ، والنتائج لا تترتب على الجهود السهلة المتسرعة .. والمصائر الكبيرة تجيء وقفاً لحجم الخسائر والتضحيات التي بذلت في سبيلها ..

وهم يعرفون جيداً أن التاريخ نفسه .. تاريخ الآباء والأجداد لم يكن نزهة للاستجمام .. ومسيرة سلمية لم يطلق عليها الرصاص .. على العكس : لقد كانت مساحاته الأكثر امتداداً وإيغالاً تنطوي على كل صنوف الأذى ومفرداته في قاموس الإنسان.

لقد كان هذا هو قدر المسلمين في كل مكان وزمان .. قدر أية أمة في الأرض ترفع شعار " **لا إلـــه إلا الله** " في مواجهة الوثنية والشرك والطاغوت .. ولكنهم به ومن خلاله ، انتزعوا النصر .. وحققوا حضورهم المدهش في جغرافية العالم ، ونعموا بالأمن ، والسلم والخير والبركة .. ونعمت معهم جماعات شتى من غير المسلمين .. أمم وشعوب شتى عندما اختارت

أن تدخل السلم معهم .. والفارق أن الطلائع الإسلامية عبر القرنين الأخيرين ، وعقودهما الأخيرة بالذات ، تلقت من الويل ما لم تتلقه أجيال المسلمين عبر تاريخها الطويل ..

لقد استخدم معها ، إذا صح التعبير ، نوع من تراكم الخبرة في المجابهة على المستويين الدولي والمحلي ، لسحقها حتى العظم ، وإلغاء وجودها التاريخي والجغرافي من الجذور ..

كل أنماط الخبرة السياسية والعسكرية والبوليسية والإعلامية والثقافية والعلمية والتكنولوجية .. وظفت لتحقيق الهدف الشرير.

ويكفي أن نتذكر ما فعلته فرنسا في الجزائر ، والاتحاد السوفييتي (المنحل) في الجمهوريات والأقاليم الإسلامية ، على المستوى الدولي ، وما فعلته الصهيونية و(إسرائيل) على المستوى المحلي ..

ومع ذلك تبرز في قلب الجزائر ، وفي الجمهوريات السوفياتية المنحلة ، وفي فلسطين .. حركات إسلامية أعيت الخصوم والأعداء .. وامتلكت من عوامل التمكن والحصانة ما مكنها من اكتساح البيت والشارع والمؤسسة والمصنع والمزرعة والقرية والمدينة والمدرسة والجامعة .. ومضت لكي تجعل كلمتها هي العليا لولا أن تداعت عليها القوى المضادة في الداخل والخارج في محاولة لكفها عن العمل .. لتحجيمها على الأقل ، ومنعها من أخذ زمام المبادرة وسحب البساط من تحت أقدام القيادات العتيقة ، وأرباب المصالح والمطامع والشهوات والإقطاعيات .. ترى هل سيقدر لها النجاح بعد أن تبين لها أن جهود عشرات السنين ومئاتها لم تتمخض إلا عن الصحوة المدهشة التي ما زادتها المحن ، وكل أنماط الحصار والدمار إلا قوة وتألقاً ؟

إن الدفوع التي يملكها المسلم بقوة عقيدته ، ونفسه الجهادي الطويل ، توازي – غالباً – حجم الضغوط المضادة وقد تتفوق عليها .. ونحن ننسى أحياناً ، قبل الخصوم والأعداء ، أن المسلم في هذا العالم هو امتداد لإرادة الله ، وستار لقدره ، وننسى أيضاً ، قبل الخصوم والأعداء، أن الله جلت قدرته هو المنتصر الأوحد ، وراء وقبل وبعد ، كل جزئيات التاريخ ووقائعه ، وأن الطاغوت وأتباعه كافة ، مهما ازداد عددهم وتجذروا في الأرض ، ليسوا سوى أدوات فحسب قد تسخرها الإرادة الكبرى ، وفق خرائط دقيقة مترعة بالحكمة ، فتحقق هنا أو هناك انتصارات جزئية موقوتة ، لكنها في نهاية الأمر ستؤول إلى الهزيمة والانكسار ..

وننسى أيضاً ، قبل الخصوم الأعداء ، أن حجم الدنيا على امتدادها الطويل في التاريخ والجغرافيا .. في المكان والزمان .. لا يعدو أن يكون جناح بعوضة إزاء عالم الخلود ، وأن النتائج الأكثر دواماً وثقلاً هي تلك التي سنحظى بها " هناك " لو قدرنا – فقط – على الصمود وعدم الانزلاق إلى دركات الهزيمة النفسية واليأس والإحباط ، وننسى – كذلك – أننا كمسلمين نتحرك ، من دون خلق الله جميعاً ، مع نواميس الكون ، في تساوق معها ، وعدم ارتطام بإيقاعها الموزون.

ننطلق من المبادئ الصحيحة لقوانين الحركة في الطبيعة والتاريخ بينما الخصم يتخبط ، ويرتطم ، ويضيع .. والعاقبة ستكون لمن يضع يده وعقله وقلبه في تناغم وانسجام مع إيقاع الكون والنواميس والموجودات.

إن المد والجزر قانون أبدي يمارس عمله في الطبيعة والحياة على السواء .. والرجل هو الذي ينتظر لحظة المدّ ويتحفز لتوظيفه لكي تمضي به الموجة إلى أبعد الآفاق ..

إنها معادلات لابد من إدراكها في مواجهة المحنة المعاصرة ، فالتاريخ – على امتداده – لم يخل يوماً من المآسي والمحن والنكبات ، والعبرة بالنتيجة !

كتب للمؤلف

أ – بحوث تاريخية :

١. ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز. (الطبعة الثامنة) مؤسسة الرسالة – بيروت.

٢. عماد الدين زنكي. (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة.

٣. دراسة في السيرة. (الطبعة ١٧) مؤسسة الرسالة – دار النفائس – بيروت.

٤. الحصار القاسي ، ملامح مأساتنا في أفريقيا. (الطبعة الثالثة) مؤسسة الرسالة.

٥. التفسير الإسلامي للتاريخ. (الطبعة الخامسة) دار العلم للملايين – بيروت.

٦. نور الدين محمود : الرجل وتجربته الإسلامية. (الطبعة الثانية) : دار القلم – دمشق.

٧. الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام : أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر. (الطبعة الأولى) مؤسسة الرسالة.

٨. في التاريخ الإسلامي : فصول في المنهج والتحليل. (الطبعة الأولى) : المكتب الإسلامي – بيروت.

٩. المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي : عصر ولاة السلاجقة في الموصل. (الطبعة الأولى) : مكتبة المعارف – الرياض.

١٠. ابن خلدون إسلامياً. (الطبعة الثانية) : المكتب الإسلامي .

١١. دراسات تاريخية. (الطبعة الأولى) : المكتب الإسلامي .

١٢. حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي. (الطبعة الأولى) : دار الثقافة – الدوحة.

١٣. المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر : مونتغمري وات. (الطبعة الأولى) : دار الثقافة.

١٤. تحليل التاريخ الإسلامي : إطار عام. (الطبعة الأولى) : دار الثقافة.

١٥. المنظور التاريخي في فكر سيد قطب. (الطبعة الأولى) : دار القلم – بيروت.

١٦. حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي. (الطبعة الأولى) : دار النفائس.

١٧. مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية. (الطبعة الأولى) : الجامعة الإسلامية – ماليزيا.

١٨. الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين. (الطبعة الأولى) : دار الفكر – دمشق.

١٩. دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك). (الطبعة الأولى) : المعهد العالمي للفكر الإسلامي – دار الرازي – عمان.

ب – بحوث إسلامية :

١. لعبة اليمين واليسار. (الطبعة السادسة) ، مؤسسة الرسالة.

٢. تهافت العلمانية. (الطبعة السادسة) ، مؤسسة الرسالة.

٣. مقال في العدل الاجتماعي. (الطبعة الرابعة) ، مؤسسة الرسالة.

٤. مع القرآن في عالمه الرحيب. (الطبعة الثالثة) ، دار العلم للملايين.

٥. آفاق قرآنية. (الطبعة الثانية) ، دار العلم للملايين.

٦. كتابات على بوابة القرن الخامس عشر (بالاشتراك). (الطبعة الثانية) ، دار العلوم – الرياض.

٧. كتابات إسلامية. (الطبعة الأولى) ، المكتب الإسلامي – مكتبة الحرمين.

٨. أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار. (الطبعة الثانية) ، مؤسسة الرسالة .

٩. مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث. (الطبعة الثانية) ، مؤسسة الرسالة .

١٠. العلم في مواجهة المادية : قراءة في كتاب " حدود العلم ". (الطبعة الثالثة) ، مؤسسة الرسالة .

١١. مؤشرات إسلامية في زمن السرعة. (الطبعة الثالثة) ، مؤسسة الرسالة .

١٢. حول إعادة تشكيل العقل المسلم. (الطبعة الخامسة) ، كتاب الأمة – الدوحة.

١٣. في الرؤية الإسلامية. (الطبعة الأولى) ، دار الثقافة.

١٤. حوار في المعمار الكوني. (الطبعة الأولى) ، دار الثقافة.

١٥. الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي : قراءات. (الطبعة الأولى) ، مؤسسة الرسالة.

١٦. مدخل إلى إسلامية المعرفة. (الطبعة الثالثة) ، المعهد العالمي للفكر

الإسلامي – فرجينيا.

١٧. قالوا في الإسلام. (الطبعة الأولى) ، الندوة العالمية – الرياض.

١٨. رؤية إسلامية في قضايا معاصرة. (الطبعة الأولى) كتاب الأمة – الدوحة.

١٩. القرآن الكريم من منظور غربي. (الطبعة الأولى) ، دار الفرقان – عمان.

٢٠. المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي. (الطبعة الأولى) ، دار الفرقان.

٢١. الرؤية الآن : في هموم فلسطين والعالم الإسلامي . (الطبعة الأولى) ، منشورات فلسطين المسلمة – لندن.

٢٢. متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة. (الطبعة الأولى) ، دار الحكمة – لندن.

جـ – <u>أعمال أدبية :</u>

١. المأسورون (مسرحية ذات أربعة فصول). (الطبعة الثالثة) ، دار الإرشاد – بيروت.

٢. في النقد الإسلامي المعاصر (نقد). (الطبعة الرابعة) ، مؤسسة الرسالة.

٣. فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة). (الطبعة الثانية) ، مؤسسة الرسالة.

٤. الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (دراسة). (الطبعة الثالثة) ، مؤسسة الرسالة.

٥. جداول الحب واليقين (شعر). (الطبعة الثانية) ، مؤسسة الرسالة.

٦. معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد). (الطبعة الأولى) ، مؤسسة الرسالة.

٧. خمس مسرحيات إسلامية (ذات فصل واحد). (الطبعة الأولى) ، مؤسسة الرسالة.

٨. محاولات جديدة في النقد الإسلامي (نقد). (الطبعة الأولى) ، مؤسسة الرسالة.

٩. الشمس والدنس (مسرحية ذات أربعة فصول). (الطبعة الأولى) ، دار الاعتصام – القاهرة.

١٠. مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (دراسة). (الطبعة الثانية) ، مؤسسة الرسالة.

١١. الإعصار والمئذنة (رواية). (الطبعة الأولى) ، مؤسسة الرسالة.

١٢. المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد). (الطبعة الأولى) ، مؤسسة الرسالة.
١٣. العبور (مسرحيات ذات فصل واحد). (الطبعة الأولى) ، دار المنارة – جدة.
١٤. متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (نقد). (قيد النشر).
١٥. الفن والعقيدة (دراسة). (الطبعة الأولى) ، مؤسسة الرسالة.
١٦. في النقد التطبيقي (نقد). (الطبعة الأولى) ، دار البشير – عمان.
١٧. ابتهالات في زمن الغربة (شعر). (الطبعة الأولى) ، دار الوفاء – المنصورة.
١٨. الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي. (الطبعة الأولى) ، دار الضياء – عمان.
١٩. كلمة الله (قصص). (الطبعة الأولى) ، دار حضرموت – المكلأ.
٢٠. الرحيل إلى اسطنبول (من أدب الرحلات). (الطبعة الأولى) ، دار حضرموت.
٢١. ريبورتاج (حوار في الهموم الإسلامية). (الطبعة الأولى) ، دار الحكمة.